أعلام الخلفاء الأمويين

اعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أعلام الخلفاء الأمويين

إعـــــداد: د/ رجب محمود بخيت

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يئوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانة لامعقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد..

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله ﷺ لأصحابه:﴿قوموا، فانحروا ثم احلقوا﴾، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة،{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقرِ دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكله الفاسد بمباركة

الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ } [الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ } [الأنعام: ٩٠].

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

- يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن

الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد على خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها

مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ:{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ} [هود: ١١٦]، مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وأخيرا فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من الجوانب المشرقة من حياة بعض أعلام الأمة، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم

وتنويها بمنزلتهم وفضلهم.

سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الخلافة الإسلامية

لقد سعي العالم في تحطيم وحدة المسلمين، وتجزئتهم إلى أجزاء متفرقة كثيرة، وعملت جيوش الغزاة بكل ما لديها من وسائل معنوية ومادية، لهدم الخلافة الإسلامية، لأن هذه الخلافة - مهما كان شأنها - تمثل الحزام الذي يجمع المسلمين في شتى أقطار الأرض، أو الرمز السياسي الذي يجعلهم يلتقون التقاء ما تحت راية سياسية واحدة، وهذا الأمر يقض مضاجع الأعداء، وإن وصل به الضعف إلى أن غدا رمزاً ليس له أي سلطان فعلي.

وذلك لأن بقاء أمر الخلافة مقروناً بالدوافع والمحرضات الدينية التي قد تحيي ما مات منه، وقد تعيده إلى بعض مراكز قوته الأصلية، مما تخشاه جيوش الغزاة خشية كبيرة، نظراً إلى ما للشعوب المسلمة من وزن عظيم في العالم، تمثله أعدادهم البشرية، ورقعة الأرض التي يملكونها وما فيها من خيرات وكنوز كثيرة، وما لهم من تاريخ حضاري غابر، قد يحرك فيهم بواعث نهضة حضارية جديدة، تستطيع أن تنافس وتسابق الحضارة الغربية المادية الحديثة، فيما لو أطلقت أيديها المغلولة، مضافاً إليها سبقهم الحضاري العظيم في عقائدهم، وفي مفاهيمهم الأخلاقية، وفي أسس بناء أمتهم بناء متماسكاً متيناً، على أصول الحق والعدل والخير ونشدان الكمال، والبعد عن الباطل والظلم والشرب والرضى بالدنايا.

وظلت الخلافة الإسلامية رمزاً لوحدة المسلمين في أقطار الأرض، حتى عام (١٩٢٤م) وفي أوائل شهر آذار (مارس) ألغى " كمال أتاتورك " الخلافة الإسلامية العثمانية من تركيا، وكان ذلك في ظروف سياسية هيأت له الذرائع للقيام بهذا العمل الخطير.

وعندما أسقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ م، كان مخططاً خطيراً قوامه النفوذ الأجنبي والصهيونية والشيوعية الذي كان قد بدأ في إعداد هذا العمل سراً منذ أكثر من مائة عام، من خلال جماعة الدونمة. (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ م وأقاموا في سالونيك ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار " القضاء على دولة الرجل المريض "، خاصة بعد أن حمل (السلطان عبد الحميد) لواء الدعوة إلى " الجامعة الإسلامية " بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميع المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك.

والحقيقة أن (الخلافة الإسلامية) لم تسقط بجرة قلم عام ١٩٢٤ م عندما ألغاها مصطفى كمال أتاتورك، وإنما يمكن أن يقال أن هذه كانت آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة في تمزيق العالم الإسلامي، مثل إنجلترا وفرنسا، ومنها ما كان يهدف إلى الوصول إلى فلسطين وقلب القدس كالصهيونية العالمية، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية في تلك المعونة الضخمة التي قدمتها لحكام تركيا بعد إسقاط الخلافة.

فقد انفصلت تركيا عن الأمة الإسلامية واندمجت كلياً في الغرب العلماني، وسرعان ما حققت الأمل الذي طالما طاف بأحلام العرب - روسية وإنجليزية وفرنسية ويهودية - وهو أن يقضي مسلم بيده على خلافة الإسلام.

ولكن أتاتورك لم يكن مسلماً في حقيقته وإنما كان من الدونمة - التي تخفت تحت صورة الإسلام لتحقيق كل ما استطاعت أن تحققه

في تركيا، وكان همه الأكبر " إسقاط الخلافة " وفي سنوات قليلة من ١٩١٨ - ١٩٢٤ م تحولت دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم - تراث الإسلام - وتقاوم دعاته ومؤسساته.

وما أسقطت الخلافة بأسلوب الإقناع والتغيير النفسي والفكري، ولكن بأسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم، الذي قامت به (ثلة) أعدت لها وخططت لذلك.

وفي الحقيقة أن الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الإسلامي، ولم يكن أسلوب تعديلها هو إزالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولاً ليخدعوا الناس يومئذ، إن كان ذلك مقدمة للقضاء النهائي عليها.

وقد كانت هناك مشروعات كثيرة للإصلاح لو خلصت النيات وحسن الاتجاه إلى الإبقاء على وحدة العالم الإسلامي وقيام خلافته.

والغرب في سعيه لهدم الخلافة الإسلامية أو الوقوف في وجه محاولات إحيائها يعي جيدا أن بقاء الخلافة يعني وجود نظام سياسي يجمع شمل المسلمين، مهما بلغ واقع حال هذا النظام إلى مستوى محزن من الضعف والرمزية، بفعل الدسائس الاستعمارية وأن بقاء الخلافة دليل على استمرار تاريخ المسلمين، في ظل شعار سياسي واحد وأن بقاء الخلافة يعني بقاء الرباط الذي يبرر للمسلمين الاشتراك والمساهمة في الدفاع الدولي عن بلاد المسلمين وحقوقهم، وإقامة ألوان التعاون فيما بينهم وأن بقاء الخلافة يقضي في أدنى الحدود الرمزية بأن لا تقوم بين بلادهم حواجز مصطنعة، وهذا يعني اشتراك الشعوب الإسلامية في ديارهم، وتمتعهم بحريات تنقلهم

وتملكهم وتجاراتهم وسائر مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فيها.

والحقيقة التي يؤكدها الباحثون المنصفون: أن المسلمين لم يناموا على الضيم منذ أسقطت الخلافة الإسلامية وهم لا يستنيمون أو يفرطون أو يغيب عليهم مدى خطرها وجلال شأنها والآثار التي ترتبت على حجبها.

ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم فإن الخلافة الإسلامية مبثوثة في كل أعمال التضامن الإسلامي والرابطة الإسلامية والأخوة الإسلامية الجامعة.

وقد أحس المسلمون اليوم بأن محاولات التجمع الوطني والقومي لم تنجح لأنها ليست هي الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة، وإن المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوي بينهم مرة أخرى، بعد أن تراخى في السنوات الماضية تحت تأثير الدعوات الإقليمية والقومية، غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والأبحاث والمشروعات والدعوات التي تفتح الطريق إلى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى.

نعم إن المسلمين بعد إلغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدي سبأ، وأن الهدف الذي كان يطمع فيه النفوذ الاستعماري قد فشل تماماً. وأن العالم الإسلامي قد تلاقى على مستويات كبيرة ومتعددة: اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الإسلامي ما زال هو المصدر الأول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الإسلامية.

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسي استعماري دفين أخفى أمره طويلاً وبدقة، وراء غلالات، فإن المسلمين قد بدت أمامهم الحقائق سافرة اليوم، وتنبهوا لما يراد بهم فسارعوا إلى اتخاذ وسائل

أخرى، تمهد للوحدة فاندغمت رابطتهم في مؤتمر الحج السنوي، وفي الاتجاه إلى الجامعات الإسلامية العلمية، التي لاشك ستوجد الفكر والثقافة والتعليم، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنة والشيعة والأكراد، وتوثقت الصلات وزادت عمقاً وخفت حدة الخصومات والخلافات، التي أججها الاستعمار والنفوذ الغربي حرصاً على استبقاء التمزق والخلاف، كما كشفت الوقائع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما وفشلت دعوات الإقليمية والقومية جمعاً كما فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أم الاشتراكية ولم يعد أمام المسلمين في مطالع القرن الخامس عشر الهجري بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الإسلامية، ونظامهم السياسي على أساس الوحدة الإسلامية، وسوف تنقشع السحب التي تحجب الضوء ويجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى الالتقاء إزاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقي لعودة الخلافة الإسلامية خلال هذا القرن الجديد.

ضَجَّتْ عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ ::: وبَكَتْ عليكِ ممالكٌ ونَواحِ
الهندُ والهةٌ ومصرُ حزينةٌ ::: تَبْكي عليكِ بمَدامعٍ سَحّاحِ
والشّامُ تسْألُ والعِراقُ وفَارسٌ ::: أَمَحَا من الأرضِ الخلافَةَ ماحِ؟

ونحن إذا نادينا بضرورة إعادة الخلافة الإسلامية، فلا يظن بنا التحليق في الخيال، فقد تعلمنا من سيرة الرسول كيف نتفاءل ونواجه الأزمات بروح مشرقة آملين في تحقيق نصر الله عز وجل بعد الأخذ بأسبابه.

يروي الإمام أحمد عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: قال :
لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا

أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوبِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ (١).

إننا لا نحلق مع أوهام فلاسفة اليوتوبيا كأفلاطون والفارابي وتوماس مور الذين أجهدوا أنفسهم وأقاموا في خيالاتهم صروح دول وأنظمة حكم، بينما تحققت الوحدة الإسلامية في ظل الخلافة قروناً طويلة، إن أصابها الوهن أحياناً فقد أثبتت ضرورتها وأهميتها، لا سيما بعد أن أصابنا بفعل الاستعمار اليهودي والصليبي.

إن إحياء الخلافة من جديد أصبح ضرورة ملحة لتجميع القوى المتفرقة للمسلمين توطئة لمجابهة التحديات التي تحيط بهم من كل جانب، هذه التحديات العقائدية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

قال مالك بن نبي: " ويجب من الآن أن نعمل على ظهور سلطة روحية تجمع الرأي وتوحد الصف بالنسبة للمسلمين في العالم كله، وإننا يجب من الآن أن نعيد النظر في قضية الخلافة الإسلامية.. فقد باتت ضرورة عالمية وحيوية.. وليكن لها أي اسم، ولكن ليكن هدفها توحيد الصف الإسلامي والرأي الإسلامي في كل مكان على ظهر الأرض.. وليشترك فيها كل العالم الإسلامي، ولكن لنبدأ في إعلان وجودها من الآن " (٢).

ولكن الذي لا يمكن إغفاله أن الخلافة الإسلامية كانت نظاماً حياً واقعاً لم يختف من الحياة السياسية إلا منذ وقت قريب، وكان يضم

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند - مؤسسة قرطبة - مصر - ٤ / ١٠٣، وروا ه الحاكم في المستدرك على الصحيحين - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م - ٤ / ٤٧٧..

(٢) مجلة الوعي الإسلامي - العدد ٦٣ - ربيع أول - ١٣٩٠هـ - ٦ مايو سنة ١٩٧٠م - ص ٧٠ (المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر).

شعوباً متعددة الأجناس والألوان والألسنة والقوميات في عصور لم تتميز بما يمتاز به عصرنا الحاضر من وسائل الاتصال التي جعلت العالم كله وكأنه رقعة واحدة متصلة الأجزاء والأركان.

والإسلام نظام عالمي، قال تعالى:{وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾} [المؤمنون: ٥٢]. وقد بدأ كذلك وسيظل، فلا تؤثر فيه الانشقاقات التي تحدث، وعلى العكس فإن التدرج الحادث في بلدان العالم الآن يتجه به إلى ما يشبه النظام الإسلامي في عالميته، فقد اتجه التدرج بالنظام السياسي من الوطنية إلى القومية إلى العالمية.

و الخلافة هي التي يناط بها إقامة شرع الله عز وجل، وتحكيم كتابه، والقيام على شؤون المسلمين، وإصلاح أمرهم، وجهاد عدوهم.

ولا قيام للدين وأحكامه على الوجه الأكمل إلا بها، ولا أمن ولا أمان للمسلمين ولديارهم من أعدائهم إلا بها، ولا رادع للظالمين وقاطعي الطريق إلا بها، لذا فقد أثر عن النبي أنه قال: **إن الله ليزع – أي ليردع – بالسلطان مالا يزع بالقرآن** [١].

فالقرآن الكريم لا بد له من قوة وسلطان يحميه ويفرضه على الناس، ويرعاه ويتعاهد أحكامه وشرائعه.. فالقرآن وسيف السلطان يسيران جنباً إلى جنب يؤيد بعضهما البعض، وأيهما يتخلف عن الآخر فإن مسيرة الإسلام - لا محالة - سيعتريها الضعف والنكبات والانتكاسات.

(١) ذكره إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي - تفسير القرآن العظيم - - دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ - ٣ / ٦٠.

قال : ﴿إنما الإمام جُنَّةٌ يُقاتَلُ من ورائه، ويُتقى به﴾[1].

وعن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله يقول: ﴿السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه، أكرمه الله، ومن أهانه، أهانه الله﴾ [2].

فالسلطان المسلم العادل ظل الله في الأرض؛ والخلافة، والسلطان، والدولة وغير ذلك من معاني الشوكة والقوة كلها تدخل كوسائل مباشرة وهامة لتطبيق أحكام الله تعالى وشرائعه في الأرض، وبه تُحفظ حرمات الدين، وتعلو راياته.

ولاشك أن الغاية الجوهرية من قيام الدولة الإسلامية هي إيجاد الجهاز السياسي الذي يحقق وحدة الأمة الإسلامية وتعاون أفرادها، ويتابع تطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها، ومراقبة سيرها التطبيقي في شتى مجالات الحياة وهذا لا يتم إلا بنصب الخليفة أو الإمام.

والحقيقة أن السبيل إلى إقامة خلافة إسلامية لابد له أن يبدأ من بناء الإنسان المسلم إيمانياً، وثقافةً، وأخلاقاً.. والعمل الجاد الدؤوب على تحقيق التوحيد - بكل أنواعه وفروعه المقررة عند أهل السنة والجماعة - في الأمة، وبخاصة في الطائفة التي تستشرف مهمة الدعوة والعمل من أجل نصرة هذا الدين، وإعلاء كلمته في الأرض.. والإعداد المادي وضرورة وجوده بجانب الإعداد الإيماني والجهاد في سبيل الله: فعندما نقرر أن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الصحيح لاستئناف حياة إسلامية وقيام خلافة راشدة وليس

(١) رواه البخاري في صحيحه - ٣/ ١٠٨٠، ومسلم في الصحيح - ١٤٧١/٣.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة - تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٤٠٠هـ - ٤٩٢/٢. قال الشيخ ناصر في التخريج ١٠٢٤:
حديث حسن.

غيره من الطرق، فمرد ذلك كله إلى حكم الكتاب والسنة، وإلى واقع المواجهة القديمة والمستمرة بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى، وليس إلى ما تميل إليه أهواؤنا ونزواتنا أو ما تمليه علينا عقولنا ومصالحنا الذاتية الضيقة.

إن الأمة المسلمة قد بُشِّرت على لسان نبيها بأنها سترى في آخر أيامها دور نجاح وفلاح، فتقر به عينها، وينشرح صدرها، وتصلح أمورها، حتى (لا يدرى أولها خيرٌ أم آخرُها)، ويتم فيه نور الله{وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ} [الصف: ٨].. إلخ، {لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ } [التوبة: ٣٣]؛ ولذا لا يزال قلب المؤمن قويًّا برجاء الله، مملوءً باليقين، لم يخالطه ريبٌ، ولا دخله زيغٌ، ولا صادفه قُنوطٌ ويأسٌ، حتى في هذا الزمان الذي انصبَّت فيه على المسلمين المصائب، ونزلت بهم النوازل، وزُلزِلُوا فيه زِلزَالاً شديدًا، بل كلما ازدادت العواصف شدَّةً، والليل ظُلمةً، والأرض عداوةً - يزداد المؤمن رجاءً ويقينًا، ويبصر بعينيه نور الصبح الجميل من بين هاتيك الظلمات، والغيوم والعواصف، ولسان حاله يقول:{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١].

* * *

معاوية بن أبي سفيان

أعلام الخلفاء الأمويين

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشي الأمويُ المكي، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لما تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه: قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[1].

كان أبوه أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربو الإسلام.. وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله في فتح مكة وأعلن: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن[2]، وقد حسن إسلام أبي سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله في حنين، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية، وبعد ثقيف أرسله رسول الله مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[3] - صنم ثقيف - وقد

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٢٠/٣ - ١٢١، العسقلاني، الإصابة، ١٥١/٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٩٨/١١، علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٣٧.

(٢) البخاري رقم ٤٢٨٠.

(٣) السيرة النبوية للصَّلاَّبي، ٤٩٧/٢، التبيين في أنساب القرشيين، صـ ٢٠٣، السيرة

كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان رضي الله عنه، ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده في خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش في الجاهلية، وتفرَّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة في اليرموك وما قبله وما بعده[1].

وأمه هي هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبي سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله من بيعة الرِّجال، بايع النساء، وفيهنَّ هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفاً من رسول الله أن يعرفها، - لما صنعت بحمزة - على ألاَّ يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن، وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبيُّ : ﴿ولا يسرقن﴾ قالت هند: يا رسول الله، إن أبي سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بنيَّ، فهلَّ عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها :خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف﴾، ولما قال: ﴿ولا يزنين﴾ قالت هند: وهل تزني الحرّة؟ ولمّا عرفها رسول الله قال لها:وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك، وقد بايعن رسول الله من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة

النبوية لابن هشام، ٤/١٩٥، علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٣٧.

(١) البداية والنهاية، ١١/٣٩٧.

رضي الله عنها: أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[١].

ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنماً كان عندها حتى فلذته فلذة وهي تقول: كنت منك في غرور[٢]، ولما رأت المسلمين ببيت الله الحرام قالت: والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً[٣]. وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

ومن إخوان معاوية رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان، وكان يقال له يزيد الخير، وهو أفضل بني أبي سفيان، أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً، وأعطاه النبي من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقيّة، واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التي أرسلها إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة، ولما فتح الشام، في عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبي سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة: وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية، وقال أبو

(١) البخاري رقم ٥٢٨٨ مسلم رقم ١٨٦٦.
(٢) الطبقات الكبرى (١٧٢/٨)، البخاري رقم ٣٨٢٥.
(٣) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٣٨.
(٤) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٣٨.

إسماعيل محمد بن عبد الله البصري: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[١].

ومن إخوة معاوية أيضا عتبة بن أبي سفيان الذي يكنى أبا الوليد، وقد ولد على عهد رسول الله ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص وكان خطيباً فصيحاً، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه وأقام بمصر والياً سنة ثم توفي بها، ودفن في مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين[٢].

وعنبسة بن أبي سفيان ويكنّى أبا عثمان وأم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها زوج النبي تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها وهي أقرب أزواجه نسباً إليه وأكثرهن صداقاً رضي الله عنها وأرضاها[٣].

وأم الحكم بنت أبي سفيان رضي الله عنهما وهي أم عبد الرحمن بن أم الحكم، وكانت من مسلمة الفتحة، وعزة بنت أبي سفيان - رضي الله عنهما وأميمة بنت أبي سفيان [٤]

وتزوج معاوية رضي الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبي، فولدت له يزيد بن معاوية، وأمه رب المشارق فماتت صغيرة، وكان معاوية رضي الله عنه يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها كانت تحن

(١) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١/ ٤٠.

(٢) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١/ ٤١.

(٣) الطبقات لابن سعد، ٩٦/٨ - ١٠٠، مجمع الزوائد، ٢٤٩/٩.

(٤) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١/ ٤٥.

إلى مرتع طفولتها في البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة وصوف عيشتهم، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد في حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات.

ومن زوجاته، فاختة ابنة قرَظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد الرحمن وعبد الله ابني معاوية، ومن زوجاته، كنود بنت قرَظة وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهي التي كانت معه حيث افتتح قبرص.

وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها، ومن بناته رملة تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان، وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر وعائشة وعاتكة وصفية [1].

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم يوم الفتح هذا على المشهور، وشهد معاوية - رضي الله عنه - مع رسول الله حنيناً وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب [2].

وقد ذكر العلماء لمعاوية رضي الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل اشتراكه رضي الله عنه في غزة حنين قال تعالى:{ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾} [التوبة: ٢٦]. ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى: قال تعالى:{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟

(١) علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٥٥.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ١٤٧/٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤٦٢/١١.

وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾} [الحديد: ١٠]. ومعاوية رضي الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما[(١)].

وقد دعا له رسول الله عندما قال له:﴿ **اللهم اجعله هادياً**[(٢)]**، مهدياً**[(٣)]**، واهد به**﴾ [(٤)].

وقال : ﴿**اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب**﴾ [(٥)].

وما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبي يوماً قريباً مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: ﴿**ناس من أمتي عرضوا علي، يركبون هذا البحر الأخضر، كالملوك على الأسرة**﴾، قالت: ﴿فادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال:**أنت من الأولين**﴾، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت. قال ابن حجر معلقاً على رؤيا رسول الله : قوله: ﴿ **ناس من أمتي عرضوا على غُزاة..** ﴾يشعر بأنه ضحكه كان إعجاباً بهم، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة [(٦)].

وما أخرجه البخاري من طريق أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها

(١) الفتاوي، ٤٥٨/٤، ٤٩٥، علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٥٧.
(٢) هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.
(٣) مهدياً: مهتدياً في نفسه.
(٤) الشريعة (٢٤٣٧/٥) إسناده صحيح.
(٥) موارد الظمآن للهيثمي، تحقيق حسين الداراني، ٢٤٩/٧، إسناده حسن.
(٦) فتح الباري على صحيح البخاري، ٢٢/٦.

قالت: سمعت رسول الله يقول:أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا [(١)]﴿ قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال:أنت فيهم﴾. ثم قال النبي:أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر [(٢)] مغفور لهم فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا [(٣)].

قال المهلب معلقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر [(٤)].

وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي لرسول الله [(٥)]، وكذلك رسائل النبي إلى زعماء القبائل[(٦)].

وقد روى معاوية رضي الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً عن رسول الله، واتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة[(٧)].

وقد تعصب قوم ممن يدعي السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[(٨)]

فمن الأباطيل المختلفة عن واثلة مرفوعاً: كاد معاويةأن يبعث

(١) أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة.
(٢) مدينة قيصر: يعني القسطنطينية، فتح الباري، ١٢٠/٦.
(٣) فتح الباري على صحيح البخاري، ٢٢/٦.
(٤) فتح الباري، ١٢٠/٦.
(٥) البداية والنهاية، ٣٩٦/١١، علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٦٠.
(٦) الإصابة في تمييز الصحابة ٤٣٤/٣، علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٦١.
(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦٢/٣.
(٨) الموضوعات، ١٥/٢.

نبياً من حلمه وائتمانه على كلام ربي[١].

وعن أبي موسى: نزل عليه الوحي، فلما سُرِّي عنه، طلب معاوية، فلما كتبها - يعني آية الكرسي. قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة[٢].. قال الذهبي بعد ذكر كثير من الأحاديث الموضوعة: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[٣].

ومن الأحاديث الواهية في ذمه الحديث المنسوب إلى رسول الله : يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية. وقام النبي خطيباً، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي : لعن الله القائد والمقود، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، ولا له إسناد معروف، ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفاً لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد المُلك يسمع كلام من يسبّه في وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبي ؟ وكيف يتخذ النبي كاتباً من هذه حالة[٤].

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢٧/٣، ١٢٨ موضوع.
(٢) المصدر نفسه، ١٢٩/٣ موضوع.
(٣) المصدر نفسه، ١٣١/٣، علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٦..
(٤) البداية والنهاية، ٤٣٨/١١، أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية جمع وتقديم محمد مال الله، صـ ٨٨، علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ١ /٦٥.

وبدا نجم معاوية رضي الله عنه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه فقد ولاه فتح قيسارية سنة خمس عشرة للهجرة، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك بعد القدس(١).

وفي سنة ثمان عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما في طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه - دمشق وبعلبك والبلقاء(٢).

ولما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية في أمرين هما: سن نظام الصوائف والشواتي(٣)، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام(٤).

وكانت له فتوحات كثيرة في عهد عثمان، ففي سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك. وكانت الولاة تفعله، وفي سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه، وكذلك الشأن في الثغور

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٥٥.
(٢) الطبقات الكبرى، ٤٠٦/٧، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص ٦١.
(٣) الصوائف: غزو بلاد الروم في الصيف والشواتي في الشتاء.
(٤) الدولة الأموية، ١/ ١٥٤..

الجذرية فقد أولاها عنايته فقد وجه في الأيام الأولى لولايته تلك، كلا من حبيب بن مسلمة الفهري وصفوان بن المعطل السلمي إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل في أرض الروم فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكي تكون طريقاً آمناً لحملات الصوائق. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية في السنة نفسها، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند، وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[١].

معاوية يلتمس من عثمان رضي الله عنهما السماح له بالغزو البحري:

كما أن معاوية كان من أشد الناس تحمسا لغزو قبرص وقد حاول مع عمر بن الخطاب ولكنه رفض الفكرة ولما تولي عثمان الخلافة أعاد الكرة وطلب منه الإذن في ركوب البحر وما زال به حتى أقنعه وأذن له، فأعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتَّخذ ميناء عكَّا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، و تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسطنطينا) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح[٢]

(١) تاريخ خليفة، ص ١٦٧، تاريخ الطبري، ٣٠٤/٤، الدولة الأموية، ١ / ١٨٤.
(٢) الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٢٠٠.

غير أن القبارصة ما لبثوا أن نقضوا صلحهم مع المسلمين وقاموا بإمداد جيش الرُّوم بالسُّفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، فهاجمهم المسلمون هجوماً عنيفاً، فقتلوا، وأسروا وسلبوا، وهجم عليهم جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبياً كثيراً، وغنموا مالا جزيلاً، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول(١).

كان معاوية رضي الله والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما، والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما، ولما تولى علي رضي الله عنه الخلافة أراد عزله وقد اختار أمير المؤمنين علي بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر فأبي عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر في ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التي بينهما، ولم يلزمه أمير المؤمنين علي وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وبعد اعتذار ابن عمر من قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علي سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحي هلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع، وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً(٢).

لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ علي رضي الله عنه من قتلة عثمان رضي الله عنه ثم يدخلون البيعة، وقالوا لا نبايع من يأوي القتلة. وتخوّفوا على أنفسهم من قتلة عثمان رضي الله عنه الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٨.
(٢) الرحيلي، الانتصار للصحب والآل، ص ٥٠٧.

تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية رضي الله عنه يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولي دمه والله يقول:{وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا } [الإسراء: ٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله .

لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى، وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه(١)، فعن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فأتوه، فقولوا له، فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه، فلم يدفعهم إليه(٢)، وأما ما شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف

(١) عبد الحميد علي، خلافة علي بن أبي طالب، ص١١٢.
(٢) سير أعلام النبلاء، ٣/١٤٠، رجاله ثقات وإسناده جيد.

بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا ثبتت.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن معاوية وإن قاتل عليّاً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظآنّاً منه أنه مصيب، وكان مخطئاً. ويقول الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنَّ ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ابن عمّه فامتنع علي، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية رضي الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله في طاعة علي رضي الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمان ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي وطمعاً في السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على من قتله عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له، لأنه التزم بذلك في موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع[1]

إن معاوية رضي الله عنه كان من كتّاب الوحي، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلماً، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعي

(١) لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة، صـ ١١٥، الصواعق المحرقة، ٦٢٢/٢، تحقيق مواقف الصحابة، ١٥٠/٢.

ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه[١]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: **اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به** [٢]، وقال: **اللهم علمه الكتاب وقه العذاب** [٣]. وأما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان رضي الله عنه، فيظهر في رفضه أن يبايع لعلي رضي الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل في الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده[٤]، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضي إلى الفتنة وإشاعة الفوضى[٥].

ويمكن القول: إن معاوية رضي الله عنه كان مجتهداً، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولي عثمان - ابن عمه - وقد قتل مظلوماً، وقرأ عليهم الآية الكريمة: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا } [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن

(١) سير أعلام النبلاء، ١٥١/٣.
(٢) صحيح سنن الترمذي للألباني رقم ٣٠١٨، ٢٣٦/٣.
(٣) فضائل الصحابة، ٣١٩/٢. إسناده حسن.
(٤) تحقيق مواقف الصحابة، ١٥١/٢.
(٥) تفسير القرطبي، ٢٥٦/٢.

يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفنى الله أرواحهم[١].

وإذا قارنّا بين طلحة والزبير رضي الله عنهما، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضي الله عنه ومن معه من أربعة أوجه كان أولها: مبايعتهما لعليّ رضي الله عنه طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله. والثاني: منزلتهما في الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط ولم يتعمدا محاربة علي ومن معه في وقعة الجمل، بينما أصر معاوية على حرب عليّ ومن معه في صفين، والرابع: لم يتهما عليّاً بالهوادة في أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف علي ودخلا في الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمر وإنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبائية لها [٢].

ولقد وقعت بين علي بن أبي طالب ومعاوية خطوب كثيرة انتهت بمقتل علي بن أبي طالب وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، وقد أعرضنا عن الخوض في تلك الأحداث لأن الحديث عنها يحتاج إلى تفصيل ليس هذا مقامها.

واشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم وكان يضرب به المثل في حلمه رضي الله عنه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل

(١) ابن مزاحم، صفين، ص ٣٢، تحقيق مواقف الصحابة، ١٥٢/٢، الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠٥.
(٢) الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

له: لو سطوت عليه: فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي، وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إني لأستحي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي. وقال الأصمعي عن الثوري قال: قال معاوية: إني لأستحي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بستري. وقال معاوية: يابني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتما وأوسعه حلما، وأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرماً، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم. وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقا، وأحلمهم حين يستجهل.

وكتب معاوية إلى نائب زياد: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه [1].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة - بما يرونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في

(١) البداية والنهاية (٤٤١/١١).

تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل كما أن النصر يخالطه شيء من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[١].

ومن الصفات التي تميز بها معاوية رضي الله عنه صفة الدهاء والحيلة ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا في أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدي ملك الروم بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة، ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه، وكان رجلاً من قريش فصاح: واسلاماه أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكَّمت العدو في دمائنا وأعراضنا فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة في إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأى ويعمل الحيلة ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفاً كثير الغزوات في البحر صُمُكّ[٢] من الرجال مرطان بالرومية، فأحضره

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٢٠٩.
(٢) الصمك والصموك: القوي الشديد، والغليظ الجافي.

وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال الحيلة فيه، والتأني له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيماً، ليبتاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركبا لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في سيره، إنشاءً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه حاجه للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك فروسل الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقته[1]، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذي لطم، القرشي، وتأنى الصوري من الأمور على حسب مارسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعاً من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً، وذكر له من الأمر ما جرى فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت في كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والتفقد لأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذي يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه، فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة مما لم يطلب زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية.

فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك، وقال له: ما ذنبي إليك؟ وبم

(١) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقف والأسقف رجل الكنيسة.

استحق غيري أن تقصده، وتقضي حوائجه وتعرض عني، قال الصوري: أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين، وجواسيسهم لئلا يَنِمُّو خبري ويوشوا بأمري إلى المسلمين فيكون في ذلك بواري والآن فإذا قد علمت ميلك إلى فلست أحب أن يعتني بأمري سواك، ولا يقوم بحالى عند الملك وغيره غيرك، فمرني بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية ومن معاوية إلى الروم ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام قد اشتهيت أن تعمدني بقاء حاجة، وتمن بها على، وهي أن تبتاع لى بساط سوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصوري أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه وكانت الضيعة فيما بين قسم الخليج من يلي بحر الروم والقسطنطينية فانصرف الصوري إلى معاوية سراً، فأخبره بالحال فأحضر معاوية بساطا بوسائد ومخاد ومجلس حسن، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة، وكيفية إيقاعها وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد

صار كأحدهم في المؤنسة والعشرة، وفي الروم طمع وشره فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية، وقد طابت له الريح، وقرب من ضيعة البطريق، أخذ الصوري أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق في ضيعته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائر على حافتيه، والمراكب تختلف، والقوارب بأنواع المتاع والأقوات، إلى القسطنطينية من هذه العمائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكله قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من ظهر منهم في عمله والريح في القلع، والمركب مار في الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته في جريه، فأشرفه على قصر البطريق، وهو جالس في مستشرفه مع حرمه، وقد أخذت منه الخمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصوري زعق طربا، وصاح فرحاً وسروراً وابتهاجاً بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط، ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطيع اللبث في موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصوري من مركبه إليه، فطلع إلى المركب فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، وضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب، فما استقر دقه في المركب بقدمه، حتى اختطف المركب، بالمقاذيف، وإذا هو وسط

الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافاً، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار في ذلك اللج، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل فكان في اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدي معاوية فسر بذلك معاوية. وقال: عليّ بالرجل القرشي، فأتى به وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشي: قم فاقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظمَّ الروم، فإنا لم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك فقام القرشي فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعدى ما جرى عليك، واقتص منه على حسب ما ضع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشي لطمات ووكزه في حلقه، ثم أكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام تمنع حماك، وتصون رعيتك وأرق في وصفه ودعائه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصوري: سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق، وخاصته فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع في المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم فقربوا من الخليج، فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من

وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذي لتمت له الحيلة علي.

وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضي الله عنه وحسن سيايته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظه على حقوق كل فرد فيها وصيانة كرامته[(١)].

ثناء العلماء على معاوية:

قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[(٢)]، وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل. فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسود من معاوية قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود منه. وفي رواية: مارأيت أحداً بعد رسول الله أسود من معاوية. قيل ولا أبابكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه، وهو أسود منهم.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ما رأيت رجلاً كان

(١) الشهب اللامعة في السياية النافعة ص ٤٩١، الصلابي، الدولة الأموية، ١ /٢١٤ - ٢٢٠.
(٢) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني ١٧١٣.

أخلق بالملك من معاوية [١].

وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة قال: إنه فقيه[٢]، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درَّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنَّناً منه بأحسابنا وحسبه[٣] وحين عزى معاوية عبدالله بن عباس في الحسن بن علي بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك في الحسن فقال: له ابن عباس: أما ما أبقى الله لي أمير المؤمنين، فلن يسؤوني الله ولن يخزيني[٤].

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية[٥].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما رأيت أحداً بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا - يعني معاوية[٦] -.

وعن الزهري قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب.

وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله : سمع الله لمن حمده. فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل

(١) البداية والنهاية، ٤٣٠/١١ - ٤٣٩.
(٢) البخاري رقم ٣٧٦٥.
(٣) تاريخ دمشق، ١٢٨/٦٢، ١٢٩.
(٤) مختصر تاريخ دمشق، ٦٧/٢٥، ٦٨.
(٥) سير أعلام البنلاء، ١٥٠/٣.
(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٣٥٧/٩، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير قيس ابن الحارث المدحجي.

أيُّما أفضل؟ هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز.

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطا.

و سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصباً؟ قال أبو عبدالله: هذا قول سوءٍ رديء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس[١].

وتحدث القاضي ابن العربيِّ عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها:.. قيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوِّ، وسياسة الخلق، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشَّامات كلها، وأقرَّه عثمان، بل إنَّما ولاه أبو بكر الصَّديق، لأنَّه ولي أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها[٢].

وقال ابن تيمية - رحمه الله - واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكا ورحمة وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية[٣].

وقال الذهبي - رحمه الله -: أمير المؤمنين، ملك الإسلام، وقال:

---

(١) البداية والنهاية، ٤٤٩/١١..
(٢) العواصم من القواصم، ص٨٢، ٢١٠، ٢١١.
(٣)) الفتاوى، ٤٧٨/٤، منهاج السنة، ١٨٥/٣، ٢٣٢/٦.

ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببريء من الهَنَات، والله يعفو عنه وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه.. فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه(١).

وقال ابن كثير - رحمه الله -: وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين.. فلم يزل مستقلا بالأمر في هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عاليه، والغنائم تَرِد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو وقال: كان حليماً وقوراً، رئيساً، سيداً في الناس، كريماً، عادلا، شهماً. وقال عنه أيضاً: كان جيد السيرة، حسن التجاوز جميل العفو، كثير الستر رحمه الله تعالى(٢).

وقال ابن خلدون رحمه الله: وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة.. والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً، فيمَّيزوا بين الحالتين. فكان معاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبيَّة الذين يعبرّ عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاش لله أن يشبَّه معاوية بأحد ممَّن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانيَّة ممن تلاه في

(١) سير أعلام النبلاء، ١٣٢/٣ - ١٣٣.
(٢) البداية والنهاية، ٤٠٠/١١، ٤١٩.

المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكاً، واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتيّة المعبَّر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيَّين ومَلِكيْن كانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربِّهما عز وجل. ومعاوية لم يطالب ولا أبَّهته للاستكثار في الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لمّا استولى المسلمون على الدولة كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سميّ خليفة بالمجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا في نمط واحد، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل[(١)].

وقبيل وفاة معاوية ألقي خطبة قال فيها: أيُّها الناس إن من زرع

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ص ٥٢٨، ٥٢٩.

قد استحصد، وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدي إلا من هو شر مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني، ويا يزيد إذا وفى أجلي فولِّ غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان فليُنعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم أعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ، وقُراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأُذُنيَّ وعيْنيَّ، واجعل الثوب يلي جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جريدتي، ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[1].

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيَّب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله.

وذكروا أنه في آخر عمره اشتد به البَرْدُ فكان إذا لبس أو تغطَّى بشيء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبّاً لك من دار ملكتك أربعين سنة، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالي فيك، ومصيري منك، تباً للدنيا ومُحبِّيها، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت قال لأهله، أحشوا عيْنيّ إثمداً، وأوسعوا رأسي دُهناً. ففعلوا وبرّقوا وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس وقال: أسندوني. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا عليَّ قياماً ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائماً فيراه متكحِّلاً مُتدهِّناً، فيقول متقوِّل الناس: هو لمّا به، وهو أصح الناس، فلما خرَجوا من عنده تمثل معاوية بقول أبي ذؤيب الهذلي الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم ::: أني لريب الدهر لا أتضعضع

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١/٤٥٤.

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ::: ألفيـــت كـــلّ تميمـــة لا تنفـــع

وكان به النقابة، فمات من يومه ذلك [(١)].

وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذى طوى ولم أَلِ من هذا الأمر شيئاً[(٢)].

وقال الحسن البصري: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكي على الموت أن حل بي، ولا على دنيا أخلفها ولكن هما قبضتان: قبضة في الجنة، وقبضة في النار، فلا أدري في أي القبضتين أنا[(٣)]

وجعل معاوية رضي الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨]، اللهم اجعلني ممَّن تشاء أن تغفر له، ومن دعائه في ذلك اليوم: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات[(٤)]. وجاء في رواية: اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي[(٥)]رحم الله معاوية رضي الله عنه.

وكانت وفاته - رحمه الله - سنة ستين من الهجرة وفي شهر

(١) برَّقوا: لمَّعوا، لما به: اقترب أجله، النقابة: قرحة تخرج في الجنب وتهجم الجوف.
(٢) البداية والنهاية، ٤٥٥/١١.
(٣) كتاب المحتضرين، ص١٩٩، سكب العبرات، ١٩٠/١.
(٤) البداية والنهاية، ٤٥٧/١١.
(٥) تاريخ ابن خلدون، ٢١/٣.

رجب، وهو ابن ثمان وسبعين سنة[1].

مواقف من حياته ـ رحمه الله ـ:

المرأة بين معاوية وصعصعة:

قال معاوية لصعصعة: أيّ النّساء أحبّ إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى. قال: فأيّهن أبغض إليك؟ قال: أبعدهنّ لما ترضى. قال معاوية: هذا النّقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل.

وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النّساء إلاّ عرف ذلك في وجهها.

أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان:

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يومٍ بمجلسٍ كان له بدمشق على قارعة الطّريق، وكان المجلس مفتّح الجوانب لدخول النّسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لجلسائه: لم يخلق الله ممّن احتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثمّ قال: يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصّته فوالله لئن كان فقيراً لأغنينّه، ولئن كان شاكياً لأنصفنّه، ولئن كان مظلوماً لأنصرنّه، ولئن كان غنياً لأفقرنّه. فخرج إليه الرسول متلقياً فسلّم عليه فردّ عليه السّلام. ثمّ قال له: ممّن الرّجل؟ قال: سيّدي أنا رجلٌ أعرابيٌّ من بني عذرة، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلامةٍ نزلت بي من بعض عمّاله. فقال له الرّسول: أصبحت يا أعرابي؟ ثمّ سار به حتّى وقف بين يديه فسلّم عليه بالخلافة ثمّ أنشأ يقول:

معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل ::: ويا ذا النّدى والجود والنّابل الجزل

---

(١) تاريخ الطبري، ٦/٢٤٣.

أتيتك لّما ضاق في الأرض مـــذهبي ::: فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصافٍ من الجّائر الـــذي ::: شواني شيّاً كـــان أيســـره قتلـــي
سباني سعدى وانـــبرى لخصـــومتي ::: وجار ولم يعدل، وأغصبني أهلـــي
قصدت لأرجـــو نفعـــه فأثـــابني ::: بسجنٍ وأنواع العذاب مع الكبـــل
وهـــمّ بقتلـــي غـــير أن منـــيّتي ::: تأبّت، ولم أستكمل الرّزق من أجلي
أغـــثني جـــزاك الله عنّـــي جنّـــةً ::: فقد طار من وجدٍ بسعدى لها عقلي

فلمّا فرغ من شعره قال له معاوية: يا أعرابي إنّي أراك تشتكي عاملاً من عمّالنا ولم تسمه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمّك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصّتك معه يا أعرابي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عمٍّ خطبتها إلى أبيها فزوّجني منها. وكنت كلفاً بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقرابة. فبقيت معها يا أمير المؤمنين، في أصلح حالٍ وأنعم بالٍ، مسروراً زماناً، قرير العين. وكانت لي صرمةٌ من إبلٍ وشويهات، فكنت أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أقضية الله وحوادث الدّهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئاً، وصرت مهيناً مفكّراً، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلمّا بلغ ذلك أباها حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطردني، ودفعها عنّي. فلم أدر لنفسي بحيلةٍ ولا نصرةٍ. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكياً بعمّي، فبعث إليه، فلمّا وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيّها الرّجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجّارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأتت الجّارية مسرعةً، فلمّا وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها

وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السّجن. فبقيت كأني خررت من السّماء في مكانٍ سحيقٍ، ثمّ قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوّجها منّي، وأنقدك ألف دينارٍ، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهمٍ تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوّجتها منك.

فلمّا كان من الغد بعث إليّ، فلمّا أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلّق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردّني إلى السّجن، فلمّا كان في اليوم الثاني قال: عليّ بالأعرابي. فلمّا وقفت بين يديه، قال: طلّق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلّط عليّ يا أمير المؤمنين خدّامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثمّ أمر بي إلى السّجن؛ فلمّا كان في اليوم الثالث قال: عليّ بالأعرابي، فلمّا وقفت بين يديه قال: عليّ بالسّيف والنّطع وأحضر السيّاف، ثمّ قال: يا أعرابي، وجلالة ربّي، وكرامة والدي، لئن لم تطلّق سعدى لأفرّقنّ بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلّقتها طلقةً واحدةً على طلاق السّنّة، ثمّ أمر بي إلى السّجن فحبسني فيه حتّى تمّت عدّتها ثمّ تزوّجها، فبنى بها، ثمّ أطلقني. فأتيتك مستغيثاً قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبّها بلا عقلٍ، ثمّ انتحب حتىّ كادت نفسه تفيض. ثمّ أنشأ يقول:

في القلب منّي نارٌ ::: والنّار فيه الدّمار
والجسم منّي سقيمٌ ::: فيه الطّبيب يحار
والعين تهطل دمعاً ::: فدمعها مدرار
حملت منه عظيماً ::: فما عليه اصطبار

فلـــــيس ليلــــــي ليـــــــلٌ ::: ولا نهـــــــاري نهـــــــار
فـــــارحم كئيبــــاً حزينــــاً ::: فـــــــؤاده مســــــتطار
اردد علـــــــيّ ســـــــعادي ::: يثيبــــــك الجبّـــــــار

ثمّ خرّ مغشيّاً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنّه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئاً، فلمّا نظر إليه قد خرّ بين يديه قام ثمّ جلس، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضراراً في حدود الدّين، وإحساراً في حرم المسلمين: ثمّ قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديثٍ ما سمعت بمثله. ثمّ قال: يا غلام عليّ بدواةٍ وقرطاسٍ فكتب إلى مروان: أمّا بعد، فإنّه بلغني عنك أنّك اعتديت على رعيّتك في بعض حدود الدّين، وانتهكت حرمةً لرجلٍ من المسلمين. وإنّما ينبغي لمن كان والياً على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضّ بصره وشهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. وإنّما الوالي كالرّاعي لغنمةٍ، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذئباً فمن يحوطها بعده. ثمّ كتب بهذه الأبيات:

ولّيت، ويحك أمراً لست تحكمــه ::: فاستغفر الله من فعل امــرئ زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ ::: مع القــراطيس تمثــالاً وفرقــان
حتّى أتانا الفتى العــذريّ منتحبــاً ::: يشــكو إلينــا ببــثٍّ ثمّ أحــزان
أعطي الإلــه يمينــاً لا أكفّرهــا ::: حقّاً وأبــرأ مــن ديــني وديــاني
إن أنت خالفتني فيما كتبــت بــه ::: لأجعلنّــك لحمــاً بــين عقبــاني
طلّــق ســعاد وعجّلــها مجهّــزةً ::: مع الكميت، ومع نصر بن ذبيــان
فما سمعت كما بلّغــت في بشــرٍ ::: ولا كفعلك حقــاً فعــل إنســان
فاختر لنفسك إمّا أن تجــود بهــا ::: أو أن تلاقي المنايــا بــين أكفــان

ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد. فلمّا وقفا بين يده قال: اخرجا بهذا الكتاب إلى مروان بن

الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجا بالكتاب حتّى وردا به عليه، فسلّما ثمّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلمّا نظرت إليه قالت له: سيّدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلّقك وأجهّزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلّقها وجهّزها ثمّ كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد ::: أوفي بنذرك في رفقٍ وإحسان
وما ركبت حراماً حين أعجبني ::: فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنّك لو أبصرتها لجرت ::: منك الأماقي على أمثال إنسان
فسوف يأتيك شمسٌ لا يعادلها ::: عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
لولا الخليفة ما طلّقتها أبداً ::: حتّى أضمّنّ في لحدٍ وأكفان
على سعادٍ سلامٌ من فتىً قلقٍ ::: حتّى خلّفته بأوصابٍ وأحزان

ثمّ دفعه إليهما، ودفع الجّارية على الصّفة التي حدّث له. فلمّا وردا على معاوية فكّ كتابه وقرأ أبياته ثمّ قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثمّ أمر بالجّارية فأدخلت إليه، فإذا بجاريةٍ رعبوبةٍ لا تبقي لناظرها عقلاً من حسنها وكمالها. فعجب معاوية من حسنها ثمّ تحوّل إلى جلسائه وقال: والله إنّ هذه الجّارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النّعمة مع حسن الصّفة، لقد كملت النّعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلمّا وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلوٍ، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ مع كلّ جاريةٍ منهنّ ألف درهمٍ، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر خلع من الخزّ والدّيباج والحرير والكتّان،

وأجري عليك وعليهنّ ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظاً من الصّلات والنّفقات؟ فلما أتمّ معاوية كلامه غشي على الأعرابيّ وشهق شهقةً ظنّ معاوية أنّه قد مات منها. فلّما أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شرّ بالٍ، وأسوأ حالٍ، أعوذ بعد لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلني هـداك الله مـن ملـكٍ ::: كالمستجير من الرّمضاء بالنّـار
اردد سعاد على حـرّان مكتئـب ::: يمسي ويصبح في هـمٍّ وتـذكار
قد شفّته قلـقٌ مـا مثلـه قلـقٌ ::: وأسعر القلـب منـه أيّ إسـعار
والله والله لا أنسـى محبّتـها ::: حتّى أغيّب في قبري وأحجـاري
كيف السّلوّ وقد هام الفؤاد بهـا ::: فإن فعلـت فـإني غـير كفّـار
فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ ::: لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعـار

ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلّ ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:

أبى القلب إلاّ حبّ ليل وبغّضـت ::: إليّ نسـاءٌ مـا لهـن ذنـوب
وما هـي إلاّ أن أراهـا فجـاءةً ::: فأبهت حتّـى لا أكـاد أجيـب

فلمّا فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك مقرٌّ عندنا أنّك قد طلّقتها، وقد بانت منك ومن مروان، ولكن نخيّرها بيننا. قال: ذاك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحوّل معاوية نحوها ثمّ قال لها: يا سعدى أيّنا أحبّ إليك: أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره، أو مروان في غصبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجّارية نحو ابن عمّها الأعرابي، ثمّ أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جـوعٍ وأطمـار ::: أعزّ عندي من أهلي ومن جـاري
وصاحب التّاج أو مروانٌ عاملـه ::: وكلّ ذي درهمٍ منـهم ودينـار

ثمّ قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحقّ من صبر معه على السّرّاء والضّرّاء، وعلى الشّدّة والرّخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهمٍ وألحقها في صدقات بيت المسلمين (١).

فرّقهما الفقر وجمعهما معاوية:

قال الزّبير حدثني أبي، قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ من قريش كانت له امرأة تعجبه ويعجبها، وكانت تحول بينه وبين طلب الرّزق، وكلّ ذلك يحتمله لشدّة محبّته إيّاها فلمّا ساءت حاله وكثر دينه قال:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه ::: شكى الفقر أو لام الصّديق فأكثرا
وصار على الأدنين كلاًّ وأوشكت ::: قلوب ذوي القربى له أن تنكّرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى ::: تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيشٍ بدونٍ ولا تنم ::: وكيف ينام اللّيل من كان معسرا
وما طالب الحاجات من حيث يبتغي ::: من النّاس إلاّ من أجدّ وشمّرا

فلما أصبح قال لامرأته: أنا، والله أحبّك، ولا صبر لي على ما نحن فيه من ضيق العيش، فجهّزيني. فجهّزته، فخرج حتّى قدم على معاوية بن أبي سفيان فقام بين الصّفّين، فأخبره بحاله، وأنشده الشّعر. فرقّ له، وأمر له بألف دينارٍ وقال له: لقد دلّني حالك على محبّتك لأهلك وكراهيّتك لفراقهم فخذ وانصرف إليهم فأخذها وانصرف راجعاً (٢).

إنّي أحسب الاتّفاق كان بعد حين :

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص ١ - ٤.
(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص ٥.

ويروى أنّ معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، رأى، كاتباً له يكلّم جاريةً لامرأته فاختة بنت قريظة، في بعض طرق داره، فقال له: أتحبّها؟ قال: أي والله، يا أمير المؤمنين. قال: أخطبها من فاختة. فخطبها. وكلّم معاوية فاختة فأجابته، فزوّجها منه، فدخل معاوية وبين يديه عتيدة من العطر لعرس جاريتها، فقال: هوّني عليك يا بنت قريظة، إنّي أحسب الاتّفاق كان بعد حين (١).

ثلاث خصالٍ من السّؤدد:

قال معاوية، رضي الله عنه: ثلاث خصالٍ من السّؤدد، الصّلع، واندماج البطن، وترك الإفراط في الغيرة (٢).

أذات عروسٍ ترى؟!:

ولمّا قتل عثمان، رضي الله عنه، وقفت يوماً على قبره نائلة بنت الفرافصة الكلبي، فترحّمت عليه ثمّ انصرفت إلى منزلها، ثمّ قالت: إنّي رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثّوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي. فدعت بفهرٍ فهتفت فاها، وقالت: والله لا يقعد رجلٌ منّي مقعد عثمان أبداً. وخطبها معاوية فبعثت إليه أسنانها، وقالت: أذات عروسٍ ترى؟ وقالوا: لم يكن في النّساء أحسن منها مضحكاً (٣).

حديث سميّة الزّانية:

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى: أنّ عليّاً عليه السّلام ولّى زياداً فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف فضرب بعضهم ببعضٍ حتّى غلب عليها، وما يزال يتنقل في كورها حتّى أصلح أمر فارس. ثمّ

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٢٥.
(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٦.
(٣) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٣٧.

ولاّه على اصطخر، وكان معاوية يتهدّده، ثمّ أخذ بشر بن أرطاة ابنته وكتب إليه يقسم عليه ليقتلها إن لم يدخل في طاعة معاوية. وتوفّي عليٌّ عليه السّلام، فكتب معاوية يدعوه إلى طاعته وأن يقرّه على عمله ويستخلفه إذا كان أبو مريم السّلولي شهد عنده أنّه جمع بين أبي سفيان وسميّة في الجاهليّة على الزّنا. وكانت سميّة من الزّانيات بالطّائف تؤدّي الضّريبة إلى الحارث بن كلدة. وكانت تنزل بموضع ينزل فيه البغايا بالطّائف. فقال له: كره ترك المشورة من العيّ. فشاور زياد المغيرة بن شعبة قال: ارم الغرض الأقصى ودع عنك الفضول، فإنّ هذا الأمر لا يمدّ أحدٌ إليه يداً إلاّ الحسن بن علي. وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك، وانقل أصلك إلى أصله، وصل حبلك بحبله، وأعر النّاس منك أذناً صمّاء، وعيناً عمياء. فقال له زياد: يا ابن شعبة، لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته، لا أصلٌ يغذّيه ولا ماءٌ يسقيه. وعزم على ذلك، وقبل رأي المغيرة، وقدم على معاوية. فأرسلت إليه جويريّة، عن أمر معاوية، فأتاها ودنت له وكشفت شعرها بين يديه وقالت: أنت أخي، أخبرني بذلك أبي.

ثمّ أخرجه معاوية إلى المسجد وجمع النّاس، فقام أبو مريم السّلولي فقال: أشهد أنّ أبا سفيان قدم علينا بالطّائف، وأنا خمّارٌ بالجاهليّة، فقال: ابغني بغياً فقلت له: لم أجد إلاّ سميّة جارية الحارث بن كلدة! فقال: ائتني بها على ذفرها وقذرها. فقال زياد مهلاً، إنّما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً. فقال أبو مريم: لو كنتم أبغضتموني كان أحبّ إليّ، فما شهدت إلاّ بما عاينت ورأيت، فوالله لقد أخذ بكمٍّ درعها وأغلق الباب عليها، وقعدت، فلم ألبث أن خرج عليٌّ يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان؟ فقال: ما أصبت مثلها يا أبا مريم، لولا استرخاءٍ من ثديها وذفر مرفقيها. فقال زياد: أيّها النّاس، هذا الشّاهد

قد ذكر ما سمعتم، ولست أدري حقّ ذلك من باطله، ومعاوية والشّهود أعلم بما قالوا. فقام يونس بن الثقفي فقال: يا معاوية، قضى رسول الله، ، بالولد للفراش؛ وشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرنّ بك طيرةً يطيب وقوعها، هل إلاّ إلى الله أقع، قال: نعم، فاستغفر الله. فقال ابن مفزع، ويقال أنّها لعبد الرّحمن ابن أمّ الحكم ونحلها ابن مفزع:

ألا أبلغ معاوية ابن صخرٍ ::: مغلغلةً على الرّجل اليماني
أتغضب أن يقال: أبوك عفٌّ ::: وترضى أن يقال: أبوك زان
فاشهد أن آلك من زيادٍ ::: كآل الغيل من ولد الأتان (١)

أهذا كنت دبرته من زمن عثمان؟ :

قيل لمعاوية بن أبي سفيان ما بلغ من عقلك قال ما وثقت بأحد قط. وقال ثعلب نظر معاوية يوم صفين إلى إحدى جنبتي عسكره وقد مالت فلمها فاستوت ثم نظر إلى الجنبة الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت فقال له رجل من أصحابه أهذا كنت دبرته من زمن عثمان؟ فقال هذا والله كنت دبرته منذ زمن عمر رضى الله عنهم.

أي الأخوة أنت؟

قال ابن الجوزي: وبلغنا أن رجلاً جاء إلى حاجب معاوية فقال له قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك ثم قال له ما أعرف هذا ثم قال أئذن له فدخل فقال له أي الأخوة أنت؟ فقال ابن آدم وحواء فقال يا غلام أعطه درهماً فقال تعطى أخاك لأبيك وأمك درهما فقال لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا (٢).

أما من قبلك فلا:

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٦٦ - ٦٧.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٢.

لما أسن معاوية اعتراه أرق وكان إذا هو نام أيقظته النواقيس [(١)] فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه قال يا معشر العرب هل فيكم من يفعل ما أمره به وأعطيه ثلاث ديات أعجلها له وديتين إذا رجع فقام فتى من غسان فقال أنا يا أمير المؤمنين قال تذهب بكتابي إلى ملك الروم فإذا صرت على بساطه أذنت قال ثم ماذا قال فقط قال لقد كلفت صغيراً وأعطيت كثيراً فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن فحارت البطارقة واخترطوا سيوفهم فسيق إليه ملك الروم فجثى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهم حتى كفوا ثم ذهب به إلى سريره حتى صعد به ثم جعله بين رجليه فقال يا معشر البطارقة إن معاوية قد أسن ومن أسن أرق وقد آذنته النواقيس فأراد أن يقتل هذا على الآذان فيقتل من ببلاده على ضرب النواقيس وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن فكساه وجمله فلما رجع إلى معاوية قال له أوقد جئتني سالماً قال أما من قبلك فلا.

قد فعلت:

وروينا أن معاوية قال لعبد الله بن عامر أن لي عندك حاجة تقضيها؟ قال: نعم ولي إليك حاجة أتقضيها؟ قال: نعم قال: سل حاجتك قال: أريد أن تهب لي دورك وضياعك بالطائف قال: قد فعلت فسل حاجتك قال: أن تردها علي قال قد فعلت [(٢)].

قد خرف الشيخ:

حج معاوية حجتين في خلافته وكانت له ثلاثون بغلة يحج عليها نساؤه وجواريه قال فحج في إحداهما فرأى شيخا يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان فقال من هذا قالوا سعية بن غريض وكان

---

(١) المقصود هنا نواقيس الأديرة والكنائس النصرانية.
(٢) الأذكياء، ص ٥١، ٦٠، ٦٣.

من اليهود فأرسل إليه يدعوه فأتاه رسوله فقال أجب أمير المؤمنين قال أو ليس قد مات أمير المؤمنين قيل فأجب معاوية فأتاه فلم يسلم عليه بالخلافة فقال له معاوية ما فعلت أرضك التي بتيماء قال يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار قال أفتبيعها قال نعم قال بكم قال بستين ألف دينار ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها قال لقد أغليت قال أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبل قال أجل وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي به نفسه فقال قال أبي

يا ليتَ شِعري حين أُندَبُ هالكاً ::: ماذا تُؤبّنني به أَنواحِي
أيقلن لا تبعَد فرُبّ كَريهة ::: فرّجتُها بشجاعةٍ وسَماحِ
ولقد ضربتُ بفضل مالي حقَّه ::: عند الشِّتاء وهَبَّة الأرواحِ
ولقد أخذتُ الحقَّ غير مخاصم ::: ولقد رددتُ الحقَّ غيرَ مُلاَحِي
وإذا دُعيتُ لصَعبةٍ سهّلتُها ::: أُدعَى بأفلِحْ مرّةً ونَجَاحِ

فقال أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك قال كذبت ولؤمت قال أما كذبت فنعم وأما لؤمت فلم قال لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الإسلام أما في الجاهلية فقاتلت النبي والوحي حتى جعل الله عز و جل كيدك المردود وأما في الإسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة وما أنت وهي وأنت طليق ابن طليق فقال معاوية قد خرف الشيخ فأقيموه فأخذ بيده فأقيم (١).

لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام:

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبى سفيان فأشار له إلى الوساد فقال له اجلس فجلس على الأرض فقال معاوية ما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد فقال يا أمير المؤمنين إن فيما

(١) الأغاني، ٣ /١٢٤.

أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال لا تغش السلطان حتى يملك ولا تقطعه حتى ينساك ولا تجلس له على فراش ولا وساد واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصا عليك حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني فقال معاوية لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام وأنشأ يقول:

يا أيها السائل عما مضى ::: وعلم هذا الزمن العائب
ان كنت تبغي العلم أو أهله ::: أو شاهدا يخبر عن غائب
فاعتبر الارض بسكانها ::: واعتبر الصاحب بالصاحب

لا تبطئ ولا تخطئ:

قال ابن الاعرابي قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة التي فيكم قال شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له رجل من عرض القوم يا أمير المؤمنين هم بالبسر(١) والرطب أبصر منهم بالخطب فقال له صحار أجل والله إنا لنعلم أن الريح لتنفخه وأن البرد ليعقده وأن القمر ليصبغه وأن الحر لينضجه فقال له معاوية ما تعدون البلاغة فيكم قال الإيجاز قال له معاوية وما الإيجاز قال له صحار أن تجيب فلا تبطئ وأن تقول فلا تخطئ فقال معاوية أو كذلك تقول قال صحار أقلني يا أمير المؤمنين لا تبطئ ولا تخطئ.

استريح منه إليك:

- وقال معاوية بن أبي سفيان للنخار بن أوس العذري ابغني

(١) البسر: ثمر النخل قبل أن يرطب والغض الطري من كل شيء.

محدثا قال أو معي يا أمير المؤمنين قال نعم أستريح منه إليك ومنك إليه.

هل كان بينك وبين أمها قرابة!

دعا معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي رضي الله عنه إلي طعام، وحين وضع بين يدي الحسن عليه السلام، دجاجةً، ففكها، نظر إليه معاوية، فقال: هل كان بينك وبينها عداوة؟ فقال له الحسن: هل كان بينك وبين أمها قرابة؟ [1].

حتى نبهني أمير المؤمنين :

عن أبي شجرة، يزيد بن شجرة الرهاوي، أنه بينما هو يساير معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية يحدثه عن يوم خزاعة وبني مخزوم وقريش، وكان هذا قبل الهجرة، وكان يوماً أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع ببعيره على رابية، ثم أومأ بكميه إلى الفريقين، فانصرفوا.

قال: فبينا معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صك وجه يزيد حجر عائر فأدماه، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه، وهو ما يمسح وجهه.

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك، يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال: أعتق ما أملك، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري، وغطى على قلبي، فما شعرت بشيء حتى نبهني أمير المؤمنين.

فقال له معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألفٍ من العطاء، أخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكماة أهل صفين، فأمر له

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٢.

بخمسمائة ألف درهم، وزاده في عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه.

كيف ذلك، ولله أنت!:

ويحكى عن معاوية بن أبي سفيان، بينا هو يسير وشرحبيل بن السمط يسايره، إذ راثت دابة شرحبيل؛ فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظمت، دلت على وفور الدماغ، وصحة العقل. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إلا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيف ناقص.

فتبسم معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمه البارحة مكوكي شعير. فضحك معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمه البارحة مكوكي شعيرٍ. فضحك معاوية، وقال: أفحشت، وما كنت فاحشاً! وحمله على دابة من مراكبه [1].

أنا صاحبه:

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان في يوم عيدٍ، وقد قعد للناس، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلات فجاء رجل من الجماعة، والناس يأكلون، فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم: تنح! فليس هذا بموضع لك.

فسمع معاوية، فقال: دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس فأخذ كيساً، فوضعه بين بطنه وحجزة سراويله، وقام. فلم يجسر أحد أن يدنو منه. فقال الخادم: أصلح الله أمير المؤمنين! إنه قد نقص من

---

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص١٨.

المال كيس دنانير. فقال: أنا صاحبه، وهو محسوب لك [١].

أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة!:

ومن حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه؛ كما فعل سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة! [٢]

فهل ترى أحداً يدخل من الباب إلا بأذنٍ!

ويقال أن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: يا جارية! انظري هل تحرك أمير المؤمنين.

فجاءت الجارية مرة حتى فتحت الباب، فإذا معاوية قاعد، وفي حجره مصحف، وبين يديه جارية تصفح عليه. فأخبرت يزيد بذلك.

فجاء يزيد، فدخل على معاوية. فقال له: أي بني! إني إنما جعلت بيني وبينك باباً، كما بيني وبين العامة. فهل ترى أحداً يدخل من الباب إلا بإذنٍ؟ قال: لا قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قرع عليك فهو إذنك[٣].

رأي معاوية في ما يستحسن من الشعر:

قال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم: أراك تعجب بالشعر، فإن فعلت فإياك والتشبب بالنساء فإنك تعر به الشريفة وترمي به العفيفة وتقر على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء فإنك تحنق به كريماً وتستثير به لئيماً، وإياك والمدح فإنه كسب الوقاح

---

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٢٢.
(٢) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص١٨.
(٣) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٢٧.

وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتودد به إلى غيرك [١].

هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار:

عن سعيد بن عمرو قال: وفد عبد الله جعفر على معاوية بن أبي سفيان فأنزله في داره فقالت له ابنة قرظة امرأته: إن جارك هذا يسمع الغناء، قال: فإذا كان ذلك فأعلميني فأعلمته فاطلع عليه فإذا جارية له تغنيه وهي تقول:

إنــــك والله لـــــذو ملـــــةٍ ::: يطرفـــك الأدنى عـــن الأبعـــد

وهو يقول: يا صدقكاه. قال: ثم قال اسقيني قالت: ما أسقيك؟ قال: ماء وعسلاً، قال: فانصرف معاوية وهو يقول: ما أرى بأساً. فلما كان بعد ذلك قالت له: إن جارك هذا لا يدعنا ننام الليل من قراءة القرآن، قال: هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار [٢].

وأخبرتك بما لا تعرف فاخترته:

عن عبد الله بن الحسن، قال: قال معاوية لابن أبي أحمد: أصبت لنا مالاً أبتاعه؟ فأتاه فقال: قد أصبت لك مالاً، قال: ما هو؟ قال: البلدة، قال: لا حاجة لي بها، قال: النخيل، قال: لا حاجة لي فيه، قال: ودعان، قال: لا حاجة لي فيه، قال: الغابة، قال: نعم، اشترها، قال له: يا أمير المؤمنين! سميت لك أموالاً تعرفها فكرهتها، وأخبرتك بما لا تعرف فاخترته، قال: نعم، سميت لي البلدة فتبلدت علي، وسميت النخيل فكان مصغراً، وسميت لي ودعان فنهتني نفسي عنها، وسميت لي الغابة فعلمت أن بها كثرة الماء، وقد قال الأول:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٣١٤.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٥٩/١.

إن كنت تبغي العلم أو مثله ::: أو شاهداً يخبر عن غائب
فاعتبر الأرض بأسمائها ::: واعتبر الصاحب بالصاحب[1]

يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً:

جلست ميسون بنت بحدل الكلبية ترجل ابنها يزيد بن معاوية، وميسون يومئذ مطلقة، ومعاوية وفاختة بنت قرظة ينظران إليهما، ويزيد وأمه لا يعلمان، فلما فرغت من ترجيله نظرت إليه فأعجبها وقبلت بين عينيه، فقال معاوية بيتاً من شعر:

إذا مات لم تفلح مزينة بعده ::: فنوطي عليه يا مزين التمائما

قال: ومضى يزيد فأتبعته فاختة بصرها، وقالت: لعن الله سواد ساقي أمك، فقال معاوية: قد رأيتها؟ أما والله على ذاك لما فرجت عنه وركاها خيرٌ مما تفرجت عنه وركاك.

وكان لمعاوية من بنت قرظة عبد الله، وكان أحمق الناس، قالت فاختة: لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه، فقال: سوف أبين لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن تقومي من مجلسك، يا غلام! ادع لي عبد الله، فدعاه فقال له معاوية: يا بني! إني قد أردت أن أسعفك وأن أصنع بك ما أنت أهله، فسل أمير المؤمنين فلست تسله شيئاً إلا أعطاكه. فقال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً، فقال معاوية: يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً، قم فاخرج، قال: كيف رأيت؟ يا غلام! ادع لي يزيداً، فدعاه.

فقال: يا بني! إن أمير المؤمنين قد أراد أن يسعفك ويوسع عليك ويصنع بك ما أنت أهله، فاسأله ما بدا لك، قال: فخر ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ١٥٠.

في هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتوليني العام صائفة المسلمين، وتحسن جهازي وتقويني، فتكون الصائفة أول أسفاري، وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتوليني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمح وأيتام بني سهم وأيتام بني عدي، قال: مالك ولبني عدي؟ قال: لأنهم حالفوني وانتقلوا إلى داري، قال معاوية: قد فعلت - إذا رجعت - ذلك بك، وقبل وجهه وقال لابنة قرظة: كيف رايت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أوصه بي، فأنت أعلم به، ففعل.

قال القاضي: قدر روينا هذا الخبر من طريق آخر، وفيه: أن عبد الله سأل مالاً وأرضاً، وأن يزيد قال لمعاوية: اعتقني من النار أعتق الله رقبتك من النار، فقال له: وكيف؟ قال: لأني وجدت في الأثر أنه " من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار "، فاعهد إلي من بعدك[1].

الرد الخالص:

قال سعيد بن العاص لمعاوية وهو معه على سريره: يا أمير المؤمنين! والله لكأن عمتك هذه خمرة هند عند بعض أزواجها فيما يوصف لي. قال: فلم يجبه معاوية بشيء.

ودخل سليمان بن صرد، فقال له معاوية: مرحباً، هاهنا فأجلسه بينه وبين سعيد على السرير، فساءله طويلاً، ثم قال له: كيف بر هذا بك؟ فقال سعيد: ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ قال: وما أردت بخمرة هند [2].

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٦٤/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٦٦/١.

بم سدت قومك!

قال معاوية لعرابة الأوسي: بم سدت قومك؟ قال: كنت أعطي سائلهم، وأعفو عن جاهلهم، وأسعى في مصالحهم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خيرٌ مني ومن قصر عنه فأنا خير منه (١).

سآكل منها ولو شققت بطنك:

حج معاوية رحمه الله وكان عامله على المدينة مروان، فلما ورد المدينة هيأ له مروان طعاماً فأكثر وجوده، فلما حضر الغداء جاء متطببٌ نصراني لمعاوية فوقف وجعل إذا أتى لونٌ قال: كل يا أمير المؤمنين من هذا، وإذا أتى لونٌ ظن أنه لا يوافقه، قال: لا تأكل من هذا.

فلما كان في بعض غدائهم، أقبل زنجيان مؤتزران بربطتين بيضاويين يدلحان بجفنةٍ لها أربع حلقات مترعةً حيساً (٢)، فلما رآها معاوية استشرف لها وحسر عن ذراعيه، فقال له الطبيب: أي شيءٍ تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد - والله - أن أواقع ماترى، قال: أمزق ثيابي، قال: ولو مزقت بطنك، فجعل يدبل مثل دبل البعير ويقذف في جوفه حتى إذا نهل، قال: يا مروان! ما حيسكم هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، عجوةٌ ناعمة، وإقطةٌ مزنية، وسمنةٌ جهنمية، قال: هذه - والله - الأشفية جمعت لا كما يقول هذا النصراني(٣).

بين معاوية وابن الزبير:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٩٨/١.
(٢) الحَيْسُ: نوع من الحلوي عبارة عن تمر ينزع نواه ويدقّ مع أقطٍ ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد وربما جعل معه سويق وهو مصدر في الأصل يقال.
(٣) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٠٤/١.

لما حج معاوية مر بالمدينة فلقيه عبد الله بن الزبير فقال: آعدني على الوليد بن عتبة فقد تزايد خطله، وذهب به جهله إلى غايةٍ تقصر عنها الأنوق [1]، ودون قرارها العيوق [2]، فقال معاوية: والله ما يزال أحدكم يأتيني يغلي جوفه غلي المرجل على ابن عمه، فقال ابن الزبير: أما والله ما ذاك عن فرارٍ منه ولا جبنٍ عنه، ولقد علمت قريش أني لست بالفه [3] الكهام [4] ولا بالهلباجة[5] النثر [6]، فقال له معاوية: إنك لتهددني وقد عجزت عن غلامٍ من قريش لم يبر في سباقٍ [7] ولا ضرب في سياق [8]، وإن شئت خلينا بينك وبينه، فقال ابن الزبير: ما مثلي يهارش به، ولكن عندك من قريش والأنصار ومن ساكني الحجون والآطام [9] من إن سألت حملك على محجةٍ

---

(١) وهو طائر يرتاد لبيضه شوامخ الجبال وحيث يبعد متناوله ويخفى مكانه، فلا يكاد إنسان يجده أو يصل إليه، والعرب تضرب المثل في من طلب ما يعز وجوده ويتعذر إدراكه ونيله فيقولون: إنه يطلب بيض الأنوق.

(٢) العيوق: نجم عالٍ معروف.

(٣) الرّجل الفهُّ، وهو العَييّ، ومعنى الفهاهة في الكلام ما يأتي على غير استقامةٍ.

(٤) الكهَامُ: الكلِيلُ النَّوّامُ.

(٥) الهلباجة: الأحمقُ الذي لا أحْمَق منه.

(٦) النثر: ذو الرأي السخيف واللب الضعيف.

(٧) : لم يبر في سباق: أي لم يسبق مجارياً فيفضله ويظهر غلبته إياه، يقال: أبر فلان على فلان إذا غلبه وزاد في الفضل عليه، يبر إبراراً فهو مبر، كما قال ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة:

أبر على الخصوم فليس خصم ::: ولا خصمان يغلبه جدالا
ولبس بين أقوام فكل ::: أعد له الشغازب والمحالا

(٨) ولا ضرب في سياق معناه أنه لمّ يرض فيحتنك ولم يؤخذ بالتثقيف ولذع التأديب فتستحكم عزيمته وتستحصد مرته.

(٩) من ساكني الحجون والآطام ": فإن الحجون موضع بمكة معروف وإياه عنى الشاعر بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ::: أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وقال آخر:

هيجتني إلى الحجون شجون ::: ليته قد بدا لعيني الحجون

أبين من ظهر الجفير، قال: ومن ذلك؟ قال: هذا، يعني أبا الجهم بن حذيفة، فقال معاوية: تكلم يا أبا الجهم. فقال: أعفني، قال: عزمت عليك لتقولن، قال: نعم أمك هند، وأمه أسماء بنت أبي بكرٍ، وأسماء خير من هند، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير، ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير، وأما الدنيا فلك وأما الآخرة فله، إن شاء الله (١).

إن العباءة لا تكلمك :

دخل النخار العذري النسابة على معاوية وعليه عباءة فكلمه فأعرض عنه، فقال: يا معاوية إن العباءة لا تكلمك، إنما يكلمك من فيها، فأقبل عليه(٢)

أشرف من حرب بن أمية من أكفأ عليه إناءه:

عن الشعبي قال: دخل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على معاوية وعنده يزيد ابنه، فجعل يزيد يعرض بعبد الله في كلامه وينسبه إلى الإسراف في غير مرضاة الله، فقال عبد الله ليزيد: إني لأرفع نفسي عن جوابك، ولو صاحب السرير يكلمني لأجبته؛ قال معاوية: كأنك تظن أنك أشرف منه قال: إي والله، ومنك ومن أبيك وجدك، فقال معاوية: ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب بن أمية يزعم أنه أشرف من حرب بن أمية، قال عبد الله: بلى والله يا معاوية، إن أشرف من حرب بن أمية من أكفأ عليه إناءه وأجاره بردائه، قال: صدقت يا أبا جعفر، سل حاجتك فقتضى حوائجه وخرج (٣).

معاوية واللقمة التي لم تكتب له:

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٧٩/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٨٦/١.
(٣) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٢٤/١.

عن عبد الملك بن مروان قال: جلست مع معاوية على غدائه فأخذ لقمةً فهيّأها، وأخذ يتحدّث فوضعها، فأخذتها، فعل ذلك مراراً يضعها وآخذها وألقمها، فسمعته يقول وهو يخطب: إن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه يراها من رزق الله له قد كتبها لغيره فيأكلها الّذي كتبت له.

وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين :

لمّا مرض معاوية أرجف به مصقلة البكريّ ثم قدم عليه وقد تماثل، فأخذ معاوية بيديه فقال:

أبقى الحوادث من خليلك ::: مثل جندلة المراجم
قد رامني الأقوام قبلك ::: فامتنعت من المظالم

فقال مصقلة: قد أبقى الله منك يا أمير المؤمنين ما هو أعظم من ذلك: حلماً وكلأً ومرعى لوليك، وسمّاً ناقعاً لعدوك، كانت الجاهليّة وأبوك سيّد المشركين، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين(١).

بين ابن عباس ومعاوية:

عن عكرمة قال: لما قدم معاوية الحجاز دخل عليه أبوك عبد الله بن عباس فسلّم عليه، فقال له معاوية: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، فقال له أبوك: الحمد لله الذي أنطقك يا معاوية بالحقّ، وعرَّفك حقّنا وفضلنا، وأنا أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقال له معاوية: فكيف رأيت الله عز وجل حيث حرمكم هذا الأمر الذي عرَّضتم له أكتافكم؟ فقال له أبوك: إنه كان من عزائم قدرة الله ما يذودنا عن الدنيا وموارد الهلكة أن قال:{قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [النساء: ٧٧]؛ فو الله يا معاوية لولا

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٥٩/١.

طاعة الله لما قدرت أن تغرف بدلوك في طويّ شدَّ عليه هاشمٌ رشاءً؛ فتضاحك معاوية وقال: أمازحك فلا تحلم يا ابن عباس؟ فقال له أبوك: عمن أحلم؟ عمن يرى أن له الفضل؟! ثم نفض ثوبه ليخرج فجذبه معاوية وقال: يا ابن عباس عندي ثوب من عصب اليمن وثوبان من نسج العجم فأهديهما إليك. فلبسهما أبوك وغدا عليه فيهما فقال الشاعر: في ذلك

إن الثياب بآل هاشم زينة ::: تزهو ويضعف حسنها في المشهد
وبنو أمية في الثياب تراهم ::: شبه القرود أذلّةً في المحتد[1]

أمنيات متفاوتة:

قعد معاوية وعمرو ذات يوم فقال معاوية، ما شيء أصيبه أحبّ إليَّ من عين فوّارة في أرض خوّارة، أصيبها من صاحبها بطيب نفسه؛ فقال له عمرو: لكنّي لست هكذا، ما شيء أصيبه أحبّ إلي من أن أصبح عروساً بعقيلة من عقائل العرب؛ ورجلٌ جالسٌ فقال: ولكنّي لست هكذا، ما شيء أصيبه أحبّ إليّ من الفضل على الأخوان. فقال معاوية: أنا أحقّ بها منك لا أمَّ لك، قال: فقد قدرت يا أمير المؤمنين[2].

معاوية يعيب أهل اليمن فيعيب اليمني قوم معاوية:

عن أبي الزناد قال، قال معاوية لرجل من أهل اليمن: ما كان أجهل قومك حيث قالوا:{رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا} [سبأ: ١٩]، وحيث ملكوا أمرهم امرأة. فقال: أجهل منهم قومك يا أمير المؤمنين قالوا حين دعاهم رسول الله :{ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} [الأنفال: ٣٢]، ألا قالوا: اللّهم إن كان هذا هو الحق

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٦٧/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٧٠/١.

من عندك فاهدنا له [1].

اتفاقهما في المعنى واختلافهما في اللفظ:

ولما قدم معاوية من الشام - وكان عمر قد استعمله عليها - دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا. فصرنا أتباعاً وصاروا قادة. وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه.

قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ [2].

كف عنه يا بن عباس فأنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت:

ومما يصحب به السلطان: أن لا يسلم على قادم بين يديه، وإنما استن ذلك زياد، وذلك أن عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية وألطفه وقرب مجلس، ولم يكلمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة؟ كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً! قال: لا، ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كف عنه يا بن عباس فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت [3].

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٨١/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٣.

لهذا بعثت إلي!

قدم معاوية من الشام، وعمرو بن العاص من مصر، على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقعدهما بين يديه، وجعل يسائلهما عن أعمالهما، إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: أعملي تعيب وإلي تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك، قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال: قال رسول الله : **إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**. ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال: لهذا بعثت إلي! أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له: وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحة وإن استثقلها وليكن كلامه له كلام رفق لا كلام خرق، حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضرب له الأمثال ويخبره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه(١).

اتقوا أكرم قريش وابن كريمها:

كان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أكرم قريش وابن كريمها، من يضحك في الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوقه من تحته.

كيف ترى هؤلاء وما هم عليه!

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤.

وقال عمرو بن العاص رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قلب عسكره، فجعل يلحظ ميمنته فيرى فيها الخلل، فيبدر إليه من يسده؛ ثم يفعل ذلك بميسرته، فتغنيه اللحظة على الإشارة. فدخله زهو مما رأى، فقال: يا ابن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا، فما رأيت أحد تأتى له من طاعة رعيته ما تأتى لك من هؤلاء. فقال: أفتدري متى يفسد هذا؟ وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا. قال: في يوم واحد. قال: فأكثرت التعجب. قال: إي والله، وفي بعض يوم، قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كذبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء، فسد جميع ما ترى [1].

وأكون أنا للرأفة والرحمة:

عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه. فكتبت إليه: إن هذا أدب أسوأ من قبلي. فكتب إلي: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعا فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة[2].

أنا أكبر أم أنت!

وقال معاوية لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلت في عرس أمك يا أمير المؤمنين. قال: عند أي أزواجها؟ قال:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٦.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٢.

عند حفص بن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب العصبي، ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هذا هو القائل في معاوية بن أبي سفيان:

ونغضبه لنخبر حالتيه ::: فنخبر منهما كرماً ولينا
نميل على جوانبه كأنا ::: نميل إذا نميل على أبينا

ما أظنك إلا صادقاً:

وقدم عقيبة الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

معاوي إننا بشر فأسجح ::: فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتمونا ::: فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا ::: وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعا ::: يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية، فقال: ما جرأك علي؟ قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً، وقضى حوائجه.

ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية:

عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك (١) بعجيزة أمك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل معاوية عن صلاته قال: لا يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك، فأخذه.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها أمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يخبرك، وأشار إلى صاحب

---

(١) العَجُز: هو ما بين الوَركين.

الشرطة، فقدمه فضرب عنقه.

فلما بلغ معاوية، قال: ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية [1].

واحدة بأخرى والبادئ أظلم:

دخل خريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان، فنظر معاوية إلى ساقيه، فقال: أي ساقين، لو أنهما على جارية! فقال له خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين. قال: واحدة بأخرى والبادئ أظلم[2].

هذا رجل فاستوص به خيراً:

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستوص به خيراً[3].

كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم:

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه، فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله. وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه [4].

إن دعا أجيب وإن سأل أعطي:

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه، فقال: من يغش أبواب

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٥.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٦.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٨.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٠.

الملوك يقم ويقعد، ومن يجد بابا مغلقا يجد إلى جانبه بابا مفتوحا، إن دعا أجيب وإن سأل أعطي (١).

والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل :

وكتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية، حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهني سفهاء قريش، فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلوك ذاك المحل؛ وأما ما ذكرت من أمر العمل، فضح رويداً يدرك الهيجا حمل.

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة، كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فخرج وخرجنا معه. فلما دخل عليه قال له: يا مغيرة، كبرت سنك، ورق عظمك، ولم يبق منك شيء، ولا أراني إلا مستبدلاً بك. قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره قلنا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك. فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه، فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا تركض على النجب، فالتفت فقال: والله لقد

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢١.

وضعت رجله في ركاب طويل، ألقى عليه أمة محمد [1].

والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان!

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ::: وإن لم تكن لي فرصة فجبان[2]

الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين!

دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسلمت عليه بالخلافة، ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا علي حي؛ قال: ألست المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تتصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه، فالله الله عباد الله في دين الله، وإياكم والتواكل، فإن ذلك ينقض عرا الإسلام، ويطفئ نور الحق، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى؛ يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم غداً، ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق. فكأني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران، يقولون:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٤.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٨.

هذه عكرشة بنت الأطرش ابن رواحة، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ } [المائدة: ١٠١]، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته؛ قال: صدقت، فاذكري حاجتك؛ قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وإنا قد فقدنا ذلك فما يجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك، فمثلك من انتبه عن الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك، فما مثلك من استعان الخونة، ولا استعمل الظلمة. قال معاوية: يا هذه، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهق، قالت: يا سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علام الغيوب؛ قال معاوية: هيهات يا أهل العراق، نبهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا. ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافها (١).

علام أحببت علياً وأبغضتني، وواليته وعاديتني!

عن سهل بن أبي سهل التميمي قال: حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كناية كانت تنزل بالحجون، يقال لها دارمية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها، فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كنانة؛ قال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله؛ قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتني، وواليته وعاديتني؟ قالت: أوتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك؛ قالت: أما إذ أبيت، فأني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٥.

بحق؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء، وحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى؛ قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك؛ قالت: يا هذا، بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي، قال معاوية: يا هذه اربعي، فإنا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها؛ فرجعت وسكنت. قال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله؛ قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك؛ قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى، كما يجلو الزيت صدأ الطست؛ قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فحلها وراعيها؛ قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: اغذوا بألبانها الصغر، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر؛ قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك، يا: سبحان الله، أو دونه؟. فأنشأ معاوية يقول:

إذ لم أعد بالحلم مني عليكم ::: فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ::: جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً؛ قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين [1].

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٧.

وفود أم الخير بنت الحريش على معاوية:

عن الشعبي قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقي برحلها، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً وبالشر شراً. فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه؛ فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري. فلما شيعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إلي أنه مجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً، فمالي عندك؟ يا هذا لا يطمعنك برك بي أن أسرك بباطل، ولا تؤيسك معرفتي بك أن يقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع الحرم، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مه، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه، و لكل أجل كتاب؛ قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك، فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق؛ قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم؛ قالت: يا أمير المؤمنين، يعيذك الله من دحض المقال وما تردي عاقبته؛ قال: ليس هذا أردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن زورته قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة، فإن أحببت أن أحدث لك مقالاً عن ذلك فعلت؛ قال: لا أشاء ذلك. فالتفت معاوية إلى جلسائه، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين؛ قال: هات؛ قال: كأني بها وعليها برد زبيدي كثيف

النسيج، وهي على جمل أرمك، وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدر في شقشقته، تقول:

يا أيها الناس، اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: " ولبيلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ". ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي؛ والصديق الأكبر، إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام، كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص، إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها؛ فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون؛ وتقوى كلمة الشيطان، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله

وصهره وأبي سبطيه؟ خلق من طينته، وتفرع من نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأبان ببغضه المنافقين، وها هو ذا مغلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون. وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرق بن جمع هوازن. فيالها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين أيماناً، قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك؛ قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟ قالت: وما عسيت أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون، قال معاوية: يا أم الخير، هذا أصلك الذي تبينين عليه؟ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً، ما أردت بعثمان نقصاً، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غداً. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمنه، وأتي من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمة رسول الله وحواريه، وقد شهد له رسول الله بالجنة، ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام. وأنا أسألك بحق الله يا معاوية - فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها - أن تسعني بفضل حلمك، و أن تعفني من هذه المسائل وتسألني عما شئت من غيرها؛ قال: نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها، ثم أمر لها

بجائزة رفيعة وردها مكرمة[1].

وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله:

قال عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا عمة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يا بن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله ، فأتعس الله منك الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله، ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة وغايتكم النار. فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، وأقصري من قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا بن النابغة، تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وآخذهن لأجرة؛ ادعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز، واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت إلى معاوية، فقالت: والله ما جرأ علي هؤلاء غيرك، فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٧ - ٢٩.

نحـــن جزينـــاكم بيـــوم بـــدر ::: والحرب بعد الحـــرب ذات ســـعر
ما كان لي عن عتبـــة مـــن صـــبر ::: وشكر وحشـــي علـــي دهـــري
حتى ترم أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمي، وهي تقول:

خزيـــت في بـــدر وبعـــد بـــدر ::: يـــا بنـــة جبـــار عظـــيم الكفـــر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف، يا عمة، هات حاجتك؛ قالت: مالي إليك حاجة؛ وخرجت عنه (1).

إذا أراد الله أمراً يسره:

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روح بن زنباع، فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع مني خسيسة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها، أو تشمت بي عدواً أنت وقمته إلا أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي؛ فقال معاوية: خليا عنه، إذا أراد الله أمراً يسره.

ويحك! لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسنت:

أتي معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق، فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك؛ قال: لا تقل يا معاوية، فإنها مصيبة؛ قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله عز وجل من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ اضرب عنقه يا غلام؛ فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، وأنك لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله؛ قال له: ويحك! لقد سببت فأبلغت،

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٩.

ودعوت فأحسنت، خلياً عنه [1].

ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة:

عن أبي الجويرية الجرمي قال: كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وابعث إلي في هذه القارورة ببزر كل شيء، فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس. فقال ابن عباس: أما مالا قبلة قبله له فالكعبة؛ وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم، وأما من سار به قبره فيونس؛ وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم: فكبش إبراهيم، وناقة ثمود، وحية موسى؛ وأما شيء، فالرجل له عقل يعمل بعقله؛ وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول؛ وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره؛ وملأ القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتاب والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة [2].

ما بلَغ من عَقْلك!

وقال مُعاوية لعَمْرو بن العاص: ما بَلَغ من عَقْلك؟ قال: ما دخلتُ في شيء قط إلا خَرجتُ منه؟ فقال مُعاوية: لكنّي ما دخلتُ في شيء قطُ أريد الخُرُوجَ منه [3].

اسمع يا يزيد:

وقدم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدون المروءة؟ قالوا:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٤٥.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٥٤.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٦٧.

العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد.

وقال الشاعر:

كلّ العَداوة قد تُرْجَــى إماتتُهـــا ::: إلا عَدَاوَةَ مَن عاداكَ مِن حَسَدِ[1]

ما تقول في الولد! :

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: " يا أمير المؤمنين "، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم أرضٌ ذليلة، وسماء ظَلِيلة، فإن طلبوا فأعْطِهم، وإن غَضبوا فأرْضهم؛ يمنحوك ودهم ويُحبوك جَهْدهم؛ ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملّوا حياتك، ويُحبُّوا وفاتك. فقال: لله أنت يا أحنف، لقد دخلتَ عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيدَ فسَلَلته من قلبي. فلمّا خرج الأحنفُ من عنده، بعث مُعاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيدُ إلى الأحنف بمائة ألف دِرْهم ومائة ثوب، شاطره إياها [2].

إذا شئتم:

وقال أصحابُ معاوية لمُعاوية: إنّا ربما جَلسنا عندك فوقَ مِقدار شَهْوتك، فأنتْ تَكْره أن تَسْتَخِفّنا فتأمر بالقيام، ونحن نكرْه أن نُثْقِل عليك في الجُلوس، فلو جعلتَ لنا علامةً نَعْرف بها ذلك؟ فقال: علامةُ ذلك أن أقولَ: إذا شِئتم [3].

والناسُ يَبْلَوْن كما يَبْلى الشَّجَر:

ودخل المُسْتَوْغِر بنُ ربيعة على معاوية بن أبي سُفيان وهو ابن ثلثمائة سنة، فقال: كيف تَجدك يا مُسْتوغر؟ فقال: أجِدني يا أميرَ

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٩٣.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٣٤.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٤٢.

المؤمنين، قد لان مِنِّي ما كنتُ أحبّ أن يشتدّ، واشتدّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يَلين، وابيضّ مني ما كنتُ أحبُ أن يسودّ، واسودّ مني ما كنتُ أحبّ أن يَبْيضَ، ثم أنشأ يقول:

سَلْني أنَبِّئك بآياتِ الكِبَرْ ::: نوم العِشاء وسُعال بالسَّحَرْ
وقِلَّةَ النَّوْم إذا الليل آعْتَكر ::: وقِلّة الطُّعْمَ إذا الزَّاد حَضَر
وسُرْعة الطَّرْف وتَحْمِيج النظر ::: وتَرْكُك الحَسناءَ في قُبْل الطُّهُر
والناسُ يَبْلَوْن كما يَبْلى الشَّجَر (١)

إنْ يَطلب هذا الأمرَ فقد يَطمع فيه مَن هو دُونه:

قال الشَّعبي: دخل الحُسين بن عليّ يوماً على مُعاوية ومعه مَوْلى له يقال له ذَكْوان، وعند مُعاوية جماعةٌ من قُريش فيهم ابنُ الزُّبير، فرَحّب مُعاوية بالحُسين وأجلسه على سَريره، وقال: ترى هذا القاعدَ - يعني ابنَ الزُّبير - فإنه ليدْركه الحسدُ لبني عبد مناف. فقال ابنُ الزُّبير لمعاوية: قد عَرفنا فضلَ الحسين وقرابته من رسول الله لكنْ إن شِئتَ أن أعْلمك فضلَ الزُّبير على أبيك أبي سُفيان فَعلتُ. فتكلّم ذكوانُ مولى الحُسين بن عليّ، فقال: يا بن الزَّبير، إنّ مولاي ما يمنعه من الكلام أن لا يكون طَلْق اللّسان، رابط الجَنان، فإن نَطق نَطق بعِلْم، وإن صَمَت صَمَت بحِلْم غيرَ أنه كَفَّ الكلام وسَبَق إلى السِّنان، فأقرَّت بفَضْله الكرام، وأنا الذي أقول:

فِيم الكلامُ لسابق في غايةٍ ::: والناسُ بين مُقَصِّر ومُبلَدِ
إنّ الذي يجْري لِيُدْرك شَأْوَه ::: يُنمَى بغير مُسوَّد ومُسدَّد
بل كيف يُدْرَكَ نُورُ بدر ساطع ::: خيرِ الأنام وفَرْع آل محمد

فقال مُعاوية: صَدَق قولُك يا ذَكْوان، أكثر اللّه في موالي الكِرام

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٢٧١.

مِثلك. فقال

ابنُ الزُّبير: إنّ أبا عبد اللهّ سَكَت، وتكلّم مولاه، ولو تكلّم لأجَبْناه، أو لكَفَفْنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جوابَ لهذا العبد. قال ذكْوان: هذا العبدُ خيرٌ منك، قال رسولُ اللّه :مولَى القوم منهم. فأنا مولى رسول اللّه وأنت ابنُ الزبير بن العوام بن خُويلد، فنحن أكرمُ ولاءً وأحسن فِعْلا. قال ابنُ الزَّبير: إني لستُ أجيب هذا، فهاتِ ما عندك يا معاوية. فقال مُعاوية: قاتلك اللّه يا بنَ الزَّبير! ما أعياك وأبغاك! أتفخر بين يدي أمير المُؤمنين وأبي عبد الله! إنّك أنت المُتعدّي لِطَوْرك، الذي لا تَعرف قدْرَك، فقِسْ شِبْرك بفِتْرك، ثم تعرّف كيف تَقع بين عَرانِين بني عَبْد مَناف. أما والله لئن دُفِعْتَ في بُحور بني هاشم وبني عبد شمس لقطعَتْك باع مواجها، ثم لترمين بك في لُججها. فما بقاؤك في البحور إذا غَمرتك، وفي الأمواج إذا بَهَزَتْك هنالك تعرف نفسَك، وتَنْدم على ما كان من جُرأتك، وتَمنّى ما أصبحتَ فيه من أمان، وقد حيل بين العَيْر والنَّزَوان. فأطرق ابن الزُّبير مليًّا! ثم رَفع رأسَه فالتفت إلى مَن حوله، ثم قال: أسألكم باللّه، أتعلمون أنَّ أبي حواريُّ رسول اللّه ، وأن أباه أبا سُفيان حاربَ رسولَ اللّه وأن أمّي أسماءُ بنت أبي بَكْر الصديق، وأمه هِنْد الأكباد؛ وجَدّي الصّدّيق، وجدَه المَشْدوخ ببدر ورَأسُ الكُفر، وعَمَّتي خديجة ذات الخَطر والحَسب، وعَمَّته أمّ جَميل حمالةُ الحَطب، وجدَّتِي صفيّة، وجدَّته حَمامة، وزَوْجَ عمتي خيرُ ولد آدم محمدٌ وزوج عَمّته شرٌّ ولد آدم أبو لهب سَيصلى نارًا ذات لهب، وخالتي عائشة أمّ المؤمنين. وخالتَه أشقى الأشقين، وأنا عبدُ اللهّ وهو مُعاوية. قال له مُعاوية: ويحك يا بن الزُّبير! كيف تَصف نفسك بما وصفتَها؟ واللّه مالك في القديم مِن رياسة، ولا في الحَديث من سياسة، ولقد قُدْناك

وسُدْناك قديماً وحَديثاً، لا تَستطيع لذلك إنكاراً، ولا عنه فِراراً، وإنّ هؤلاء الخُصوم ليعلمون أن قريشاً قد اجتمعت يوم الفِجار على رياسة حَرْب بن أمية، وأن أباك وأسرتك تحت رايته رَاضُون بإمارته، غير مُنْكرين لِفَضْله ولا طامعين في عَزله، إنْ أمَر أطاعوا، وإنْ قال أنصتوا؛ فلم تَزل فينا القيادةُ وعِزُّ الولاية حتى بَعث اللهّ عز وجلّ محمداً فأنتخبه من خير خلقه، من أسرتي لا من أسرتك، وبَني أبي لابني أبيك، فجحدته قريش أشدَ الجُحود، وأنكرته أشدَ الإنكار، وجاهدته أشدَّ الجهاد، إلا مَن عَصم اللهّ من قُريش؛ فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان ابن حرب، فكانت الفِئتان تَلتقي، ورَئيس الهُدى منّا ورئَيس الضّلالة منّا، فمَهديّكم تحت راية مَهديّنا، وضالكم تحت راية ضالّنا، فنحنُ الأربابُ وأنتم الأذناب، حتى خلّص اللهّ أبا سفيان بن حَرب بفَضْله من عَظيم شركه، وعَصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهليّة عظيماً شأنُه، وفي الإسلام مَعروفا مكانُه، ولقد أعْطِي يومَ الفَتح ما لم يُعْطَ أحدٌ من آبائك، وإنّ مُنادِيَ رسول الله نادَى: مَن دخل المَسجد فهو آمِن، ومن دخل دارَ أبي سُفيان فهو أمن؛ وكانت دارُه حَرَمًا، لا دارُك ولا دارُ أبيك؛ وأما هِنْد، فكانت امرأة من قريش، في الجاهليّة عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخَبر؛ وأما جَدُك الصدِّيق، فبِتَصديق عبد مناف سُمِّي صدِّيقاَ لا بتَصْديق عبد العُزّي؛ وأما ما ذكرتَ من جدِّي المَشْدوخ ببدر فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنُه، فلو بَرزتَ إليه أنتَ وأبوك ما بارزوكم ولا رأوْكم لهم أكفاء، كما قد طَلب ذلك غيركم فلم يَقبلوهم، حتى برز إليهم أكفاؤُهم من بني أبيهم، فقضىَ اللّه مَناياهِم بأيديهم، فنحن قتلنا ونحن قُتلنا، وما أنت وذاك؟ وأما عَمّتك أم المُؤمنين، فبنا شرُفت وسُمِّيت أمَّ المؤمنين، وخالتُك عائشة

مِثْلُ ذلك، وأما صَفِيّة، فهي أدْنتك من الظلّ ولولاها لكُنتَ ضاحِياً؛ وأمّا ما ذكرت من عمّك وخال أبيك سيّد الشُّهداء، فكذلك كانوا رَحمهم اللّه، وفخرُهم وإرثُهم لي دونك، ولا فَخَر لك فيهم، ولا إرثَ بينك وبينهم؛ وأما قولُك أنا عبدُ الله وهو مُعاوية، فقد علمتْ قُريش أينا أجودُ في الإزَم، وأمضى في القُدُم وأمنع للحُرم، لا والله ما أراك مُنْتهياً حتى تَرُوم من بني عبد مناف ما رَام أبوك، فقد طالبهم بالذُّحول، وقدْم إليهم الخُيول، وخَدَعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله إذ مَددْتم على نساءكم السُّجوف، وأبرزتم زَوْجته للحُتوف، ومُقارعة السُيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً، فلم يُنْجه ذلك أن طحَنه أبو الحُسَين بكَلْكَله طحْن الحَصِيد بأيدي العبيد، وأما أنت، فأفلتَّ بعد أن خَمَشْتك بَراثنُه ونالتك مخالبّه. وايم الله، ليقومنك بنو عبد مَناف بثقافها أو لتصيحنّ منها صِيَاح أبيك بوادي السّباع، وما كان أبوك المرهوبَ جانبُه، ولكنه كما قال الشاعر: علمتْ قُريش أينا أجودُ في الإزَم، وأمضى في القُدُم وأمنع للحُرم، لا والله ما أراك مُنْتهياً حتى تَرُوم من بني عبد مناف ما رَام أبوك، فقد طالبهم بالذُّحول، وقدْم إليهم الخُيول، وخَدَعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله إذ مَددْتم على نساءكم السُّجوف، وأبرزتم زَوْجته للحُتوف، ومُقارعة السُيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً، فلم يُنْجه ذلك أن طحَنه أبو الحُسَين بكَلْكَله طحْن الحَصِيد بأيدي العبيد، وأما أنت، فأفلتَّ بعد أن خَمَشْتك بَراثنُه ونالتك مخالبّه. وايم الله، ليقومنك بنو عبد مَناف بثقافها أو لتصيحنّ منها صِيَاح أبيك بوادي السّباع، وما كان أبوك المرهوبَ جانبُه، ولكنه كما قال الشاعر:

أكيلة سِرْحانٍ فَرِيسة ضَيْغم ::: فَقَضقَضه بالكَفّ منه وحَطّمَا

نازع مَرْوانُ بن الحَكَم يوماً ابنِ الزُّبير عند معاوية، فكان معاوية مع مروان، فقال ابن الزبير: يا معاوية: إنّ لك حقا وطاعة، وإنّ لك صِلَة وحُرْمة، فأطِعْ اللـه نُطِعْك، فإنّه لا طاعة لك علينا إنْ لم تُطِع اللهّ، ولا تُطْرِق إطْراق الأفعوان في أصول السَّخْبر. وقال مُعاويةُ يوماً وعنده ابنُ الزُّبير، وذُكر له مروان فقال: إنْ يَطْلب هذا الأمرَ فقد يَطمع فيه مَن هو دُونه، وإنْ يتركه يتركه لمن هو فوقه، وما أراكم بمنتَهين حتى يَبْعَثَ اللهّ عليكم من لا تَعْطِفه قرابة، ولا تردّه مَودة، يَسُومكم خَسْفا، ويُوردكم تلفا. قال ابنُ الزبير: إذاً واللـه نُطلق عِقال الحَرْب بكتائب تمور كرجْل الجَراد، حافاتها الأسَل، لها دوي كدويّ الرِّيح، تَتْبع طريفا من قُريش، لم تكن أمّه براعية ثَلَّة قال مُعاوية: أنا ابنَ هِنْد، أطلقتُ عِقال الحرب، وأكلت ذِرْوة السنام، وشربتُ عُنفوان المَكْرع، وليس للآكل بعدي إلا الفِلْذة، ولا للشارب إلا الرنْق [١].

مجاوبة الحسن بن علي لمعاوية وأصحابه:

وفد الحسنُ بن عليّ على مُعاوية، فقال عمرو لمعاوية: يا أميرَ المؤمنين: إنّ الحسن لفَةٌ [٢]، فلو حَمَلْتَه على المِنْبر فتكلَّم وسَمِع الناسُ كلامَه عابُوه وسَقط من عُيونهم، فَفَعل. فَصَعِد المِنبر وتكلَّم وأحسن، ثم قال: أيها الناس، لو طَلَبتم ابناً لنبيِّكم ما بين لابَتَيْها لم تجدوه غَيْري وغير أخي، وإنْ أدْري لعلّه فِتنة لكم ومَتاع إلى حين. فساء ذلك عَمْراً وأراد أن يَقْطع كلامَه، فقال له: أبا محمد، أتَصِف الرُّطب؟ فقال: أجل، تُلحقه الشَّمال، وتُخرجه الجَنوب. وتُنْضجه الشَّمس، ويَصْبغه القمر. قال: أبا محمد، هل تَنْعت الخِراءة؟ قال:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٦٥.
(٢) من الفهاهة وهو عدم إستقامة الكلام.

نعم، تُبعد المَشي في الأرض الصَّحْصح حتى تتَوارى من القوم، ولا تَسْتقبل القِبْلة ولا تَستدبرها، ولا تَسْتنج بالقُمامة والرِّمّة - يريد الرّوْث والعَظْم - ولا تَبُلْ في الماء الرّاكد (١).

قد كنتُ أخبرتكم فأبيتم حتى سمِعتم ما أظلم عليكم بيْتكم:

بينما مُعاوية بن أبي سُفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالباب؟ فقال معاوية: إنْ دخل أفْسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحَكَم: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جَواب؛ قال مُعاوية: لا تَفعل، فإنهم قوْم قد. أُلهموا الكلامَ، وأذن له. فلما دَخل وجَلس، قال له مَرْوان: أسرْع الشيبُ إلى شاربك يا حسن، ويُقال إن ذلك من الخُرْق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنّا - معشر بني هاشمٍ - أفواهُنا عَذْبةٌ شِفَاهُها، فنساؤنا يُقبِلن علينا بأنفاسهنّ وقُبَلِهن، وأنتم معشرَ بني أمية فيكم بَخَر شديد، فنساؤكم يَصرفن أفواههنّ وأنفاسهن عنكم إلى أصْداغكم، فإنما يَشِيب منكم موضعُ العِذار من أجل ذلك. قال مَروان: إن فيكم يا بني هاشم خَصْلة سَوء؟ قال: وما هي؟ قال: الغُلْمة؟ (٢) قال: أجل، نُزعت الغُلْمة مِن نسائنا ووُضعت في رجالنا، ونُزعت الغُلْمة من رجالكم ووُضعت في نِسَائكم، فما قام لأموية إلاّ هاشميّ. فغضِب مُعاوية، وقال: قد كنتُ أخبرتكم فأبيتم حتى سَمِعتم ما أظلم عليكم بَيْتَكم، وأفسد عليكم مَجْلِسكم. فَخَرج الحسنُ وهو يقول:

ومارستُ هذا الدَهرَ خمسين حِجَّةً ::: وخَمْساً أزَجِّي، قائلا بعد قائل
فلا أنا في الدُّنيا بلغتُ جَسِيمها ::: ولا في الذي أهْوَى كدحتُ بطائل

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٦٧.
(٢) الغُلْمة - شَهْوة النّكاح من الرجال والنّساء.

وقد شرَعت دوني المَنايــا أكُفّهــا ::: وأيقنتُ أنّي رَهْنَ مَوْتٍ مُعاجل[1]

ما أعجبُ الأشياء! :

قال مُعاوية يوماً وعنده الضَّحاك بن قيس وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص: ما أعجبُ الأشياء؟ قال الضحّاك بن قيس: إكْداء العاقل وإجْداء الجاهل. وقالت سعيدُ بن العاص: أعجبُ الأشياء ما لم يُرَ مثلهُ. وقالت عمرو بن العاص: أعجب الأشياء غَلبة مَن لا حقَّ له ذا الحقِّ على حقّه. فقال معاوية: أعجب مِن هذا أن تعْطِي مَن لاحقَّ له ما ليس له بحق من غير غَلبة.

ما أحوج أهلَك إليك، فلا تَفْجعهم بنفسك:

حضر قوم من قُريش مجلسَ مُعاوية، فيهم عمرو بن العاص وعبدُ الله بن صفْوان بن أمية وعبدُ الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال عمرو: أحمد الله يا مَعْشرَ قُريش إذ جعل أمرَكم إلى من يُغْضي على القذَى، ويتصامُ عن العَوْراء، ويجرّ ذيلَه على الخَدائع. قال عبدُ الله: لو لم يكن كذلك لمَشينا إليه الضرَاء، ودَبنا إليه الخَمر، ورَجونا أن يقوم بأمرنا من لا يُطْعمك مالَ مصر. قال معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تُنْصفون من أنفسكم؛ قال عبدُ الرحمن بن الحارث: إن عمراً أفسدك علينا وأفسدنا عليك، ولو أغضبتك هذه. قال: إن عمراً لي ناصح؛ قال عبدُ الرحمن: فأطْعمنا مثلَ ما أطعمته، وخُذْنا بمثل نَصِيحته؛ إنا رأيناك يا مُعاوية تَضْرب عوامَّ قُريش بأياديك في خَواصها، كأنك ترى أن بكرامها قُوّتك دون لئامها، وإنك واللهّ لتُفْرغ في إناء فَعْم من إناء ضخم، وكأنك بالحرب قد حَلَّ عِقالَها عليك مَن لا ينْظُرك قال مُعاوية: يا بن أخي، ما أحوج أهلَك إليك، فلا تَفْجعهم بنفسك، ثم أنشد:

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٦٩.

أغَرّ رجالاً مـــن قُـــريش تَتـــايَعوا ::: على سَفه منّـــي الحَيـــا والتَّكـــرُّمُ

تُنازعني هذا الأمرَ كأنك أحقُّ به منّي!

وقال مُعاوية لابن الزُّبير: تُنازعني هذا الأمرَ كأنك أحقُّ به منّي! قال: لمَ لا أكون أحقَّ به منك يا مُعاوية، وقد اتبع أبي رسول الله على الإيمان، واتبع الناسُ أباك على الكُفر؛ قال له مُعاوية: غَلِطت يا بن الزُّبير، بعث الله ابنَ عمّي نبيّا، فدعا أباك فأجابه، فما أنت إلا تابع لي، ضالاً كنتُ أو مَهديًّا.

يأهل الشام، هؤلاءِ قومي وهذا كلامهم:

قال العُتبيّ: دعا مُعاويةُ مَروان بن الحكم، فقال له: أشِر عليّ في الحُسين؛ قال: تخرجه معك إلى الشام فتَقطعه عن أهل العراق وتَقطعهم عنه؛ قال: أردتَ والله أن تستريح منه وتَبْتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأتُ إليه كُنتُ قد قطعتُ رحمه. فأقامه، وبعث إلى سعيد ابن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشِرْ عليّ في الحُسين؟ قال: إنك والله ما تخاف الحسين إلا على مَن بعدك، وإنك لتُخلّف له قِرْنا إنْ صارعه لَيَصْرعنّه، هانْ سابقه لَيَسبقنّه، فذَرِ الحُسين منبتَ النّخلة، يشربْ من الماء، ويَصْعد في الهواء، ولا يَبْلغ إلى السماء؛ قال: فما غَيّبك عنّي يوم صِفّين؟ قال: تَحملتُ الحُرم، وكُفيتَ الحَزْم، وكنتُ قريباً، لو دعوتَنا لأجبناك، ولو أمرت لأطعناك؛ قال معاوية: يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم [1].

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٦٩.

وما جَعل اللهّ صالحاً مُصلِحا كفاسد مَفْسِد :

لما أخرج أهلُ المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، وكان واليهم بعد الوليد بن عُتبة هو الذي، أمر أهل المدينة بإخراجي، فأرْسِلْ إليه وتوثّقه. فأرْسل إليه مُعاوية، فلما دَخل عليه، قال له عمرو: أوليد، أنت أمرتَ بإخراجي؟ قال: لا، ورَحِمك أبا أمية، ولا أمرتُ أهلَ الكوفة بإخراج أبيك، بل كيف أطاعني أهلُ المدينة فيك إلا أن تكون عَصيتَ اللهّ فيهم، إنك لتَحُلَّ عُرَى مُلك شَديدةً عُقدتها، وتُمْري أخلاف فِيقة سريعة دِرّتها، وما جَعل اللهّ صالحاً مُصلِحا كفاسد مَفْسِد.

ما كان أهونَك على أهلك إذ سَمٍّوْك مُعاوية! :

قال مُعاوية لجارية بن قُدَامة: ما كان أهْونَك على أهْلِك إذ سَمَّوْك جارية!

قال: ما كان أهونَك على أهلك إذ سَمٍّوْك مُعاوية! وهي الأنثى من الكلاب، قال: لا أمَّ لك! قال: أمِّي وَلَدتْنِي للضيوف التي لَقِيناكَ بها في أيْدِينا؛ قال: إنك لتُهَدِّدني؛ قال: إنك لم تَفْتَتِحْنا قَسْراً، ولم تَمْلِكنا عَنْوةً، ولكنّك أعْطيتنا عَهْدًا وَمِيثاقاً، وأعطيناك سَمْعاً وطاعةً، فإن وَفَّيت لنا وفَّينا لك، وإن فَزعْت إلى غير ذلك، فإنّا تَركنا وراءَنا رجالاً شِدَادًا، وألسِنَةً حِدَادًا قال له مُعاوية: لا كَثّر اللّه في النَاس أمثالك؛ قال جارية: قُلْ مَعْرُوفاً ورَاعِنا، فإنّ شَرَّ الدَّعاء المُحْتَطب.

فأنّي أفعَل:

عَدَد مُعاوية بنُ أبي سُفيان على الأحنف ذُنوباً، فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تَرُدّ الأمورَ عَلى أعقابها، أمَا واللّه إنّ القُلوبِ التي أبغضناك بها لَبيْن جَوانحنا، والسُّيوفَ التي قاتلناك بها لعلى عَواتقنا، ولئن مَدَدْت فِتْراً من غَدْر لَنُمدَنَ باعاً من خَتْر، ولئن شئت لتَسْتَصْفِيَنَّ

كَدَر قلوبنا بصَفو حِلمك، قال: فإنّي أفعَل.

اجعلها في كتابك فأنها حكْمة:

قال مُعاويةُ لعديّ بن حاتم: ما فَعلتْ الطّرَفات يا أبا طَريف؟ - يعني أولادَه - قال: قُتلوا؟ قال: ما أنصفك ابنُ أبي طالب إذ قُتل بَنُوك معه وبَقي له بَنُوه؛ قال: لئن كان ذلك لقد قُتل هو وبَقيتُ أنا بعده؛ قال له معاوية: ألم تَزْعم أنه لا يُخْنَق في قتْل عثمان عَنْز؛ قد واللهّ خُنِق فيه التَيس الأكبر. ثم قال معاوية: أمَا إنه قد بقيتْ من دَمه قطْرة ولا بد أن أتْبعها؛ قال عديّ: لا أبا لك! شِمِ السيفَ، فإنّ سَلَّ السيفِ يَسُل السيفِ. فالتفت مُعاوية إلى حَبيب بن مسلمة، فقال: اجعلها في كتابك فإنها حِكْمة.

إذن نُعْفيك يا أبا بحْر:

عن أبي الحُبَاب الكِنْدِيّ عن أبيه: أن معاوية بن أبي سُفْيان بينما هو جالس وعنده وُجوه الناس إذ دَخل رجل من أهل الشام، فقام خَطيباً، فكان آخرَ كلامه أن لعن عليًّا، فأطرق الناسُ وتكلّم الأحنف، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ هذا القائل ما قال آنفا لو يعلم أنّ رِضَاك في لَعْن المُرْسَلين للعنهم، فاتَّق اللّه ودَعْ عنك عليًّا، فقد لَقي ربّه، وأفْرِد في قبْره، وخلاً بعمله، وكان واللّه - ما علمنا - المُبَرِّزَ بسَبْقه، الطاهرَ خُلقه، المَيْمونَ نقيبتُه، العظيمَ مُصيبتُه؛ فقال له مُعاوية: يا أحنف، لقد أغضيتَ العينَ عَلَى القذَى، وقلت بغير ما ترى، وايم اللّه لتَصْعدنَ المِنْبر فلتَلعنَّه طوْعَا أو كَرْهًا، فقال له الأحْنف: يا أميرَ المؤمنين، إن تُعْفِني فهو خيرٌ لك، وإنْ تَجْبُرْني على ذلك فواللهّ لا تَجْري به شَفتاي أبداً؛ قال: قُمْ فاصْعَد المِنْبَر؛ قال الأحنف: أمَا واللهّ مع ذلك لأنْصِفنَك في القوْل والفِعْل، قال: وما أنت قائل يا أحنف إن أنصَفتني؛ قال: أصعدُ المِنبَر فاحمد اللّه بما هو أهلُه، وأصلّى على

نبيّه ، ثم أقوله: أيها الناس، إنَّ أميرَ المؤمنين مُعاوية أمَرني أنْ ألعن عليًّا، إن عليًّا ومُعاوية اختلفا فاقتَتلا، وأدَّى كلُّ واحد منهما أنه بُغِي عليه وعَلى فئتِه، فإذا دعوتُ فأمِّنوا رَحمكم الله، ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك وجميعُ خلقك الباغيَ منهما عَلى صاحبه، وألعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً، أمِّنوا رحمكم الله؛ يا مُعاوية، لا أزيد على هذا ولا أنْقص منه حَرْفاً ولو كان فيه ذَهابُ نفسي. فقال معاوية: إذن نُعْفِيك يا أبا بَحْر [1].

والكلام إلى نية المُتكلِم:

وقال مُعاوية لِعَقيل بن أبي طالب: إن عليا قد قطعك ووصلتُك، ولا يُرْضِيني منك إلا أن تلْعنه عَلى المِنْبر؟ قال: أفْعل. فإصْعد فصَعِد، ثم قال بعد أن حَمِد اللّه وأثنى عليه: أيها الناس، إن أميرَ المُؤمنين مُعاوية أمرني أنْ ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل. فقال له مُعاوية: إنك لم تُبين أبا يزيد مَن لعنتَ بيني وبينه؟ قال: والله لا زدتُ حَرفاً ولا نَقصت آخر، والكلام إلى نية المُتكلِّم.

وفي حَياتي ما زَوَّدْتني زاداً:

قال مُعاوية لأبي الطُّفيل: كيف وَجْدُك على عليّ؟ قال: وَجدُ ثمانين مُثْكِلا؛ قال: فكيف حُبُّك له؟ قال: حَبّ أم موسى، وإلى اللّه أشْكو التَقصير. وقال له مرة أخرى: أبا الطفَيل؟ قال: نعم؟ قال: أنت من قتلة عُثمان؟ قال: لا، ولكنّي ممن حَضره ولم يَنْصُره؟ قال وما مَنعك مِن نَصْره؟ قال: لم يَنْصُره المُهاجرن والأنصار فلم أنصُره؟ قال: لقد كان حَقُّه واجباً، وكان عليهم أن يَنْصروه؟ قال: فما منعك

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٧٢.

مِن نُصْرته يا أمير المؤمنين وأنت ابنُ عمّه؟ قال: أو مَا طلبي بدمه نصره له؟ فضحك أبو الطفيل وقالَ: مَثَلك ومَثَلُ عثمان كما قال الشاعر:

لأعرفنّك بعد المَوْتِ تَنْدُبني ::: وفي حَياتي ما زَوَّدْتني زادَا

أبعد الأرض لا إلى أقربها:

صَعِد معاويةٌ المِنْبر فوَجد مِن نفسه رقة، فقال بعد أن حَمِد اللّه وأثنى عليه: أيها الناسُ: إنَ عُمَر ولأني أمراً مِن أمره، فوالله ما غَشَشْتُه ولا خُنْتُه، ثم ولاني الأمر مَن بعده ولم يجعل بيني وبينه أحداً، فأحسنتُ والله وأسأتُ، وأصبتُ وأخطأت، فمن كان يَجْهلني فإني أعرفه بنفسي. فقام إليه سَلمة بن الخطل العَرجي، فقال: أنصفتَ يا مُعاوية، وما كُنتَ مُنْصفاً. قال: فغضب مُعاوية، وقال: ما أنتَ وذاك يا أحْدب! واللّه لكأنّي انظر إلى بيتك بمهيعة، وبطُنْب تَيْس، وبطُنْب بهْمة. بفنائه أعنِز عَشرْ، يُحْتلبن في مثل قوّارة حافر العِيْر، تَهْفو الرحُ منه بجانب، كأنه جناح نسْر. قال: رأيت والله ذاك، في شَرّ زماننا إلينا، واللّه إن حَشْوه يومئذ لحسب غير دَنِس، فهل رأيتني يا معاوية أكلتُ مالاً حراماً أو قتلتُ امرأ مًسلماً؟ قال: وأين كنتُ أراك وأنت لا تَدِبّ إلا في خَمرَ، وأي مُسلم يَعْجِز عنك فتَقْتله؛ أم في مال تَقوى عليه فتأكله؟ اجلس لا جلستَ؟ قال: بل اذهب حتى لا تَراني؛ قال: إلى أبعد الأرض لا إلى أقربها، فمضى. ثم قال مُعاوية: رُدّوه عليّ، فقال الناس: يعاقبه؛ فقال له أستغفر اللّه منك يا أحدب، واللهّ لقد بَرَرْتَ في قرابتك، وأسلمتَ فَحَسُن إسلامُك، وإنّ أباك لسيد قومه، ولا أبرح أقول بما تُحب، فاقعُد [1].

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٤٧٣.

قالوا عن معاوية :

ذكر عمرو بنُ العاص معاوية فقال: احذروا قرْم قريش وابنَ كريمها، مَن يضحك عند الغضب، ولا ينام إلا على الرِّضا، ويَتناول ما فوقه من تحته. سُئل عبد الله بن عبَّاس عن معاوية، فقال: سَما بشيء أسرة، واستظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسرَّ بما أعلن فنالَه. كان حِلمه قاهراً لغَضبه، وجُوده غالباً على مَنْعه، يصل ولا يَقطع، ويجمع ولا يفرِّق، فاستقام له أمره، وجرى إلى مُدَّته. قيل: فأخبرنا عن ابنه. قال: كان في خير سَبيله، وكان أبوه قد أحكمه، وأمره ونَهاه، فتعلّق بذلك، وسَلك طريقاً مُذللا له. وقال معاوية: لم يكن في الشَّباب شيء إلا كان مني فيه مُستمتع، غير أني لم أكن صُرَعةً ولا نُكَحة ولا سبّاً.

قال الأصمعي: الحب: كثير السباب: ميمون بن مِهرْان قال: كان أوّلَ من جَلس بين الخُطبتين معاويةُ، وأوّلَ من وَضع شرفَ العطاء ألفين معاوية وقال معاوية: لا زلتُ أطمع في الخلافة منذ قال لي رسولُ الله : يا معاوية، إذا ملكتَ فأحْسن.

العُتْبي عن أبيه قال: قال معاوية لقُريش: ألا أخبركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طِرْتم، ولو وافق طَيراني طيرانَكم سَقطنا جميعاً [1].

خيرٌ من أن تكوني امرأة من عُرض الناس:

قدم معاويةُ المدينة بعد عام الجماعة، فدخل دارَ عثمان بن عفّان، فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباها. فقال معاوية: يا ابنة أخي، إنّ الناس أعْطَوْنا طاعةً وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حِلْماً

(١) العقد الفريد، ٢ /٢ - ٣.

تحته غَضب، وأظهروا لنا ذُلّاً تحته حِقد، ومع كل إنسان سيفُه، ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أمْ لنا. لأن تكوني ابنة عمٍّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عُرض الناس (١).

فأن لم تَجدوني خيركم فأنا خيرٌ لكم:

لما قدم معاويةُ المدينة قال: أيها الناس، إنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يُرد الدنيا ولم تُرده، وأما عمر فأرادته ولم يُردها، وأما عثمان فنال منها ونالتْ منه، وأما أنا فمالتْ بي وملتُ بها، وأنا ابنُها، فهي أُمي وأنا ابنُها، فإن لم تَجدوني خيركم فأنا خيرٌ لكم. ثم نزل.

أفكنتَ تراه يَصبر على شَتْم عليّ!:

قال جُويرية بن أسماء. نال بُسْرُ بن أرطأة مِن عليّ بن أبي طالب عند معاوية، وزيدُ بن عمر بن الخطاب جالس، فعلا بُسْراً ضرباً حتى شَجّه. فقال معاويةُ: يا زيد، عمدتَ إلى شيخ قُريش وسيّد أهل الشام فضربتَه! وأقبل على بُسْر وقال: تَشتم عليا وهو جدُه وأبوه الفاروق على رؤوس الناس! أفكنتَ تراه يَصبر على شَتْم عليّ! وكانت أمَ زيد أمُ كُلثوم بنت علي بن أبي طالب.

ولا أمرك به ولا أنهاك عنه:

عن العتبي: أن عمر بن الخطاب قدِم الشام على حِمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حِمار، فتلقاهما معاويةُ في موكب نبيل، فجاوز عمرَ حتى أُخبر فرجع إليه، فلما قرُب منه نزل، فأعرض عنه عمر، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبدُ الرحمن بن عوف: أتعبتَ الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحبُ

(١) العقد الفريد، ٢ /٢ - ١١٦.

الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقُوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟ قال: لأنا في بلاد لا يُمتنع فيها من جواسيس العدوِّ، فلا بُدّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتَني بذلك أقمتُ عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت. قال: لئن كان الذي قلتَ حقاً فإنه رأيُ أريب، ولئن كان باطلًا فإنها خُدعة أحب، ولا أمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبدُ الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردتَه فيه. قال: لحسن مَصادرهِ وموارده جشّمناه ما جشمناه.

وإنك لمارج من مارج من نار:

ودخل صعصعة بن صُوحان على مُعاوية ومعه عمرو بن العاص جالسٌ على سريره، فقال: وَسِّع له على تُرابيّة فيه. فقال صعصعةٌ: إني والله لتُرابيّ، منه خُلقت، وإليه أعود، ومنه أبعث، وإنك لمارج من مارج من نار.

فيالك مِن جامع إلي ومُفرق عنه!:

العُتبي عن أبيه، قال قال معاويةٌ لعمرو بن العاص: ما أعجبُ الأشياء؟ قال غَلبة مَن لا حقَّ له ذا الحقّ على حقه. قال معاوية: أعجبُ من ذلك أن يُعطى من لا حق له ما ليس له بحق من غير غَلبة. وقال معاويةٌ: أُعنت على عليّ بأربعة، كنت أكتم سري وكان رجلاً يُظهره، وكنتُ في أصلح جند وأطوعه وكان في أخْبَث جُند وأعْصاه، وتركتُه وأصحابَ الجمل وقلتُ: إن ظَفروا به كانوا أهونَ علي منه، وإن ظَفِر بهم اغتر بها في دِينه، وكنتُ أحب إلى قُريش منه. فيالك مِن جامع إلي ومُفرق عنه! [١].

(١) العقد الفريد، ٢ /١٢٧.

ما لم يحولوا بينـنا وبـين مُلكنا :

يروى أن معاوية بن أبي سفيان كان أكثر الناس حِلماً، وأوسعهم عفواً، وأشدهم إغضاءً عمن نابذه، وأحسنهم احتمالاً لمن عازّه وعانده.

فمن ذلك أن رجلاً أغلظ له في الكلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتحلم عن هذا وقد قال ما قال؟ قال معاوية: ما كنت لأحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا.

أسألك أن تدخلني الجنة:

ويروى من غير وجه أن معاوية قال لجلسائه: أشتهي أن أرى رجلاً قد لقي الناس، وسمع الأعاجيب، ورأى من كان قبلنا يحدثنا عن زمانه، وأين زماننا مما مر عليه. فقيل له: ذاك رجلٌ بحضرموت، فأُتي به، فأقبل عليه فقال له: ما اسمك؟ قال: أمد، قال: ابنُ من؟ قال: ابن أبد، قال: كم أتى عليك من السن؟ قال: ثلاثمائة وستون سنة، قال: كذبت، وتشاغل عنه بغيره. ثم أقبل عليه فقال له: ما اسمك؟ قال: أمد، قال: ابنُ من؟ قال: ابن أبد، قال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: ثلاثمائة وستون سنة، قال: فحدثنا عما رأيت من الأزمنة؛ أين زماننا منها؟ قال: وكيف تسأل رجلاً يكذب؟ قال: أحببت أن أعرف مقدار عقلك، قال: يومٌ شبيه بيوم، وليلة شبيهة بليلة، ولدٌ مولود، ووالدٌ مفقود، فلولا من يولد لم يبق على ظهرها أحد، ولولا من يموت لم يسعهم بلد، قال: ما كانت صناعتك؟ قال: كنت تاجراً. قال: فما بلغتَ في تجارتك؟ قال: كنت لا أشتري غَبَناً، ولا أرد ريحاً، قال: سلني حاجتك، قال: أسألك أن تدخلني الجنة، قال: ليس ذلك إلي، قال: فأسألك أن ترد إلي شبابي، قال: ولا ذاك إلي. قال: فلستُ أرى بيدك شيئاً من أمور الدنيا والآخرة، قال: هو

والله ذاك، قال: فارددني من حيث جئت، ففعل به ذلك.

نميل إذا نميل على أبينا:

ويروى أن أبا الجهم الأموي قال: لقد بتُّ ليلة بأسرها قلقاً أفكر في حلم معاوية فيذهب عني وَسَني، قال: وغدوت عليه وأنا مُجمِع لقاءه بما أرجو أن يطيِّشه، فدخلت عليه، وقد كان عنده رجل أغضبه بأشياءَ لقيه بها، فقلت في نفسي: ظفرت به؛ فسلّمتُ عليه، فردّ عليّ جواباً ضعيفاً، فقلت: يا بن هند، أبلغَ بك الأمر إلى أن أسلّم عليك فترد عليّ مثل هذا الرد! والله لقد رأيت أمك وهي شابة ناهد، وأنا إذ ذاك أطلب الفجور، فعرضتْ عليّ نفسها فأبيتُها، فقال: يا أبا الجهم، أما أنك لو نكحتَها لنكحت حَصاناً كريمة، ولكنت أهلاً لها. قال أبو الجهم: فوقعتُ على رجليه أقبلهما، وأقول:

نقلّبه لنَخْبُرَ حالتيه ::: فيكشِف عنهما كرماً ولينا
نميل على جوانبه كأنّا ::: نميل إذا نميل على أبينا

فقام معاوية فدخل إلى حجرة له فدعا بأبي الجهم فقال له: يا أبا الجهم، إياك وإغضاب الملوك، فإن لهم غضباً كغضب الصبيان، وبطشاً كبطش الأسد. يا غلام، أعطه ثلاثين ألف درهم، وليحملها معه ثلاثة من العبيد، فخرج من بين يديه ومعه تلك الصلة.

فوالله لأنت أنذل أهل الشام:

ويروى أنه لما ورد عليه خبر علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه صعد المنبر فقال: الحمد لله الذي أدالنا من عدونا، ورد إلينا من زماننا، فقام إليه رجل من أهل الشام، فقال: ما ذاك من كرامتك على الله يا معاوية، فقال له عمرو بن العاص: اسكت يا جاهل، فوالله لأنت أنذل أهل الشام وأقطعهم عن الكلام، فتمثل معاوية:

إني أرى الحلم محموداً مغبّته ::: والجهل أفنى من الأقوام أقواما

لقد حالت القدرة بيني وبين أولي التِّرات:

ونظر يوماً إلى يزيد ابنه يضرب غلاماً له، فقال: يا يزيد، أتضرب من لا يمتنع منك! والله لقد حالت القدرة بيني وبين أولي التِّرات.

أأنت صاحبُنا يوم صِفِّين:

ويروى أن معاوية قال له: يا أحنف، أأنت صاحبُنا يوم صِفّين، والمخذول عن أمير المؤمنين؟ فقال الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها يومئذٍ لفي صدورنا، وإن سيوفنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن دنوت إلينا شبراً من خير لندنونّ إليك ذراعاً من عُذر، ولئن شئت ليصفونّ لك ودّنا بفضل حلمك عنا. قال: قد شئتُ.

لا جرَم! لأقاسمنه الجائزة:

وروى زبير عن رجاله قال: دخلت على معاوية مَوْجِدةٌ على يزيد، فأرِقَ لذلك ليلته، فلما أصبح بعث إلى الأحنف فقال له: كيف رضاك عن ولدك؟ - أو ما تقول في الولد؟ - قال الأحنف: فقلتُ في نفسي: ما سألني أمير المؤمنين عن هذا إلا لمَوجِدةٍ دخلته على يزيد، فحضرني كلام لو كنت روّأتُ فيه سنةً كنتُ قد أجدتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين: هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول ونصل إلى كل حيلة، فإن سألوك فأعطِهم، وإن غضبوا فأرضِهم، يُمحِضوك ودَّهم، ويُلطِفوك جهدَهم، ولا تكن عليهم قُفلاً لا تعطيهم إلا نزراً فيملّوا حياتك ويكرهوا قربَك. فقال: لله در الأحنف! لقد دخلتَ عليّ وإني لمن أشد الناس مَوجِدة على يزيد، فلقد سَللتَ سَخيمة قلبي؛ يا غلام، اذهب إلى يزيد فقل له:

إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسِل من يقبض مالك، فأتاه الرسول فأعلمه، فقال: من كان عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف؛ فقال: لا جرَم! لأقاسمنه الجائزة، فوجّه برسول يأتيه بالمال ورسولٍ يأتيه بالأحنف. فقال: يا أبا بحر: كيف كان رضا أمير المؤمنين؟ فأخبره: فقاسمه الجائزة، وأمر له بمائة ألف ومائة ثوب.

ما حال عمِّك أبي لهب!

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية - وكان من أحضر الناس جواباً - فقال له معاوية: يا عَقيل، ما حال عمِّك أبي لهب؟ وأين مكانه من النار؟ فقال: إذا أنتَ دخلتَها فخذ على يسارك؛ فستجده مفترشاً عمّتكَ حمّالة الحطب؛ فأطرق معاوية.

ويروى أنه قال له يوماً: أيّما خير لك: أنا أم علي؟ فقال: ذاك خيرٌ لديني، وأنت خيرٌ لدنياي. وكان يُسبغ جائزته إذا وفد عليه.

والله جارُك مما يُزمع النضَرُ:

وحدثني الرياشي قال: يروى أن عثمان بن عَنبسة بن أبي سفيان أسرّ إلى معاوية سرّاً، فأتى أباه عنبسة فقال: إن معاوية أسرّ إلي سراً، فأحدثك به؟ قال: لا، قال: ولمَ؟ قال: لأن الرجل إذا كتم سرّه كان الأمر إليه، وإذا أذاعه فالأمر عليه، ولا تجعلن نفسك مملوكاً بعد أن كنت حرّاً، قال: أفيدخل هذا بين الأب وابنه؟ قال: لا يا بنيّ، ولكن أكره أن تذلّل لسانك بإفشاء السر، قال فأتى معاوية فذكر ذلك له، فقال: أعتقك أخي من رقّ الخطأ، وأنشد:

دسّت إليّ رسولاً لا تكن عَجِلاً ::: واحذر هُديتَ وأمرُ الحازمِ الحذَرُ
إني رأيت رجالاً من ذوي رَحِم ::: هم العدوّ بظهر الغيب قد نذَروا

إن يقتلوك كفاك القتل قادرُه ::: والله جارُك مما يُزمع النفَرُ
فالسرّ يكتمه الخِلانِ بينهما ::: وكلّ سرّ عدا الخِلّين منتشِرُ [1]

ذو الوجهين خليقٌ ألا يكون عند الله وجيهاً:

وروي أن معاوية بن سفيان لما نصب يزيد لولاية العهد أقعده في قبةٍ حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجلٌ فعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها - والأحنف جالسٌ - فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر! فقال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً! وأمر له بألوفٍ، فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إني لأعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع باستخراجها إلا بما سمعت، فقال الأحنف: يا هذا أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليقٌ ألا يكون عند الله وجيهاً [2].

والله لقد بايعتك وأنا كاره:

وقال رجل لمعاوية: والله لقد بايعتك وأنا كاره، فقال معاوية: قد جعل الله في الكره خيراً كثيراً.

وقوله:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ::: على نائبات الدهر حين تنوب

نظيره قول كثير:

أقول لها يا عز كل مصيبةٍ ::: إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

---

(١) المبرد، الفاضل، ص ٢٢، ٢٦، ٣١، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١.
(٢) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ١ /٤٤.

هذا جزاء من عجل :

وشهد أعرابي عند معاوية بشيء كرهه، فقال له معاوية: كذبت فقال الأعرابي: الكاذب والله متزمل في ثيابك. فقال معاوية وتبسم: هذا جزاء من عجل [١].

ما ندري، أنخدع الناس أم يخدعوننا ؟! :

ويروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية في يوم بويع له على عهده، فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه: " يا أمير المؤمنين، والله ما ندري، أنخدع الناس أم يخدعوننا " ! فقال له معاوية: " كل من أردت خديعته فتخادع لك حتّى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته " ! [٢].

ما رأيت رجلاً أحقرَ أولاً ولا أجل آخراً منه:

ودخل النخارُ العذري على معاوية في عباءةٍ؛ فاحتقره معاويةُ، فرأى ذلك النخار في وجهه، فقال له: يا أمير المؤمنين، ليست العباءة تكلمك، إنما يكلمك من فيها. ثم تكلم فملأ سمعه، ثم نهض ولم يسأله، فقال معاوية: ما رأيت رجلاً أحقرَ أولاً ولا أجل آخراً منه[٣].

فأن كل كريمٍ طروبٌ :

وحدثت أن معاوية قال لعمرو: امض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته، حتى ننعى عليه، أي نعيب عليه فعله - يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالبٍ - فدخلا إليه، وعنده سائبُ خاثر، وهو يلقي على جوارٍ لعبدِ الله، فأمر عبد الله بتنحية الجواري لدخول معاوية، وثبت سائبُ مكانه، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية، فرفع معاويةُ عمراً فأجلسه إلى جانبه، ثم قال لعبد الله: أعد

(١) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ١ /٢٨٠.
(٢) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /٨٣.
(٣) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١٢٥.

ما كنت فيه، فأمر بالكراسي فالقيت، وأخرج الجواري، فتغنى سائبٌ بقول قيس بن الخطيم:

ديارُ التي كادت ونحن على منى ::: تحل بنا لولا نجاء الركائبِ
ومثلك قد اصبتُ ليست بكنةٍ ::: ولا جارةٍ ولا حليلة صائبَ

وردده الجواري عليه، فحرك معاويةٌ يديه وتحرك في مجلسه، ثم مد رجليه، فجعل يضرب بهما وجه السرير. فقال له عمروٌ: اتئد يا أمير المؤمنين، فإن الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة. فقال معاوية: اسكت لا أبا لك! فإن كل كريمٍ طروبٌ [١].

فحسبك ما سمعت :

وتزعم الرواة أن رجلاً من أهل الكتاب وفد على معاوية، وكان موصوفاً بقراءة الكتب، فقال له معاوية: أتجد نعتي في شيء من كتب الله؟ قال: إي والله، لو كنت في أمة لوضعت يدي عليك من بينهم. قال: فكيف تجدني؟ قال: أجدك أول من يحول الخلافة ملكاً، والخشنة ليناً، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، قال معاوية: فسري عني، ثم قال: لا تقبل هذا مني، ولكن من نفسك، فاجتب [٢] هذا الخبر. قال: ثم يكون ماذا؟ قال: ثم يكون منك رجل شراب للخمر، سفاك للدماء، يحتجن الأموال[٣]، ويصطنع الرجال، ويجنب[٤] الخيول، ويبيح حرمة الرسول[٥]، قال: ثم ماذا؟ قال: ثم تكون فتنة[٦]

(١) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١٩٢.
(٢) فاختبر، ويقال: اجتبيت الخراج اجتباء، أي جمعته.
(٣) احتجن الشئ أخذه وحبسه.
(٤) يجنب الخيل: يقودها إلى ما يركب منها اختيالا وعجبا بها.
(٥) ذلك ما كان من قتل الحسين ومن معه من فتيان بني هاشم وإهانة آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ".
(٦) هي الفتنة التي وقعت بعد موت معاوية بن يزيدةبن معاوية، وافتراق الناس فرقتين، فريق يدعو إلى ابن الزبير. وفريق يدعو إلى بني أمية.

تتشعب بأقوام حتى يفضي الأمر بها إلى رجل أعرف نعته[1]، يبيع الآخرة الدائمة بحظ من الدنيا مخسوس، فيجتمع عليه من آلك وليس منك، لا يزال لعدوه قاهراً، وعلى من ناوأه[2] ظاهراً، ويكون له قرين[3] مبير[4] لعين قال: أفتعرفه إن رأيته؟ قال: شد ما. فأراه من بالشام من بني أمية، فقال: ما أراه ههنا، فوجه به إلى المدينة مع ثقات من رسله، فإذا عبد الملك بن مروان يسعى مؤتزراً في يده طائر، فقال للرسل: ها هو ذا! ثم صاح به: إلي أبو من؟ قال: أبو الوليد، قال: يا أبا الوليد، إن بشرتك ببشارة تسرك ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السرور حتى نعلم مقدارها من الجعل؟ قال: أن تملك الأرض، قال: ما لي من مال، ولكن أرأيت إن تكلفت لك جعلاً، أأنال ذلك قبل وقته؟ قال: لا، قال: فإن حرمتك، أتؤخره عن وقته؟ قال: لا، قال فحسبك ما سمعت.

فذكروا أن معاوية كان يكرم عبد الملك ليجعلها يداً عنده يجازيه بها في مخلفته في وقته [5].

وسيفي صارم ومعي لساني:

دخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما لله شريك، وإن أباك الأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك لمعاوية: فما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وإنك لابن

(١) يريد به عبد الملك بن مروان: ولم يذكر معاوية بن يزيد ولا مروان لقصر مدتهما ".
(٢) ناوأه: عاداه.
(٣) يريد به الحجاج بن يوسف.
(٤) مبير: مهلك.
(٥) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ٣ /١٧٢.

حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة فصغرت فكيف صرت علينا أمير المؤمنين؟ ثم خرج من عنده، وهو يقول شعراً:

أيشـــتمني معاويـــة بـــن حـــرب ::: وسيفي صـــارم ومعـــي لســـاني
وحولي من بـــني عمـــي ليـــوث ::: ضـــراغمة تهـــش إلى الطعـــان

أحسنت يا ابن أبي محجن:

وفد ابن أبي محجن على معاوية فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفني إلى جنـــب كرمـــة ::: يروي عظامي الباليات في الممات عروقها
ولا تـــدفنني في الفـــلاة فـــإنني ::: أخاف إذا ما مـــت أن لا أذوقهـــا

فقال ابن أبي محجن: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مـــالي وكثرتـــه ::: وسائل الناس ما جودي وما خلقي
أعطى الحسام غداة البين حصـــته ::: وعامل الرمح أرويه مـــن العلـــق
وأطعن الطعنة النجلاء عن غرض عرض ::: وأكتم السر فيـــه ضـــربة العنـــق
ويعلم النـــاس أني مـــن ســـراهم ::: إذا أمـــس بضـــر عـــدة الفـــرق

قال معاوية له: أحسنت يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة.

كأن أمه نطحتك!

أكل أعرابي مع معاوية، وجعل يمزق جديا على الخوان تمزيقا عنيفا، ويأكله أكلا ذريعا، فقال له معاوية: إنك تمزقه كأن أمه نطحتك؟ فقال: وإنك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

في شرح النهج لابن أبي الحديد قال: انتبه معاوية فرأى عبد الله بن الزبير جالسا تحت رجليه على سريره، فقعد، فقال له. يداعبه: يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت: فقال: لقد شجعت بعدنا يا

أبا بكر، قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف إزاء علي بن أبي طالب؟ قال: لا جرم أنه قتلك وإياي بيسرى يديه، وبقيت اليمنى فارغة طالبة من يقتله بها (١).

وهل يتركني الدهر أن أنساه!

وروي أن عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا عدي أين الطَّرَفات؟ يعني بنيه طريفاً وطارفاً وطرفة. قال: قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. فقال: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدّم بينك وأخّر بنيه! قال: بل ما أنصفت أنا علياً إذ قُتل وبقيت! قال: صف لي علياً. فقال: إن رأيت أن تعفيني. قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المدى وشديد القوى، يقول عدلاً ويحكم فضلاً، تتفجّر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، يتحبب إلى المساكين، لا يخاف القويّ ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله، فأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سرباله وغارت نجومه ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا أإليّ تعرضت أم إليّ أقبلت؟ غرّي غيري،

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١/ ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٦٤/٢، ٢٧٢.

لا حان حينك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر وقلة الأنيس! قال: فوكفت عينا معاوية ينشّفهما بكمّه ثم قال: يرحم الله أبا الحسن! كان كذا فكيف صبرك عنه؟ قال: كصبر من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقأ دمعتها ولا تسكن عبرتها. قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل يتركني الدهر أن أنساه! وهذا الخبر أتم من خبر ابن عباس، رحمه الله.

محاسن برّ البنات:

قال عوانة: بلغنا أن شيخاً من أصحاب معاوية كان يكاتب علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وقد كان طعن في السن، فبلغ معاوية خبره، فدعاه فقال: أيها الشيخ إنك لتكاتب علياً، رضي الله عنه، ولولا سنّك لقتلتك فلا تفعل ولا تعد. فوقع كتاب له بعد ذلك إلى علي، رحمه الله، في يدي معاوية فدعاه وقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، كتب فأجبته، فأمر معاوية بقتله. فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية وأنشأت تقول:

معاوي لا تقتل أباً كان مشفقاً ::: علينا فنبقى إن فقدناه شرّدا
وتوتم أولادٌ صغارٌ بقتله ::: وإن تعف عنه كنت بالعفو أسعدا
معاوي هبه اليوم لله وحده ::: وللباكيات الصارخات تلددا
معاوي منك العلم والحلم والتقى ::: وكنت قديماً يا ابن حربٍ مسَددا

فعجب معاوية وأصحابه منها ودمعت عيناه ووهبه لها.

محاسن البنات:

قال: ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وبنية له تمرغ على صدره فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين فإنهنّ يقربن الأعداء ويورثن البعداء. فقال معاوية: مهلاً يا ابن الزبير فما مرّض

المرضى ولا ندب الموتى ولا برّ الأحياء كهنّ. فقال ابن الزبير: قد تركتهن آثر عندي من الأبناء.

وحكي أنه قال: والله لقد دخلت يوماً وما أحدٌ أبغض إليّ منهنّ وإني أخرج وما أحد أحبّ إليّ منهنّ.

أنا والله قتلته:

وقال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط. فقال بعضهم: إن ذكرت أمه غضب. فقال مالك بن أسماء المنى القرشي: أنا أُغضبه إن جعلتم لي جعلاً. ففعلوا. فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين إن عينيك لتشبهان عيني أمك. قال: نعم كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان. ثم دعا مولاه شقران فقال له: اعدد لأسماء المنى دية ابنها فإني قد قتلته وهو لا يدري. فرجع وأخذ الجعل. فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير فقل له مثل ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا. فأتاه فقال له ذلك فأمر بضربه حتى مات. فبلغ معاوية فقال: أنا والله قتلته. وبعث إلى أمه بديته وأنشأ يقول:

ألا قل لأسماء المنى أم مالكٍ ::: فإني لعمر الله أهلكت مالكا (١)

لقد استحققت:

قال معاوية لعرابة الأوسي: بأيّ شيءٍ استحققت أن يقول فيك الشّمّاخ:

رأيت عرابة الأوسيّ يسمو ::: إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ ::: تلقّاها عرابة باليمين

فقال: عرابة: سماع هذا من غيري أولى بك وبي يا أمير المؤمنين، فقال: عزمت عليك لتخبرنّي. فقال: بإكرامي جليسي،

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١ / ٢١، ٢٢٩، ٢٣٨، ٢٢١، ٢٠٠.

ومحاماتي على صديقي.

فقال معاوية: لقد استحققت.

متى ذهبت عينك؟

دخل عديّ بن حاتم على معاوية، وعنده عبد الله بن عمرو، فقال له عبد الله: يا عديّ متى ذهبت عينك؟ قال: يوم مثل أبوك هارباً، وضرب على قفاه مولياً، وأنا يومئذ على الحق، وأنت وأبوك على الباطل.

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: ما أبين الشبق في رجالكم يا بني هاشم! قال: لكنه في نسائكم يا بني عبد شمس أبين.

قال زهير:

" ومن لا يكرَّم نفســه لا يكــرَّم ::: ".. ومن لا يتّق الشَّــتم يشــتم "

تصابون في بصائركم:

قال معاوية لابن عباس: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم. فقال ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم.

أين ترى عمك أبا لهب؟

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: أين ترى عمك أبا لهب؟ قال: في النار، مفترشاً عمتك حمالة الحطب. وكانت أم جميل امرأة أبي لهب بنت حرب بن أمية ابن عبد شمس.

قال معاوية بكلام عرّض فيه بعبد الله بن الزبير، فقال: يا أمير المؤمنين لا يكن حقنا منك أن تمسك يدك مغلولة إلى عنقك، وتعمل لسانك في قومك.

طلبناها من أسافلها:

سأل ابن الزُّبير معاوية حاجة فلم يقضها، فاستعان عليه بمولاة

له، فقضى حاجته، فقال له رجل: استعنت بامرأة! فقال: إذا أعيت الأمور من أعاليها طلبناها من أسافلها.

ترده علي:

قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص: لي إليك حاجة. قال: ولي إليك حاجة ياأمير المؤمنين. قال: تهب لي الوهط. قال: هو لك يا أمير المؤمنين. قال معاوية: اذكر حاجتك قال: ترده علي.

أنت الزمان:

قال معاوية لابن الكوَّاء: صف لي الزمان، فقال: أنت الزمان إن تصلح يصلح، وإن تفسد يفسد.

خير من هذا قول رسول الله : " صنفان من أمَّتي إذا صلحا صلح الناس، الأمراء والعلماء ".

سمعتهم يشتمون الأنبياء!:

دخل رجلٌ من العامة الجهلة الحمقاء على شيخ من شيوخ أهل العلم، فقال: أصلح الله الشيخ، لقد سمعت في السوق الساعة شيئاً منكراً، ولا ينكره أحد قال: وما سمعت؟قال: سمعتهم يشتمون الأنبياء!قال: ومن المشتوم من الأنبياء؟ قال: سمعتهم يشتمون معاوية. قال: يا أخي ليس معاوية بنبيّ. قال: فهبه نصف نبيّ لم يشتم.

قلوبنا ملئت خيراً:

قال معاوية بن أبي سفيان لأبي مسلم الخولاني: إنكم معشر العباد فيكم النكاح والحدة والسماح. قال: أما النكاح فإنا لا نعدل عن أهلينا، وأما الحدة فإن قلوبنا ملئت خيراً فلا موضع فيها للشر، وأما السماح فبحسن الظن منا بالخلف من الله تعالى.

ألم تقل إنك صائم؟

دخل جنادة بن أبي أمية على معاوية، وهو يأكل، فدعاه إلى الأكل، فقال: أنا صائم، فلم تزل الألوان تختلف بين يدي معاوية حتى جئ بجدي محنوذ سمين، فقال جنادة: ليأمر لي أمير المؤمنين بماء أغسل يدي وآكل من هذا الجدي. فقال له: ألم تقل إنك صائم؟ قال: بلى. ولكنى على رد يوم أقدر منى على رد مثل هذا الجدي. فضحك معاوية وأمر بالماء، فغسل يده وأكل معه (1).

ولكنها ألسنةُ بني هاشم الحِداد التي تَفْلِقُ الصَخْرَ:

وكان لمعاوية بن أبي سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أُمور الناس وقريش، فكتب إليه: إنَّ الحسين بنَ علي أعتقَ جاريةً له وتزوَّجها؛ فكتبَ معاويةُ إلى الحسين: مِنْ أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن عليٍّ. أمَا بعد، فإنه بلغني أنك تزوَجْتَ جاريتَكَ، وتركْتَ أكْفاءَك من قريش، ممَنْ تسْتَنْجُبُهُ للولد، وتمجد به في الصِّهْر، فلا لنَفسِكَ نظَرْتَ، ولا لِوَلَدِكَ انتقيتَ.

فكتب إليه الحُسَيْن بن علي: أمَا بعد، فقد بلغني كتابُك، وتَعْيِيرُكَ إياي بأني تزوَجْتُ مولاتي، وتركتُ أكْفائي مِنْ قُرَيش، فليسَ فَوْقَ رسول الله منتَهًى في شرَف، ولا غاية في نسب؛ وإنما كانت مِلْكَ يميني، خرجَتْ عن يدي بأمرٍ التمستُ فيه ثوابَ الله تعالى، ثم ارتجعتُها على سنةِ نبيه، ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخسيسة، ووضع عنَّا به النقيصة؛ فلا لَوْمَ على امرئ مسلم إلا في أمر مأثم، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية.

---

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 /3، 14، 15، 16، 65، 68، 71، 72، 73، 74، 75، 80، 121، 136، 148، 162، 190، 223، 228، 254.

فلمّا قرأ معاوية كتابَهُ نَبَذهُ إلى يزيد فقرأه، وقال: لَشَدَ ما فَخَرَ عليك الحسين قال: لا، ولكنها ألسنةُ بني هاشم الحِداد التي تَفْلِقُ الصَخْرَ، وتَغْرِفُ من البحر والحسين - رضي الله عنه - هو القائل: الوافر:

لَعَمْـــرُكَ إنَّـــني لأُحِـــب دَاراً ::: تَحُلّ بِهـــا سُـــكَيْنَةَ وَالرَّبـــابُ[1]

أُحِبـــهما وأَبْـــذُل كـــل مَـــالي ::: ولـــيس للائـــمٍ عِنْـــدِي عِتَـــابُ

اصرفها إلى رَحْلك:

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابق خَيْل مِصْر، فعُرِضت عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي، فقال له معاوية: كيف تَرَى هدايانا يا أبا سعيد؟ فإن أخَاك عَمْراً قد أطْنَبَ في وَصْفها، فقال: أراها يا أميرَ المؤمنين على ما وصف، وإنها لمُخَيِّلة بكل خير؛ إنها لسَامِيَةُ العُيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، قبَّاء الأسنان، ضِخَام الرُّكبات، مشرفات الحجبات، رِحَاب المَناخِر، صِلاب الحوافر، وقعُها تحليل، ورفعها تعليل، فهذه إن طَلِبت سبقت، وان طَلَبت لَحِقتَ. قال له معاوية: اصرفها إلى رَحْلك؛ فإنّ بِنَا عنها غِنًى، وبفتيانك إليها حاجة [2].

دهاء معاوية - رحمه الله -:

وكان معاوية بن أبي سفيان من الدهاة؛ وله أخبار في الدهاء تدل على بعد غوره وحدة ذهنه.

فمنها أن يزيد ابنه سمع بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله

(١) سكينة: ابنته، والرباب: أمُها، وهي بنت امرئ القيس بن الجرول الكلبية.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ١/ ٥٧، ٦١، ٦٩ - ٧٠، ٢٨٤، ٩/٢.

بن سلام القرشي، وكانت من أجمل النساء في وقتها وأحسنهن أدباً وأكثرهن مالاً، ففتن بها يزيد؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خصيان أبيه، وكان ذلك الخصي خاصاً بمعاوية واسمه رفيق، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له: إن يزيد قد ضاق ذرعه بها.

فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره؛ فبث له شأنه؛ فقال: مهلاً يا يزيد؛ فقال له: علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: فأين مروءتك وحجاك وتقاك؟ فقال: قد عيل الصبر، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتقاه، أو يدفع ما أقصده بحجاه لكان أولى الناس به داود حين ابتلي به؛ فقال: اكتم يا بني أمرك، فإن البوح به غير نافعك، والله بالغ أمره فيك، ولابد مما هو كائن.

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مناه، فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام، وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظر كتابي لأمر فيه حظك إن شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه.

فأخذ السير وقدم، فأنزله معاوية منزلاً كان قد هيئ له وأعد فيه نزله؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو درداء، فقال لهما معاوية: إن الله قد قسم بين عباده قسماً ووهبهم نعماً أوجب عليهم فيها شكره وحتم عليهم حفظها، فحباني منها عز وجل بأتم الشرف وأفضل الذكر، وأوسع علي الرزق، وجعلني راعي خلقه، وأمينه في بلاده، والحاكم في أمر عباده، ليبلوني أ أشكر أم أكفر.

وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقد وينظر من استرعاه الله أمرهم، ومن لا غنى به عنه.

وقد بلغت لي ابنة أريد إنكاحها والنظر في اختيار من يباعلها،

لعل من يكون بعدي يقتدى فيه بهديي ويتبع فيه أثري فإنه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه الشيطان ويرقيه إلى تعضيل بناتهم فلا يرون لهم كفؤاً ولا نظيراً، وقد رضيت لها ابن سلام القرشي، لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما اختصه منها لأنت؛ فقال لهما معاوية: فاذكرا له ذلك عني، وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى، غير أني أرجو ألا تخرج من رأيي إن شاء الله.

فخرجا من عنده وأتيا عبد الله بن سلام وذكرا له القصة.

ثم دخل معاوية على ابنته وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وحضاك على المسارعة إلى اتباع رأيي فيه، فقولي لهما: إنه كفء كريم وقريب حميم، غير أن تحته زينب بنت إسحاق، وأخاف أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه فيعذبني عليه، ولست بفاعلةٍ حتى يفارقها.

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول معاوية، ردهما إليه يخطبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رضائي به وحرصي عليه، وكنت قد أعلمتكما الذي جعلت لها في نفسها من الشورى، فادخلا عليها واعرضا عليها الذي رأيت لها.

فدخلا عليها وأعلماها؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها.

فرجعا إلى ابن سلام وأعلماه بما قالته.

فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها وأعداهما إلى ابنة معاوية.

فأتيا معاوية وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته رغبةً في

الاتصال بابنته؛ فأظهر معاوية كراهة فعله وفراقه لزينب وقال: ما استحسنت له طلاق امرأته ولا أحببته، فانصرفا في عافية ثم عودا إليها وخذا رضاها، فقاما ثم عادا إليه، فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها تبرياً من الأمر، وقال: لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى في نفسها. فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها، وذكراً من فضله وكمال مروءته وكرم محتده؛ فقالت لهما: إنه في قريش لرفيع القدر، وقد تعرفان أن الأناة في الأمور أرفق لما يخاف من المحذور، وإني سائلةٌ عنه حتى أعرف دخلة أمره وأعلمكما بالذي يزينه الله لي، ولا قوة إلا بالله؛ فقالا: وفقك الله وخار لك.

وانصرفا عنها، وأعلما عبد الله بقولها؛ فأنشد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى ::: فإن غداً لناظره قريب

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب وخطبته ابنة معاوية، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه.

ثم استحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتياها وقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله، فإنه يهدي من استهداه؛ فقالت: أرجو، والحمد لله، أن يكون الله قد خار لي، وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي، ولقد اختلف من استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه ومنهم الآمر به، واختلافهم أول ما كرهت.

فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع، وقال: ليس لأمر الله راد، ولا لما لابد منه صاد؛ فإن المرء وإن كمل له حلمه واجتمع له عقله واستد رأيه ليس بدافع عن نفسه قدراً برأي ولا كيد ولعل ما سروا

به واستجذلوا له لا يدوم لهم سروره، ولا يصرف عنهم محذوره.

وذاع أمره وفشا في الناس، وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته، وإنما أرادها لابنه، وقبحوا فعله.

فتمت مكيدته هذه؛ لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره وبضد تقريره.

وذلك أنه لما انقضت أقراء زينب، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قدم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما، فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مقدمه؛ فقال: وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق؛ فقال له الحسين: لقد كنت أردت نكاحها وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخير مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطب - رحمك الله - علي وعليه، لتتخير من اختاره الله لها، وهي أمانةٌ في عنقك حتى تؤديها إليها، وأعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعل إن شاء الله.

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال: أيتها المرأة، إن الله خلق الأمور بقدرته، وكونها بعزته، فجعل لكل أمر قدراً، ولكل قدر سبباً فليس لأحد عن قدر الله مستحاصٌ، ولا للخروج عن أمره مستناص؛ فكان مما سبق لك وقدر عليك الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك، ولعل ذلك لا يضرك ويجعل الله فيه خيراً كثيراً؛ وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولي عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية، والحسين ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتك خاطباً عليهما، فاختاري أيهما

شئت؛ فسكتت طويلاً ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقتطعه دونك، فأما إذ كنت أنت المرسل فقد فوضت أمري بعد الله إليك وجعلته في يديك، فاختر لي أرضاهما لديك، والله شاهدٌ عليك، فاقض في أمري بالتحري ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفياً، ولا أنت عما طوقتك غبياً؛ فقال: أيتها المرأة، إنما علي إعلامك وعليك الاختيار لنفسك؛ قالت: عفا الله عنك إنما أنا ابنة أخيك، ولا غنى لي عنك، فلا تمنعك رهبة أحدٍ عن قول الحق فيما طوقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك؛ والله خير من روعي وخيف، إنه بنا خبير لطيف.

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة قال: أي بنية، إن ابن بنت رسول الله أحب إلي وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيت رسول الله وقد وضع شفتيه على شفتي الحسين، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله شفتيه؛ قالت: اخترته وأردته ورضيته.

فتزوجها الحسين وساق لها مهراً عظيماً.

فبلغ ذلك معاوية فتعاظمه ولام أبا الدرداء شديداً، وقال: من يرسل ذا بلهٍ وعمىً يركب خلاف ما يهوى.

وأما عبد الله ابن سلام فإن معاوية اطرحه وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه وتهمته أنه خدعه، ولم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقلّ ما في يديه. فرجع إلى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه لها مالاً عظيماً ودراً كثيراً، فظن أنها تجحده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيء كان منها، فلقي حسيناً فسلم عليه، ثم قال:

قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب، وكنت قد استودعتها مالاً ولم أقبضه، وأثنى عليها وقال له: ذاكرها أمري واحضضها على رد مالي.

فلما انصرف الحسين إليها قال لها: قد قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويحمل النشر عنك في حسن صحبتك وما آنسه قديماً من أمانتك، فسرني ذلك وأعجبني، وذكر أنه كان قد استودعك مالاً فأدي إليه أمانته وردي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقاً ولم يطلب إلا حقاً؛ فقالت: صدق، استودعني مالاً لا أدري ما هو، فادفعه إليه بطابعه؛ فأثنى عليها حسينٌ خيراً وقال: ألا أدخله عليك حتى تتبرئي إليه منه كما دفعه إليك؟ ثم لقي عبد الله وقال: ما أنكرت مالك، وإنها زعمت أنه بطابعك؛ فادخل عليها وتسلم مالك منها؛ فقال: أو ما تأمر من يدفعه إلي؟ قال: لا بل تقبضه منها كما دفعته إليها.

ودخل عليها حين وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته؛ فأخرجت إليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت: هذا مالك؛ فشكر وأثنى.

وخرج حسين عنهما، وفض عبد الله ابن سلام خواتم بدرة وحثي لها من ذلك وقال: خذي فهو قليلٌ مني؛ فاستعبرا جميعاً حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفاً على ما ابتليا به؛ فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما فقال: أشهد الله أنها طالقٌ ثلاثاً، اللهم قد تعلم أني لم أستنكحها رغبةً في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبعلها.

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساق إليها من مهر؛ فأجابته إلى ذلك؛ فلم يقبله الحسين وقال: الذي أرجو إليه من

الثواب خيرٌ لي.

فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله، وحرمها الله تعالى يزيد بن معاوية (١).

هذا ملك كبير الحيلة:

ومن مكايد معاوية أن رجلاً من قريش أسر فحمل إلى صاحب القسطنطينية، فكلمه ملك الروم فجاوبه القرشي بجواب لم يوافقه؛ فقام إليه رجل من بطارقة صاحب القسطنطينية فوكزه، فقال القرشي: وامعاوياه لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا.

فوصل الخبر إلى معاوية فطوى عليه واحتال في فداء الرجل.

فلما وصل إليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذي وكزه؛ فلما عرفه أرسل إلى رجل من قواد صور الذين كانوا قواد البحر ممن عرف بالنجدة وغزو الروم، وقال له: أنشئ مركباً يكون له مجاديف في جوفه، واستعمل السفر إلى بلاد الروم، وأظهر أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا، وتوصل إلى صاحب القسطنطينية ومكنه من المال واحمل إليه الهدايا وإلى جميع أصحابه، ولا تعرض لفلان يعني الذي لطم الرجل القرشي واعمل كأنك لا تعرفه، فإذا كلمك وقال لك: لأي معنى تهادي أصحابي وتتركني، فاعتذر إليه وقل له: أنا رجل أدخل هذه المواضع مستتراً ولا أعرف إلا من عرفت به، فلو عرفت أنك من وزراء الملك لهاديتك كما هاديت أصحابك، ولكني إذا انصرفت إليكم مرةً أخرى سأعرف حقك.

ففعل القائد ذلك.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦ /١٥٣ - ١٥٦.

ولما انصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه وأربى في هديته على أصحابه، ولم يزل حتى اطمأن إليه العلج.

فلما كان في إحدى سفراته قال له البطريق: كنت أحب أن تجلب لي من بلاد المسلمين وطاء ديباج يكون على ألوان الزهر؛ قال: نعم.

فلما انصرف أخبر معاوية بما طلبه البطريق؛ فأمر له ببساط على ما وصف، وقال: إذا دخلت وادي القسطنطينية فأخرجه وابسطه على ظهر المركب وتربص في الوادي حتى يصل الخبر إلى ذلك العلج، وابعث له في السر وتحين خروجه إلى ضيعته التي له على ضفة وادي القسطنطينية، فإذا وصلت إلى حد ضيعته فابتدئ بها، لعل يحمله الشره على الدخول إليك؛ فإذا حصل عندك في المركب فمر الرجال بإشارة تكون بينك وبينهم أن يستعملوا المجاديف التي في جوف المركب، وكر به راجعاً إلى الشام.

ففعل ما أمره به معاوية.

وصادف وصول ذلك القائد وجود البطريق في ضيعته، فبسط ذلك البساط على ظهر المركب ووصل إلى عرض ضيعة العلج؛ فلما عاين البساط حمله الشره والحرص على أن دخل المركب، فلما صار في المركب أشار القائد إلى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريق ومن معه، وسار بهم حتى قدم على معاوية. فأحضر معاوية البطريق ووقفه بين يديه، وأحضر القرشي وقال: هذا صاحبك؟ قال: نعم؛ قال: قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد؛ فقام القرشي فوكزه كما كان فعل به العلج.

ثم قال معاوية للبطريق: ارجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك الإسلام يقتص من أصحاب بساطك، وقال للذي ساقه: انصرف به

إلى أول أرض الروم وأخرجه، واترك له البساط وكل ما سألك أن تجمل له من هدية.

فانصرف به إلى فم وادي القسطنطينية، فوجد ملك الروم قد صنع سلسلة على فم الوادي ووكل بها الرجال، فلا يدخل أحد إلى الوادي إلا بإذنه؛ فأخرج العلج ومن معه وما معه.

فلما وصل إلى ملكه ووصف له ما صنع به معاوية قال: هذا ملك كبير الحيلة.

فعظم معاوية في أعينهم وفي نفوسهم فوق ما كان.

وعلق النويري علي هذه الواقعة بقوله: وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوي ما تقدمها [١].

ذكرت من لا ينكر فضله:

قال الأحنف: دخلت على معاوية فقدم إلي من الحلو والحامض ما كثر تعجبي منه، ثم قدم لوناً ما أدري ما هو، فقلت ما هذا؟ قال: مصارين البط محشوة بالمخ قد قلي بدهن الفستق وذر عليه الطبرزد، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟قلت: ذكرت علياً، بينما أنا عنده فحضر وقت إفطاره، فسألني المقام إذا دعا بجراب مختوم، قلت: ما في الجراب؟قال: سويق شعير، قلت خفت عليه أن يؤخذ أوبخلت به؟ قال: لا ولا أحدهما ولكني خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت. قلت: محرم هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لا ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يُطغي الفقير فقره،

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب.
تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٦/٦.

قال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله.

كيف ترى ما ها هنا!

ولما بنى معاوية خضراء دمشق أدخلها أبا ذر، فقال له: كيف ترى ما ها هنا؟قال: إن كنت بنيتها من مال الله عزوجل فأنت من الخائنين، وإن كنت بنيتها من مالك فأنت من المسرفين.

كفيت الغائب والشاهد:

قدم وفد العراق على معاوية وفيهم الأحنف، فقام الآذن وقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن يتكلم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم الحاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره. فقال: حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الغائب والشاهد.

لا أشوب هذه المكرمة بالمسألة لنفسي:

روي عن سودة بنت عمارة الهمدانية، وفدت على معاوية فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: إنك أصبحت للناس سيداً، ولأمرهم متقلداً، والله مسائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنا، ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزك ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسلبنا الجليلة، وهذا بسر بن أرطأة قدم علينا من قبلك فقتل رجالي، يقول لي فوهي بما أستعصم الله سبحانه وتعالى منه وألجأ إليه فيه، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة. فإما عزلته عنا فشكرناك، وإما لا فعرفناك. فقال معاوية: أتهددينى بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك إليه ينفذ فيك حكمه. فأطرقت تبكي ثم أنشأت تقول:

صلى الاله على جسم تضمنه ::: قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي بــه بــدلاً ::: فصار بــالحق والإيمــان مقرونــا

فقال لها: ومن ذاك؟ قالت: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذا؟ قالت: قدمت عليه في مصدق قدم علينا من قبله، والله ما كان بيني وبينه إلا ما بين الغث والسمين، فأتيت علياً لأشكو إليه ما صنع بنا فوجدته قائماً يصلي. فلما نظر إلي انفتل من صلاته ثم قال لي، برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته، فبكى ثم قال: اللهم أنت الشاهد علي وعليهم، إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك؛ ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجراب، فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم:{أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾} [هود: ٨٥ - ٨٦]. إذا قرأت كتابي هذا فأحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام.

فأخذته منه والله ما ختمه بطين ولا خزمه بخزام، فقرأته.

فقال لها معاوية: لقد لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تفطمون، ثم قال: اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها. قالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: ما أنت وقومك؟ قالت: هي إذن والله الفحشاء واللؤم، إن كان عدلاً شاملاً وإلا أنا كسائر قومي، قال: اكتبوا لها ولقومها.

ومثله خبر الراعي مع عبد الملك لما أنشده قوله: من البسيط

فإن رفعت بهــم رأســاً نعشــتهم ::: وإن لقوا مثلها في قابــل فســدوا

قال له: تريد ماذا؟ قال: ترد عليهم صدقاتهم، وتدر أعطياتهم، وتنعش فقيرهم، وتخفف مؤونة غنيهم، قال: إن ذا لكثير، قال: أنت

أكثر منه، قال: قد فعلت فسلني حوائجك، قال: قد قضيتها، قال: سل لنفسك، قال: لا والله لا أشوب هذه المكرمة بالمسألة لنفسي.

هل لك من حاجة!

خرج معاوية متنزهاً فمر بحواء (١) ضخم فقصد لبيت منه، فإذا بفنائه امرأة برزة، فقال لها: هل من غداء؟ قالت: نعم حاضر، قال: وما غداؤك؟ قالت خبز خمير، وماء نمير، وحيس فطير، ولبن هجير، فثنى وركه ونزل، فلما تغدى قال: هل لك من حاجة؟ فذكرت حاجة أهل الحواء، قال: هاتي حاجتك في خاصة نفسك، قالت: يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزل وادياً فيرف أوله ويقف آخره (٢).

وتجلُّدي للشامتين:

وحكي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه لما مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه بعض بني هاشم ليعوده فلما استأذن عليه قام وجلس وأظهر القوة والتجلد وأذن للهاشمي فدخل عليه ثم قال متمثلاً بقول أبي ذؤيب الهذلي من قصيدة رثى بها أولاداً له ماتوا بالطاعون:

وتجلّدي للشامتين أُريهُمُ ::: أنّي لريب الدهر لا أتضعضعُ

فأجابه على الفور من القصيدة المذكورة بعينها:

وإذا المنيَّةُ أنشبت أظفارها ::: ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفع

من كلامه ـ رحمه الله ـ:

- قال معاوية بن ابي سفيان ما رأيت رجلا مستهترا بالباءة الا

(١) الحِوَاءُ: بيوت مجتمعَة من الناس على مَاءٍ والجمع أحْوِية.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ص١١، ٣٢، ٦٥، ٩٦، ١٢٣، ١٣٩، ١٠٤، ١٤٤.

تبينت ذلك في منته [(١)].

وصية معاوية بن ابي سفيان :

عن ابي بكر بن عياش عن اشياخه عن اشياخه لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا معاوية مسلم بن عقبة المري والضحاك بن قيس الفهري فقال: أبلغا عني يزيد وقولا له أنظر الى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك فمن أتاك منهم فأكرمه ومن قعد عنك فتعهده وانظر إلى أهل العراق فان سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار فإن رابك من عدوك ريب فارمه بهم فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وحسين بن علي فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع وأما الحسين فاني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه وأما ابن الزبير فإنه خب ضب[(٢)].

- وكان معاوية يقول: يغلب الملك حتى يركب بشيئين: بالحلم عند سورته، والإصغاء إلى حديثه [(٣)].

- قال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها،

---

(١) أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، الناشر: دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ص٤٣، ٦٦.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ص٤٣، ٦٦.
(٣) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص١٢.

وإذا أرخوها مددتها.

– وقال معاوية: إنـي لأستحي أن أظلم من لا يجد علـي ناصـراً إلا الله (١).

- وقال مُعاوية: العَقل مِكيال ثُلُثه فِطْنة وثلثاه تغافل (٢).

- وقال مُعاوية: كلُّ الناس أقدِر أُرْضِيهم إلا حاسدَ نِعْمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

- وقال معاوية، وذُكر عنده النساء: ما مَرَّض المَرضى ولا نَدَب الموْتى مِثْلهنَّ (٣).

خطب معاوية

قال القحْذميّ: لمَّا قدِمَ مُعاويةُ المدينة عامَ الجماعة تلقاه رجالُ قريش، فقالوا: الحمد الله الذي أعزَ نَصْرَكَ، وأعْلى كَعْبك. قال: فوالله ما ردّ عليهم شيئاً حتى صَعِد المِنْبر فحَمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني والله ما وَليتُها بمحبة علمتُها منكم، ولا مَسَرَة بولايتي، ولكني جالدتُكم بسيفي هذا مُجالدة، ولقد رُضْتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحَافة، وأردتُها على عمل عُمر، فنفرتْ من ذلك نِفاراً شديداً، وأردتُها على مثل، ثَنِيَّات عثمان، فأبت عليَ فسلكتُ بها طريقاً لي ولكم فيه منفعةٌ، مواكلة حَسنة، ومُشاربة جميلة، فإن لم تَجدوني خيركم فإني خيرٌ لكم ولاية. والله لا أحملُ السيفَ على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يَسْتَشفي به القائلُ بلسانه، فقد جعلتُ له ذلك دَبْرَ أُذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوا بحقكم كُلّه

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٨.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٦٧.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٣٤٢.

فاقبلوا منّي بعضَه، فإنْ أتاكم منّي خيرٌ فاقبلوه، فإن السيل إذا يزاد عَنى، وإذا قلّ أغنى؛ وإياكم والفتنة، فإنها تُفسد المَعيشة، وتكدّر النّعمة، ثم نزل.

خطبة أيضاً لمعاوية

حمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبيّ ، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، إنا قدِمْنا عليكم، وإنما قدِمنا على صَدِيق مُستبشر، أو على عدوٍّ مُستتر، وناسٍ بين ذلك يَنْظرون ويَنْتظرون، فإنْ أُعْطوا منها رَضُوا، وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخُطون. ولستُ واسعاً كُلّ الناس، فإن كانت مَحْمَدة فلا بدّ من مَذمَة، فلوْماً هوناً إذا ذُكِرَ غُفِر، وإياكم والتي إن أُخْفِيت أوْ بقت. وإن ذُكِرَت أوْثقت، ثم نزل.

خطبه أيضاً لمعاوية:

صَعِد مِنْبر المَدينة. فحمد اللهّ وأثنى عليه، ثم قال: يأهل المدينة، إنّي لست أُحِب أن تكونوا خَلْقاً كَخَلْق العِراق، يَعيبون الشيء وهم فيه، كلّ امرئ منهم شِيعةٌ نَفْسه، فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم، وإنَّ معروف زماننا هذا مُنكَر زمان مَضى، ومُنْكَرَ زماننا معروفُ زمان لم يأت، ولو قد أتى، فالرَّتْق خَيْرٌ من الفَتْق، وفي كلَّ بلاغ، ولا مُقام على الرزيّة.

خطبة لمعاوية أيضاً

قال العُتْبي: خَطَب معاويةُ الجمعة في يوم صائف شديد الحرّ، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله ثم قال: إن الله عز وجلّ خَلَقكم فلم يَنْسكم، ووَعظكم فلم يُهملكم، فمال: يأيها الذين آمنُوا اتقوا الله حَقّ تُقاته ولا تَمُوتُنّ إلا وأنتم مُسْلمون. قوموا إلى صلاتكم(١).

(١) العقد الفريد، ٢ /١.

ذكر لعبيد الله بن زياد عند معاوية:

قال ابن دأب: لما قدِمَ عبيدُ الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد فوجده لاهياً عنه، أنكره، فجعل يَتصدى له بخَلوة ليَسْبُر من رأيه ما كُرِهَ أن يُشرك به في عمله، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُلاب، وإشعال الخاصة، وافتراق العامة، وهو يوم معاوية الذي كان يَخْلو فيه بنفسه. ففَطِن معاوية لما أراد، فبعث إلى ابنه يزيد، وإلى مَرْوَان بن الحكم، وإلى سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحكم، وعمرو بن العاص. فلما أخذوا مجالسهم آذنَ له، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجُوه القوم، ثم قالت: صَريح العُقوق مُكاتمة الأدْنين، ولا خَيْرَ في اختصاص إن وَفر، أحْمَد الله إليكم على الآلاء، وأستعينه على اللأوَاء، وأسْتَهْدِيه من عَمىً مُجْهِد، وأسْتَعينه على عدوٍّ مُرْصِد، وأشْهدَ أن لا إله إلا الله، المنقِذ بالأمين الصادق، من شقاء هاوٍ، ومن غَواية غاوٍ؛ وصلواتُ الله على الزكيّ نبيِّ الرحمة، ونذير الأمَة، وقائد الهُدى. أما بعد، يا أميرَ المؤمنين، فقد عَسَف بنا ظنّ فرَّع، وفرَع صَدَّع؛ حتى طَمِع السحيق، ويئس الرّفيق؛ ودَث الوُشاة بموت زياد، فكلُّهم مُتحقّز للعداوة، وقد قلّص الإزْرة، وشَمَّرَ عن عِطافه، ليقول: مضى زياد بما استُلحق به، وولّى على الدَّنية من مُسْتلحقه. فليت أمير المؤمنين لسَم في دَعَتِه، وأسْلم زياداً في ضَعَته، فكان تِرْبَ عامّة، وواحد رعيّة، فلا تَشْخص إليه عين ناظر، ولا إصبْع مُشير، ولا تذلَقُ عليه ألسُن. كلَمته حيّا، ونَبَشته مَيْتاً، فإن تكن يا أميرَ المؤمنين حابيتَ زياداً بولاء رُفات، ودَعْوة أموات، فقد حاباك زياد بجِدّ هَصُور، وعزْم جَسُور، حتى لانت شكائمُ الشَرس، وذلَت صَعْبة الأشوَس، وبَذل لك أمير المؤمنين يمينَه ويساره، تأخذ بهما المَنيع، وتَقْهر بهما البزيع، حتى مضى، والله يَغْفِر له. فإنْ يكن زيادٌ أخذ

بحقّ فأنْزلنا مَنازِلَ الأقربين، فإنّ لنا بعدَه ما كان له، بدالة الرَّحِم، وقرَابة الحَمِيم، ومالنا يا أمير المؤمنين نمشي الضراء، وندِبّ الخَفاء، و لنا من خَيْرك أكمله، وعليك من حَوبنا أثقلُه، وقد شَهد القوم، وما ساءني قرْبُهم، ليُقرّوا حقاً، ويردُوا باطلاً، فإنَ الحق مَناراً واضحاً، وسبيلاً قصْداً، فقل يا أمير المؤمنين بأيّ أمْرَيْك شِئت، فما نأرز إلى غير جُحرنا، ولا نَسْتكثر بغير حقّنا، واستغفر الله لي ولكم. قال: فنظر مُعاوية في وجوه القوم كالمُتعجب، فتصفّحهم بلحظه رجلاً، رجلاً، وهو مُبْتسم. ثم اتجه تِلْقاءه، وعَقد حُبْوته، وحسر عن يده، وجعل يُومىء بها نحوَه، ثم قال مُعاوية: الحمد لله على ما نحنُ فيه، فكُل خير منه، وأشهد أن لا إله إلا الله، فكُلّ شيء خاضع له، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، دل على نفسه بما بان عن عَجْز الخَلْق أن يؤتوا بمثله، فهو خاتم النبيّين، ومُصدِّق المُرسلين، وحُجَّة ربّ العالمين، وصلواتُ الله عليه وسلامُه وبركاته. أما بعد، فربّ خير مَستور، وشرّ مَذْكور، وما هو إلا السهم الأخْيَب لمن طارَ به، والحَظ المُرْغِب لمن فاز به، فيهما التفاضُل وفيهما التغابنُ، وقد صَفَقت يداي من أبيك صَفقة ذي الجُلبة من ضوارع الفُصْلان، عامل اصطناعي له بالكُفر لما أوْليتُه، فما رَميت به إلا انتصل، ولا انتضيتُه إلا غُلّق جَفْنه، وَزلّت شفرته؛ ولا قلتُ إلا عاندَ، ولاقمْت إلا قعد، حتى اخترمه الموت؛ وقد أُوقع بخَتْره، ودلَّ على حِقد. وقد كنتُ رأيتُ في أبيك رأياً حَضَرَه الخَطل، والتبس به الزَّلل، فأخذ مني بحظّ الغَفْلة، وما أُبرِّىءُ نَفْسي إن النَّفس لأمّارة بالسُّوء، فما بَرحت هناة أبيك تَحْطِبُ في حَبْل القطيعة، حتى انتكث المُبْرَم، وانحل عِقد الوداد. فيالها توبةً تُؤْتنف، من حَوْبة أوْرَثت ندما؛ اسْمَع بها الهاتف، وشاعَت للشَامت، فليهنأ الواصِم ما به احتقر. وأراك تَحْمد من أبيك

جدّاً وجُسوراً، هما أوْفيا به على سَرف التَقحُّم، وغَمْط النِّعمة، فَدَعْهما، فقد أذكَرَتْنا منه ما زهَدَنا فيك من بَعْدَه، وبهما مَشَيْتَ الضَرَاء، ودببت الخفاء، فاذهب إليك، فأنت نَجْل الدّغَل، وعِثْرة النَّغل، والآخرَ شرٍّ.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، إن للشاهد غير حَكم الغائب، وقد حَضرك زياد وله مَواطن مَعْدودة بخير، لا يُفْسدها التظنِّي، ولا تُغيّرها التُهم، وأهلوه أهلوك، التحقوا بك، وتوَسطوا شأنك، فسافرت به الرُّكبان، وسَمِعت به أهلُ البُلدان، حتى اعتقده الجاهل، وشَكّ فيه العالم، فلا تتحجَّر يا أمير المؤمنين ما قد اتسع، وكَثُرت فيه الشهادات وأعانك عليه قومٌ آخرُون. فانحرف مِعاويةٌ إلى مَن معه، هذا، وقد نَفِس عليه ببيعته، وطَعن في إمرته، يعلم ذلك كاحما اعلمه، يا للرِّجال من آل أبي سُفيان! لقد حَكّموا وبدّهم يزيد وحدَه. ثم نظر إلى عُبَيد اللهّ فقال: يا بن أخي، إنّي لأعرَفُ بك من أبيك، وكأني بك في غَمْرَة لا يَخْطُوها السابح، فالزم ابنَ عمِّك، فإنّ ما قال حق. فخرجوا، ولَزم عُبَيد اللهّ يزيد، يَرِد مجلسه، ويَطأ عَقِبه أياماً، حتى رَمى به معاويةٌ إلى البَصرة والياً عليها. ثم لم تَزل تُوكِسه أفعالُه حتى قتَله الله بالجازر.

خطبة لمعاويةأيضاً

قال بهيثم بن عديّ: لما حضرَت مُعاوية الوفاةُ ويزيد غائب، دعا بمُسلم ابن عُقبة المر والضحَّاك بن قيس القهريّ، وقال لهما: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر أهل الحجاز، فهم عصابُتك اعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومَن قعَدَ عنك فتعاهده؟ وانظُر أهل العراق، فإن سألوك عَزْل عامل في كل يوم، فأعز له عنهم، فإن عزل عامل واحد أهونُ عليك من سَلّ مائة ألف سيف، ثم لا تدري عَلام أنت عليه

منهم ثم انظُر أهلَ الشام فاجعلهم الشّعار دون الدّثار، فإنْ رابك من عدو رَيب فارْمه بهم، فإن أظفرك اللهّ فارْدُد أهل الشام إلى بلادهم، لا يُقيموا في غير بلادهم في فيتأدّبوا بغير أدابهم. لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر، وعَبدِ الله بن الزبير، والحُسين بن علي. فأما عبد الله بن عمر، فرجل قد وَقذَه الوَرع وأما الحُسين، فأرجو أن يَكفيكه اللهّ بمن قتل أباه، وخَذَل أخاه؛ وأما ابن الزُّبير، فإنه خَبّ ضَبّ. فإنْ ظَفِرْت به فقطعه إرْباً إرْباً. ومات معاوية. فقام الضَّحَّاك بن قيس خَطيبَاً فقال: إن أمير المؤمنين كان أنْفَ العرب، وهذه أكفانه، ونحن مُدْرجوه فيها ومُخْلون بينه وبين ربّه، فمن أراد حضوره بعد الظهر فليحضُر. فصلّى عليه الضحَّاك. ثم قدِم يزيد فلم يَقدَم أحدٌ عك تعزيته، حتى دخل عليه عبدُ الله ابن همَام فأنشأ يقول:

اصْبر يزيد فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ ::: واشكُر حِبَاء الذي بالمُلك حاباكا
لا رَزْءَ أعظمُ في الأقوام قد عَلِموا ::: مما رُزِئتَ ولا عُقْبى كعُقْبَاكا
أصبحتَ راعِيَ أهل الدِّين كلِّهم ::: فأنتَ ترعاهم واللّه يَرْعاكا
وَفي مُعاوية الباقي لنا خَلف ::: إذا بَقيت فلا نسمع بمَنْعاكا

قال: فانفتح الخطباء بالكلام.

خطبة أيضاً لمعاوية

ولما مرض معاويةُ مرَضَ وفاته قال لمولى له: مَن بالباب؟ قال: نفر من قُريشَ يتباشرون بموتك. قال: وَيحك! لمَ؟ فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يَسُوءهم. وأذِن للناس فدَخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوْجز، ثم قال: أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دَهْر عنود، وزمن شديد، يُعدّ فيه المُحْسن مُسيئاً، ويزداد الظالم فيه عُتواً، لا نَنْتفع بما عَلِمنا، ولا نسأل عما جَهلنا، ولا نتخوّف قارعة حتى تَحُلّ بنا؛ فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمْنعه مِن الفساد في الأرض إلا مهانة

نَفْسه، وكلال حدِّه، ونَضيض وَفْره؛ ومنهم المُصْلِت لسَيْفه، المُجْلِب برَجْله، المُعْلن بشرِّه، وقد أشْرَط نفسَه، وأوْبق دِينَه، لحُطام يَنْتهزه، أو مِقْنب يَقوده، أو مِنْبر يَفْرعه، وليس المَتْجران تراهما لنفسك ثمناً، وبمالكَ عند الله عِوَضاً؟ ومنهم من يَطْلب الدنيا بعمل الآخرَة، ولا يطلب الآخرَة بعمل الدنيا، قد طامَن من شَخْصه، وقارب من خَطْوه. وشمَر عن ثوْبه، وزَخْرَف نَفْسه بالأمانة، واتّخذ سِتْر الله ذَرِيعة إلى المَعْصية، ومنهم مَن أقعده عن طلب المُلْك ضآلة نفسه، وانقطاع سَبَبه، فقصَّرَت به الحال عن حاله، فتحلّى باسم القناعة، وتزيّا بلباس الزَّهادة، وليس من، ذلك في مَرَاح ولا مَغْدى. وبقي رجالٌ أغضّ أبصارَهم ذِكْرُ المرْجع، وأراق دُموعَهم خوفُ المَضْجَع، فهم بين شريد بادٍ، وبين خائف مُنْقمع، وساكت مَكْعوم، وداعٍ مُخلص، ومُوجع ثَكْلان، قد أخْمَلَتهم التقيّة، وشَملتهم الذلة، فهم في بحر أجَاج، أفواهُهم ضامرة، وقلوبهم قرِحَة، قد وُعظوا حتى مَلّوا، وقهروا حتى ذلّوا، وقتلوا حتى قلّوا. فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ، وقُرَاِدة الحَلَم؛ واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتّعِظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة، فقد رَفَضَت مَن كان أشفقَ بها منكم (١).

- إذا لم يكن الملك حليماً استفزّه الشيء اليسير الذي يندم عليه، وإذا لم يكن شجاعاً لم يخفْه عدوّه، وإذا كان شحيحاً لم يكن له خاصة ولا مُناصح، وإذا لم يكن صدوقاً لم يُطمع في رأيه (٢).

– وحدثني العتبي قال: قيل لمعاوية: ما النُّبل؟ قال: مؤاخاة الأكفاء، ومداجاة الأعداء، فقيل له: وما المروءة؟ قال: الحلم عند

(١) العقد الفريد، ٢ /٢ - ٣.
(٢) المبرد، الفاضل، ص ٢٢، ٢٦، ٣١، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١.

الغضب، والعفو عند القدرة [١].

- كان معاوية يقول: من هَمّ بالمعروف ثم عجز عنه فقد وجب شكره، وقال معاوية: ليس في خلال الشر خَلّة أعدل من الحسد فإنه يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود [٢].

- قال معاوية: الدنيا بحذافيرها الخفض والدعة [٣].

– قال معاوية ليزيد: يابني اتخذ المعروف منالا عند ذوي الأحساب تشتمل به مودتهم، وتعظم في أعينهم، وتكف به عاديهم، وإياك والمنع، فإنه ضد المعروف.

قال معاوية لابنه يزيد: أعط من أتاك صادقاً بما تكره، كما تعطي من أتاك بما تحب، واعلم أنه إذا أعطى الأمير على الهوى لا على الغنى فسد ملكه.

لما أراد عمرو بن العاص المسير إلى مصر، قال له معاوية: إني أريد أن أوصيك. قال: أجل. فأوص. قال: انظر فاقة الأحرار فاعمل في سدها، وطغيان السفلة فاعمل في قمعها، واستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع.

– قال معاوية: لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي.

– قول معاوية: أحب الناس إلي، من له عندي يد ثم أحبهم إليّ بعده من لي عنده يد.

– قال معاوية رحمه الله: ماوجدت شيئاً ألذَّ عندي من غيظٍ

(١) المبرد، الفاضل، ص ٢٢، ٢٦، ٣١، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١.
(٢) المبرد، الفاضل، ص ٢٢، ٢٦، ٣١، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١.
(٣) المبرد، الكامل في اللغة و الأدب، ١ /١٩٠.

أتجرعه، ولم يعرف قيمة الأبَّهة من لم يجرعه الحلم غصص الغيظ (١).

– قال معاوية: النبل مؤاخاة الأكفاء، ومداجاة الأعداء (٢).

- قال معاوية بن أبي سفيان: من أخطأه سهم المنية قيده الهرم.

- قال معاوية بن أبي سفيان لسفيان بن عوف الأزدي: كل قليلا، تعمل طويلا، والزم العفاف تسلم من القول، واجتنب الرياء يشتد ظهرك عند الخصوم (٣).

عن سعيد بن المسيب، قال: لما احتضر معاوية قال: أقعدوني. فأقعد. فجعل يذكر الله، وقال: يا رب! ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، وعزتك إن لم تغفر لي فقد هلكت، ثم غشى عليه فبكى أهله، ثم أفاق، فأنشأ يقول متمثلاً:

لعمري لقد عمرت في الملك برهةً ::: ودنت لي الـدنيا بوقـع البـواتر
وأضحى الذي قد كان منى يسرني ::: كلمحٍ مضى في السالفات الغوابر
فاليتني لم أغـن في الملـك ساعةً ::: ولم أغنَ في لذات عـيشٍ نواضـر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغـةٍ ::: من الدهر حتى زار ضيقَ المقابر (٤)

- أفضَلُ ما أُعْطِيَ الرجلُ العَقلُ والحلمُ، فإذا ذُكّر ذكَر، وإذا أساء استغفر، وإذا وَعَد أنجز.

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٦٥، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،، ٧٥، ٨٠، ١٢١، ١٣٦، ١٤٨، ١٦٢، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٥٤.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٦٥، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،، ٧٥، ٨٠، ١٢١، ١٣٦، ١٤٨، ١٦٢، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٥٤.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٦٥، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،، ٧٥، ٨٠، ١٢١، ١٣٦، ١٤٨، ١٦٢، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٥٤.
(٤) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٦٥، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،، ٧٥، ٨٠، ١٢١، ١٣٦، ١٤٨، ١٦٢، ١٩٠، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٥٤.

- المروءةُ: احتمال الجريرة، وإصلاحُ أمر العشيرة؛ والنبلُ: الحلم عند الغضب، والعفوُ عند المقدرة.

- صلاحُ ما في يدك أسْلَم من طلب ما في أيدي الناس. غَضَبِي على مَنْ أمْلِك، وما غضبي على مَنْ لا أمْلِك؟

- قال معاوية، رضي الله عنه، لزياد حين ولاّه العراق: يا زياد، ليكن حبُّك وبغضك قصْداً؛ فإن العَثْرة فيهما كامنة، واجعل للنزوع والرجوع بقيّة من قلبك، واحذرْ صَوْلَة الانهماك، فإنها تؤدي إلى الهلاك (١).

- مهما كان في الملك فلا ينبغي أن تكون فيه خمس خصال: لا ينبغي أن يكون كذاباً، فإنه إذا كان كذاباً فوعد بخير لم يرج، وإن وعد بشرٍ لم يخف؛ ولا ينبغي أن يكون بخيلاً، فإنه إذا كان بخيلاً لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلاّ بالمناصحة؛ ولا ينبغي أن يكون حديداً، فإنه إذا كان حديداً مع القدرة هلكت الرعية؛ ولا ينبغي أن يكون حسوداً، فإنه إذا كان حسوداً لم يشرف أحدً، ولا يصلح الناس إلاّ على أشرافهم؛ ولا ينبغي أن يكون جباناً، فإنه إذا كان جباناً اجترأ عليه عدوه.

- قال معاوية: آفة المروءة الكبر وإخوان السوء، وآفة العلم النسيان، وآفة النسيان الكذب، وآفة الحلم الذل، وآفة الجود السرف، وآفة القصد البخل، وآفة المنطق الفحش، وآفة اللب العجب، وآفة الظرف الصلف، وآفة الحياء الضعف، وآفة الجلد الكسل، وآفة الرزانة الكبر، وآفة الصمت العي.

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ١/ ٥٧، ٦١، ٦٩ - ٧٠، ٢٨٤، ٩/٢.

- قال معاوية لابنه: اتخذ المعروف عند ذوي الإحسان تستمل به قلوبهم، وتعظم به في أعينهم، وتكف به عنك عاديتهم.

- ووصى عمرو معاوية بالسياسة فقال: لا يكون شيء آثر عندك من أمر رعيتك، وتكون له أشد تفقداً منك لخصاصة الكريم أن تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم أن تقمعه، واستوحش من الكريم الجائع ومن اللئيم الشبعان، فإنَّ الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع.

- قال معاوية، يغلب الملك حتى يركب بالحلم عند سورته والاصغاء إلى حديثه.

- قال معاوية: ثلاث ما اجتمعن في حر: مباهتة الرجال، والغيبة للناس، والملال لأهل المودة [1].

* * *

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ص١١، ٣٢، ٦٥، ٩٦، ١٢٣، ١٣٩، ١٠٤، ١٤٤.

يزيد بن معاوية

أعلام الخلفاء الأمويين

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى أبو خالد، وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة وأبوها من أشراف قبيلة كلب(١).

ولد يزيد بن معاوية في خلافة عثمان رضي الله عنه في سنة ست وعشرين، وقيل أن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان في سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة، نشأت والدته في البادية حيث أن والدته طلقها أبوه فعاش مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت في طباعه تلك النشأة فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة والكرم، والشجاعة، واستمر متعلقاً بالبادية، حتى أنها أثرت في لباسه وعدم التكلف في حياته، فقد تلقوه أهل الشام بعد موت أبيه عائداً من أخواله ليس له عمامة ولا سيف فقال الناس: هذا الأعرابي الذي ولي أمر هذه الأمة، واهتم به والده وعين له مؤدباً ليعلمه وجعله يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجهرمي الذي استقدمه معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالماً بأيام العرب، وأحاديثها وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين، وقد تأثر يزيد من هذا الشيخ الحكيم الذي حنكته التجارب والسنون، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير، وقد توفر ليزيد ما لم يتوفر لغيره (٢).

إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم

(١) الاستيعاب، ١٤١٦/٣، تاريخ خليفة، ص١٠.
(٢) تهذيب التهذيب، ٣١٦/١١ - ٣١٧، فوات الوفيات، ٣٢٨/٤، أنساب الأشراف، ٢٩٥/٤ - ٢٩٦، سير أعلام النبلاء، ١٣٠/٩.

وكاتب الوحي لرسول الله وقد روى عن أبيه أحاديث، وقد كان معاوية رضي الله عنه يحاول دوماً أن يوجه يزيد نحو الاستفادة من مجالس الوفود التي تفد عليه، فقد ذكر ابن المبارك أن معاوية قال لبعض رجالات الوفود ما تعدون المروءة فيكم قالوا: العفاف في الدين، والإصلاح في المعيشة، فقال معاوية: أسمع يا يزيد، فقد كان معاوية رضي الله عنه منذ أن استقر له الأمر في الشام شديد الاهتمام بتربية ولده، فأشركه منذ وقت مبكر في الصوائف وتحمل المسئوليات، وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبي ولده، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد قال: لا يا أمير المؤمنين قال: ولم؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل، وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده، على الرغم من صغر سنه مما يدل على مدى إهتمام أبيه به، فيروي ابن ظفر الصِّقلي: أن معاوية بن أبي سفيان قال لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين: يا بني في أي سورة أنت؟ فقال: في السورة التي تلي يا أمير المؤمنين. فقال: يا بني إن هذه السورة تليها سورتان وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟ قال: في السورة التي في أولها{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ (٢)} [محمد: ٢]. فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوي حيث يقول:

ملـوك وأبنـاء الملـوك وسـادة ::: تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
متى تلقَ منهم ناشئاً في شبابه ::: تجده على أعراق والده يجري

فهم يغفرون الذّنب يـــنقم مثلـــه ::: وهم تركوا رأي السَّفاهة والهجر[(١)]

وكان معاوية يوجه أبنه ويرشده وينصحه ويدله على الصواب فقد رأى ابنه يضرب غلاماً له، فقال له: سوأة لك، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من ذوى الإحن، وإنَّ أحقَّ من عفا لمن قدر، وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله رأى أبا مسعود يضرب غلاماً له، فقال له:**اعلم أبا مسعود للهُ أقدر عليك منك عليه**[(٢)]، وذات يوم غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حياتك ويتمنَّوا موتك، فقال معاوية: لله درُّك يا أبا بحر، يا غلام ائت يزيد فأقرئه مني السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائه ألف. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف. فقال: لا جرم لأقاسمنه فبعث إلى الأحنف بخمسين ألف وخمسين ثوباً.

وكان يزيد حاضر البديهة، قال العتبي: وقدم زياد بأموال عظيمة، وبسفط مملوءة جواهر على معاوية، فسرَّ بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عُبيد إلى حرب بن أميه. فقال له معاوية اجلس فداك أبي وأمي وكان معاوية يربي يزيد على القيام بالواجبات الاجتماعية مع أعيان المجتمع، فعندما وفد عبد الله بن عباس إلى معاوية، أمر ابنه يزيد أن

(١) سهيل زكار، تاريخ الدولة العربية، ص٤٥، الصلابي، الدولة الأموية، ١، ٢٩٥.
(٢) مسلم رقم ١٦٥٩.

يأتيه فيعزيه في الحسن بن علي، فلمّا دخل على ابن عباس رحّب به وأكرمه وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المُعزِّي لا المُهَنِّي، ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله ابا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وعوّضك من مُصابك ما خير لك ثواباً وخيرٌ عقبى. فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابنُ عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً

مَغَاضٍ عن العـوراءِ لا ينطقونها ::: وأهلُ وِراثات الحلـوم الأوائـل

وكان معاوية رضي الله عنه يختبر ابنه بين الفينة والأخرى فذات يوم سأله: كيف تُراك فاعلاً إن وُليت؟ قال: يُمتعُ الله بك. قال: لتُخبرني قال: كنت والله يا أبة عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله، سبحان الله، والله يا بُنيَّ لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها.

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبي سفيان بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمن كما يعرف باسم أبي ليلى و خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم وقد انصرف إلى عمل الكيمياء

و أبو سفيان بن يزيد وتزوج أيضاً يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فأنجبت له عبد الله بن يزيد وكان من أرمى العرب وهو الذي يقول فيه الشاعر:

زعـم النـاسُ أن خـيرَ قـريش ::: كلّهـم حـين يُـذكرُ الأُسـوار

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن،

وحرب، والربيع، ومحمد[١].

من أهم أعمال يزيد في عهد والده غزو القسطنطينية، وفضيلة غزو القسطنطينية ليزيد، جعلت الذهبي مع شدة حمله على يزيد يقول: يزيد بن معاوية أبو خالد الأموي له هنات حسنة، وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاري، وما أجمل قول ابن تيمية: ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم[٢]

ويبدو أن يزيد قد قام ببعض الحملات حتى وصل إلى خليج القسطنطينية ومعه زوجته أم كلثوم، ويبدو أن معرفة يزيد بحرب الروم، وإدراكه بخطرهم الداهم، وأخذه بنصيحة والده رضي الله عنه، فكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شد خناق الروم، كل هذه الأمور جعلته بعد أن تولى الخلافة يسير على خطته في جهاد الروم، ولم تمنعه أحداث ابن الزبير وشيعة العراق من قتالهم، وقد كانت وفاة يزيد فيما بعد متنفساً للروم، ليس فقط في وقف الهجمات الحربية عليهم من قبل المسلمين، بل بلغت بهم الجرأة إلى الإكثار من الغارات على بلاد الشام ومنطقة الثغور، ولما عاد يزيد من غزوة القسطنطينية في نفس السنة حج بالناس، وهذه الأعمال التي قام بها يزيد في غاية الأهمية في ذلك العصر، فكان يزيد يقود جيشاً من أعظم الجيوش في عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٢٩٨.
(٢) عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، مكتبة الإمام البخاري، مصر - الإسماعيلية، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ، ص ٢٦٢.

وساداتهم وأبناءهم ويتجه هذا الجيش بقيادة يزيد إلى أهم جبهة في الدولة الإسلامية، وغير هذه الاعتبارات تدل على أن يزيد الذي يبلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين (٢١ - ٢٣) يملك روحاً قيادية وكفاءة حربية، ولم يعترض أحد من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد في تلك المرحلة، كما أن هذا التصرف من معاوية رضي الله عنه في توليه يزيد هذا الجيش - والذي يضم أكابر الصحابة وأبنائهم وفقهائهم وسادات المسلمين فيه دلالة على أن معاوية رضي الله عنه، يرى في ولده يزيد ملامح النجابة والكفاءة التي تؤهله لقيادة هذا الجيش[١].

اتسم يزيد بالقوة والشجاعة: وقال عنه الذهبي: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وكان يتمنى أن يوليه أبوه في الغزو على الصائفة بالمسلمين. وكان يحرص على إقامة السباقات بين الخيل، ويجعل الجوائز، لرفع مستوى الفروسية عند المسلمين، علاوة على تمكنه من قيادة الجيش الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال[٢].

وكان يقرض الشعر: فقد ذكر الذهبي بأنه صاحب فصاحة. ولما تكلم الخطباء عند معاوية قال والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد تكلم[٣]، وكان كان شاعراً مجيداً، ومن شعره ما كان ينشده هارون الرشيد ليزيد بن معاوية:

إنها بين عامر بن لؤَيٍّ ::: حين تَنْمِي وبين عبد مناف

---

(١) عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، مكتبة الإمام البخاري، مصر - الإسماعيلية، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ، ص ٢٦٢، الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٣٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء، ٧/٤.
(٣) سير أعلام النبلاء، ٣٧/٤.

وهـــا في المُطَيَّـــبين جـــدودٌ ::: ثم نالـــت مكـــارم الأخْـــلافِ
بنـــتُ عـــمٍّ الـــنبيِ أكـــرمُ مـــن ::: يمشي بنعل على التُّـــراب وحـــافي
لن تراها على التَّبَـــذُّل والغلظـــة ::: إلا كـــــدرة الأصـــــداف(١)

واشتهر عن يزيد الكرم فكان يجزل العطاء لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وليس غريباً عنه وهو الذي يقول: حفظ النديم والجليس وإكرامهما من كرم الخليفة وقضاء حق النعمة، ولقد حازت هذه الأعطيات على إعجاب عبد الله بن جعفر وقال له: فداك أبي وأمي فوالله ما قلتها لأحد قبلك، وكان يقول: أتلوموني على حسن الرأي في يزيد. ومن كرمه أيضاً: أن عبد الله بن حنظلة عندما قدم عليه من المدينة وبنيه أعطاه مائة ألف وأعطى كل واحد منهم شعرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم وقصته مع الأحنف في مقاسمته الجائزة التي أمر بها معاوية قد مرت معنا.

وأما صفاته الخَلقية: فقد كان ضخم الجسم سمينا طويلاً غليظ الأصابع كثيف الشعر جعده أسمر البشرة في وجهه أثر الجدري أحور العينيين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً (٢).

بويع يزيد بالخلافة بعد وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان وكان يزيد غائباً حين حضر معاوية الموت، فلما حضر يزيد كان قد دفن، فقصد يزيد باب الصغير حيث دفن أبوه، وهناك صلى على أبيه ومن خلفه المسلمون، وقد أجمعت - غالبية - الأمة على بيعة يزيد أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ولم يبايع إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن - كما سنرى بإذن الله تعالى - أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد

(١) البداية والنهاية، ٦٥٥/١١.
(٢) سير أعلام النبلاء، ٣٧/٤، البداية والنهاية، ٦٣٨/١١.

جمعاً للكلمة وحفظاً لوحدة الأمة وخوف الفتنة، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر، ومحمد بن الحنفية، أما أهل الشام والعراق وغيرها من الأقاليم فقد بايعوا وكانت المعارضة ليزيد في أهل الحجاز يتزعمها الحسين بن علي وابن الزبير(١).

إن أهل السنة والجماعة يعتبرون بيعة يزيد صحيحة ولكنهم عابوا عليها أمرين:

١ - قالوا إن هذه بدعة جديدة وهي أنه جعل الخلافة في ولده فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيص على غير القريب، فكيف قريب وابن مباشر، فمن هذا المنطق رُفض المبدأ بغض النظر عن الشخص فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة.

٢ - أنه كان هناك من هم أولى من يزيد بالخلافة كإبن عمر وابن الزبير والحسين وغيرهم هذا من وجهة نظر أهل السنة(٢).

أما من وجهة نظر الشيعة فإنهم يرون الإمامة والخلافة في علي وأبنائه فقط، فهم لا يعيبون بيعة يزيد بذاتها وإنما يعيبون كل بيعة لا تكون لعليّ وأولاده، فهم يعيبون بيعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية كلها بغض النظر عن المبايع له، لأنهم يرون أنها نص لعليّ وأبنائه إلى أن تقوم الساعة(٣)

هل كان يزيد أهلا للخلافة أو لا!

ذكر ابن كثير(٤) قصة عبد الله بن مطيع وأصحابه وأنهم مشوا إلى محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب، أخو الحسن

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ١ / ٣١٠.
(٢) عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، ص ٢٢٤.
(٣) عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، ص ٢٢٤.
(٤) البداية والنهاية، ٢٣٦/٨.

والحسين من أبيهما فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، قال ابن مطيع: إن يزيد بن معاوية يشرب الخمر، ويترك الصلاة.

فقال محمد: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة، متحريا للخير، يسأل عن الفقه، ملازما للسنة.

قالوا: إن ذلك كان منه تصنعا لك.

قال محمد بن الحنفية: ما الذي خافه مني أو رجاه؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم نكن رأيناه.

قال محمد بن الحنفية: أبى الله ذلك على أهل الشهادة ثم قرأ عليهم قول الحق تبارك وتعالى:{إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: ٨٦].

وكذا ما نقل عن يزيد أنه قال بعد مقتل الحسين:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ::: جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم ::: وعدلناه ببدر فاعتدل
ولعبت هاشم بالملك فلا ::: خبر جاء ولا وحي نزل(١)

فهذا أيضا لم يثبت عنه.

فالفسق الذي نسب إلى يزيد في شخصه كشرب خمر، أو ملاعبة قردة أو فحش أو ما شابه ذلك لم يثبت عنه بسند صحيح فهذا لا نصدقه، والأصل السلامة ونقول علمه عند ربي سبحانه وتعالى،

(١) نقله الطبري في تاريخه عن المعتضد الخليفة العباسي في أحداث سنة ٢٨٤.

ولكن ظاهر رواية محمد بن الحنفية أنه لم يكن فيه شيء من ذلك، فالعلم عند الله تبارك وتعالى في حال يزيد، وهذا لا يهمنا فهو بينه وبين ربه تبارك وتعالى.

ولو فرضنا أن الأمر كان كذلك فإن كون الإمام فاسقا لا يعني أنه يجب الخروج عليه بهذه الصورة التي حدثت (١).

ومن الأحداث المهمة في خلافة يزيد بن معاوية معركة كربلاء ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ومعركة الحرة بالمدينة المنورة، وخروج ابن الزبير ومن معه بمكة.

في عام ٦٤هـ هلك يزيد بن معاوية وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ وهو ابن ٣٨سنة وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر في قول بعضهم، ويقال: ثمانية أشهر، وصلى على يزيد ابنه معاوية بن يزيد (٢).

موقف أهل السنة والجماعة من يزيد بن معاوية في قتل الحسين:

لم يكن ليزيد يد في قتل الحسين، وليس هذا دفاعا عن يزيد ولكنه دفاع عن الحق.

أرسل يزيد عبيد الله بن زياد ليحول بين الحسين والوصول إلى الكوفة، ولم يأمره بقتله، بل الحسين نفسه كان حسن الظن بيزيد حين قال: (دعوني أذهب إلى يزيد فأضع يدي في يده).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن يزيد بن معاوية لم يأمر بقتل

(١) عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، ص ٢٢٤.
(٢) تاريخ الطبري، ٤٣٣/٦.

الحسين باتفاق أهل النقل، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق، ولما بلغ يزيد قتل الحسين أظهر التوجع على ذلك وظهر البكاء في داره ولم يسب لهم حريما بل أكرم أهل بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلادهم.

أما الروايات التي فيها أنه أهين نساء آل بيت رسول الله وأنهن أخذن إلى الشام مسبيات وأهن هناك هذا كله كلام باطل بل كان بنو أمية يعظمون بني هاشم، ولذلك لما تزوج الحجاج بن يوسف فاطمة بنت عبد الله بن جعفر لم يقبل عبد الملك بن مروان هذا الأمر، وأمر الحجاج أن يعتزلها ويطلقها، فهم كانوا يعظمون بني هاشم؛ بل لم تسب هاشمية قط) [1].

فالهاشميات كن عزيزات مكرمات في ذلك الزمن، فالكلام الذي يقال عن يزيد أنه سبى نساء أهل بيت رسول الله باطل مكذوب.

وما ذكر أن رأس الحسين أرسل إلى يزيد فهذا أيضا لم يثبت، بل إن رأس الحسين بقي عند عبيد الله في الكوفة، ودفن الحسين ولا يعلم قبره ولكن المشهور أنه دفن في كربلاء حيث قتل رضي الله تبارك وتعالى عنه.

الموقف الوسط في يزيد:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الناس في يزيد طرفان ووسط:

الطائفة الأولى: تتعصب له وتحبه بل تدعي فيه النبوة والعصمة.

الطائفة الثانية: تتعصب عليه، تبغضه بل تكفره وترى أنه كان منافقا يظهر الإسلام ويبطن النفاق ويكره الرسول .

(١) منهاج السنة، ٥٥٧/٤ - ٥٥٩ بتصرف.

وتنسب إليه - لما قتل الحسين أو أوقع في أهل الحرة ما أوقع - من الشعر:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ::: جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم ::: وعدلناه ببدر فاعتدل

وأنه قال:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ::: تلك الرءوس على ربى جيرون
نعق الغراب فقلت نح أو لا تنح ::: فلقد قضيت من النبي ديوني

ثم قال: (وكلا القولين باطل، فإن الرجل ملك من ملوك المسلمين وخليفة من الخلفاء الملوك لا هذا ولا هذا.

وأما مقتل الحسين رضي الله عنه فلاريب أنه قتل مظلوما شهيدا كما قتل أشباهه من المظلومين الشهداء، وقتل الحسين معصية لله ورسوله ممن قتله أو أعان على قتله أو رضي بذلك، وهو مصيبة أصيب بها المسلمون من أهله وغير أهله، وهو في حقه شهادة له، ورفع درجة وعلو منزلة) (١).

النهي عن لعن يزيد:

ولعل من أهم الأمور التي وقعت في زمن يزيد (وقعة الحرة) (٢)، وقتال عبد الله بن الزبير، وقتل الحسين بن علي.

وبسببها هناك من يجوز لعن يزيد بن معاوية، وهناك من يمنع، والذي يجوز لعن يزيد يحتاج أن يثبت ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يثبت أنه كان فاسقا.

الأمر الثاني: أن يثبت أنه لم يتب من ذلك الفسق، فإن الكافر إذا

(١) مختصر منهاج السنة، ١/٣٤٦.
(٢) وذلك لما خرج أهل المدينة على يزيد فاستباح المدينة ثلاثة أيام.

تاب تاب الله عليه فكيف الفاسق؟

الأمر الثالث: أن يثبت جواز لعن المعين.

ولا يجوز لعن الميت المعين الذي لم يلعنه الله ولا رسوله؛ لأنه قد ثبت عن النبي أنه قال:**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**(١).

ودين الله لم يقم على السب وإنما قام على مكارم الأخلاق، فالسب ليس من دين الله تبارك وتعالى في شيء، بل قال الرسول :**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**(٢).

فسباب المسلم فسوق ولم يقل أحد أن يزيد خارج من ملة الإسلام، بل أكثر ما قيل فيه: إنه فاسق.

وهذا كما قلنا مبني على ثبوت ما ذكروه عنه من فسق، وعلمه عند الله تبارك وتعالى.

بل إنه قد ثبت عن النبي أنه قال:**أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**(٣).

وكان هذا الجيش بقيادة يزيد بن معاوية، ويذكر أنه كان معه من سادات الصحابة ابن عمر، وابن الزبير، وابن عباس، وأبو أيوب، وذلك سنة ٤٩ هـ.

قال ابن كثير: (قد أخطأ يزيد خطأ فاحشا في أمره لأميره مسلم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما ينهى عن سب الأموات، حديث (١٣٩٣).
(٢) متفق عليه: (صحيح البخاري): كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله، حديث (٤٨)، (صحيح مسلم): كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ :﴿سباب المسلم فسوق وقتاله كفر﴾، حديث (٦٤).
(٣) (صحيح البخاري): كتاب الجهاد، باب ما قيل في قتال الروم، حديث (٢٩٢٤).

بن عقبة في وقعة الحرة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة و أبنائهم) [١].

فخلاصة القول: أن أمره إلى الله تبارك وتعالى، وهو كما قال الذهبي[٢]: (لا نسبه ولا نحبه) [٣].

مواقف من حياته:

إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً:

وأطرى رجل من قريش يزيد بن معاوية عند معاوية، فلما خرج الناس أقبل على الأحنف فقال: إني والله وإن قلت الذي قلت رغبةً أو رهبة فإنه ما علمت للذي.. وإن ابنه ما علمت للذي..، قال الأحنف: إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً [٤].

انظري هل تحرك أمير المؤمنين:

ويقال أن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: يا جارية! انظري هل تحرك أمير المؤمنين.

فجاءت الجارية مرة حتى فتحت الباب، فإذا معاوية قاعد، وفي حجره مصحف، وبين يديه جارية تصفح عليه. فأخبرت يزيد بذلك.

فجاء يزيد، فدخل على معاوية. فقال له: أي بني! إني إنما جعلت بيني وبينك باباً، كما بيني وبين العامة. فهل ترى أحداً يدخل من الباب إلا بإذن؟ قال: لا قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قرع عليك فهو إذنك[٥].

قد رأيتها!

(١) البداية والنهاية، ٢٢٥/٨.
(٢) سير أعلام النبلاء، ٣٦/٤.
(٣) حقبة من التاريخ، ص٢٦٢ - ٢٦٥.
(٤) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص٣٩.
(٥) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٢٧.

جلست ميسون بنت بحدل الكلبية ترجل ابنها يزيد بن معاوية، وميسون يومئذ مطلقة، ومعاوية وفاختة بنت قرظة ينظران إليهما، ويزيد وأمه لا يعلمان، فلما فرغت من ترجيله نظرت إليه فأعجبها وقبلت بين عينيه، فقال معاوية بيتاً من شعر:

إذا مات لم تفلــح مزينـــة بعــده ::: فنوطي عليه يــا مــزين التمائمــا

قال: ومضى يزيد فأتبعته فاختة بصرها، وقالت: لعن الله سواد ساقي أمك، فقال معاوية: قد رأيتها؟ أما والله على ذاك لما فرجت عنه وركاها خيرٌ مما تفرجت عنه وركاك.

وكان لمعاوية من بنت قرظة عبد الله، وكان أحمق الناس، قالت فاختة: لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه، فقال: سوف أبين لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن تقومي من مجلسك، يا غلام! ادع لي عبد الله، فدعاه فقال له معاوية: يا بني! إني قد أردت أن أسعفك وأن أصنع بك ما أنت أهله، فسل أمير المؤمنين فلست تسله شيئاً إلا أعطاكه. فقال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً، فقال معاوية: يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً، قم فاخرج، قال: كيف رأيت؟ يا غلام! ادع لي يزيداً، فدعاه.

فقال: يا بني! إن أمير المؤمنين قد أراد أن يسعفك ويوسع عليك ويصنع بك ما أنت أهله، فاسأله ما بدا لك، قال: فخر ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه في هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتوليني العام صائفة المسلمين، وتحسن جهازي وتقويني، فتكون الصائفة أول أسفاري، وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتوليني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجل، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمح وأيتام بني سهم وأيتام بني عدي، قال: مالك ولبني عدي؟

قال: لأنهم جالفوني وانتقلوا إلى داري، قال معاوية: قد فعلت - إذا رجعت - ذلك بك، وقبل وجهه وقال لابنة قرظة: كيف رايت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أوصه بي، فأنت أعلم به، ففعل [(١)].

وفي رواية: أن عبد الله سأل مالاً وأرضاً، وأن يزيد قال لمعاوية: اعتقني من النار أعتق الله رقبتك من النار، فقال له: وكيف؟ قال: لأني وجدت في الأثر أنه " من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار "، فاعهد إلي من بعدك.

يا أبه!

قال يزيد بن معاوية لأبيه: يا أبه! هل ذممت عاقبة حلم قط أم حمدت عاقبة إقدام قط؟ قال: ما حلمت عن لئيم وإن كان ولياً إلا أعقبني ندماً، ولا أقدمت على كريم وإن كان عدواً إلا أعقبني أسفاً[(٢)].

ما بكل هذا أمرتك!

قيل: وشرب يزيد بن معاوية ذات يوم وعنده الأخطل فلما ثمل قال: يا أخطل اهجني ولا تفحش، فأنشأ يقول:

ألا اسلم سلمت أبا خالدٍ ::: وحياك ربك بالعنقز
وروّى عظامك بالخندري ::: س قبل الممات ولم تعجز
أكلت الدجاج فأفنيتها ::: فهل في الخنانيص من مغمز
ودينك حقاً كدين الحما ::: ر بل أنت أكفر من هرمز

فرفع يده ولطمه وقال: يا ابن اللخناء ما بكل هذا أمرتك![(٣)]

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/١٣١.
(٢) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٢٢.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/١٢١.

ودخل الحسين يوما على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمد رسول الله قال الحسين يا يزيد جد من هذا فخجل يزيد ولم يرد جوابا وفي ذلك يقول على بن محمد بن جعفر

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ::: بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا الفخار قضي لنا ::: عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا ::: عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله ايضا:

إني وقومي من أنساب قومهم ::: كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة ::: إلا وهمته أمضي من السيف (١)

أول من جمع بين التهنئة والتعزية:

ودخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية فقال رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية (٢).

أوسعت يا أبا أمية فاجلس:

وعن العتبى، قالَ: لمّا عقد معاوية البيعة ليزيد، قام الناس يخطبون، فقال معاوية لعمرو بن سعيد: قم يا أبا أمية. فقام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن يزيد بن معاوية أنبل ما تأملونه،

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ٢٨٩/١.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١٦٦/٢.

وأجل ما تأمنونه، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم، وان احتجنم إلى رأيه ارشدكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم، جذع قارع، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع ففاز سهمه، فهو خلف أمير المؤمنين، ولا خلف منه. فقال معاوية: أوسعت يا أبا أمية فاجلس (١).

إن هذا المنبر لم ينصب للشعر:

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية وكان واليا على قوم فقال لهم أيها الناس إنى إن لم أكن فارسا طبا بهذا القرآن فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفا منه وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال:

وما عاجلات الطير يدنين للفتى ::: رشادا ولا من ريثهن يخيب
ورب أمور لا تضيرك ضيرة ::: وللقلب من مخشاهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ::: على نائبات الدهر حين تنوب
وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة ::: ويخطى الفتى في حدسه ويصيب

فقال رجل من كلب إن هذا المنبر لم ينصب للشعر بل ليحمد الله تعالى (٢).

لم كرهْت الإفراط في تقديمي!

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس، وكان أكرمه واجتباه: لم كرهْت الإفراط في تقديمي، وتطامَنْتَ عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني؟ فقال: أيّدَ الله سلطانك، وأعلى مكانك، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم والآداب، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منّا، وأكثر للزمان صُحْبَة، وأكثر للأيام تجربة، وقد قال الحكيم: بقدر الثواب عند الرّضا يكون العقاب عند السخط، وبقدْر السموّ في

(١) ابن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ٢١/١.
(٢) جمهرة خطب العرب، ٣٥٦/٣.

الرفعة تكون وَجْبة الرفعة، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة، ولا يقبل النصيحة، وأنا يا أمير المؤمنين، وإن كنت آمناً من التعرض لسُخْطِك والدنوِّ ممّا يقرب منه، فلستُ بآمِنٍ من طَعْنِ المُساوي في الدرجة عندك، وحقر المشارك لي في المنزلة منك، وليس من تقديمك قليل، ولا من تَعْظِيمك يسير، فإن أقل ذلك فيه النباهة، والفخر، والثناء، والذكر، وحسبي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك، وحسبي من تقديمك خالص رضاك، وصفاء ضميرك (١).

فكيف تشاتم رجلاً قبل أن تعلم ما يقال لك وفيك! :

كان بين يزيد بن معاوية وبين إسحاق بن طلحة بن عبيد الله كلام بين يدي معاوية فقال يزيد: يا إسحاق إن خيراً لك أن يدخل بنو حرب كلهم الجنة! فقال إسحاق: وأنت والله لخير لك أن يدخل بنو العباس كلهم الجنة! فأنكر يزيد ولم يدر ما عناه؛ فلما قام اسحاق قال معاوية: أتدري ما عناه إسحاق؟ قال يزيد: لا. قال: فكيف تشاتم رجلاً قبل أن تعلم ما يقال لك وفيك؟ إنه عنى ما زعم الناس أن أبا العباس أبي، وكانت هند اتهمت به وبغيره، ولذلك لما جاءت إلى النبي تبايعه فتلا عليها الآية، فلما بلغ قوله ولا يزنين قال: وهل تزني الحرة؟ فنظر النبي إلى عمر وتبسم (٢).

بئس الضيف أنت :

كانت عند عبد الله بن جعفر جارية مغنية يقال لها عمارة، وكان يجد بها وجداً شديداً، وكان لها ثمه مكان لم يكن لأحد من جواريه،

---

(١) القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٨٠/٢.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١٦١/١.

فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه فزاره يزيد، ذات يوم، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها، وسمع غناءها، وقعت في نفسه، فأخذه عليها ما لا يملكه، وجعل لا يمنعه من أن يبوح بما يجد بها إلا مكان أبيه مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتم الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها، وكيف الحيلة فيها، فقيل له: إن أمر عبد الله بن جعفر لا يرام، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت؛ وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبداً، وليس يغني في هذا إلا الحيلة، فقال: انظروا لي رجلاً عراقياً له أدب وظرف ومعرفة، فطلبوه، فأتوه به، فلما دخل رأى بياناً وحلاوةً وفهماً، فقال يزيد: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظك آخر الدهر ويد أكافئك عليها إن شاء الله تعالى؛ ثم أخبره بأمره، فقال له: عبد الله بن جعفر ليس يرام ما في قلبه إلا بالخديعة، ولن يقدر أحد على ما سألت، فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعني بالمال. قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طرف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك، ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعرصة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسل إليه وقال: إني رجل من أهل العراق قدمت بتجارة وأحببت أن أكون في عز جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به، فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرمانه أن أكرم الرجل، ووسع عليه في نزوله.

فلما اطمأن العراقي سلم عليه أياماً وعرفه نفسه، وهيأ له بغلةً فارههً، وثياباً من ثياب العراق وألطافاً، فبعث بها إليه، وكتب معها: يا سيدي! إني رجل تاجر، ونعم الله علي سابغة، وقد بعثت إليك

بشيء من تحف وكذا من الثياب والعطر، وبعثت ببغلة خفيفة العنان، وطيئة الظهر، فاتخذها لرجلك، فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألا قبلت هديتي ولم توحشني بردها، إني أدين الله تعالى بحبك وحب أهل بيتك، وإن أعظم أملي في سفرتي هذه أن أستفيد الأنس بك والتحرم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مر بالعراقي في منزله، فقام إليه، وقبل يده، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وفصاحةً، فأعجب به وسر بنزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بلطف تطرفه، فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكراً، وما نقدر على مكافأته.

فإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس، وسمع غناء عمارة، تعجب، وجعل يزيد في عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سر به إلى أن قال له: هل رأيت مثل عمارة! قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها، وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية، حسن وجه، وحسن عمل، قال: فكم تساوي عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة؟ قال: تقول هذا لتزين لي رأياً فيها وتجتلب سروري؟ قال له: يا سيدي، والله، إني لأحب سرورك، وما قلت لك إلا الجد، وبعد فإني تاجر أجمع الدراهم إلى الدرهم، طلباً للربح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم! ولم يكن في لك الزمان جارية تعرف بهذا الثمن. فقال له عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتها. قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبد الله لم يشعر إلا بالمال قد جيء به، فقيل لعبد الله:

قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار، وقال: هذا ثمن عمارة، فردها، وكتب إليه: إنما كنت أمزح معك، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها. فقال له: جعلت فداءك! إن الجد والهزل في البيع سواء. فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جاريةً تساوي ما بذلت، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحاً، وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموضعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنت مازحاً، فإني كنت جاداً، وما اطلعت على ما في نفسك وقد ملكت الجارية، وبعثت إليك بثمنها، وليس تحل لك، وما لي من أخذها من بد. فمانعه إياها، فقال له: ليست لي بينة، ولكني أستحلفك عند قبر رسول الله ، ومنبره.

فلما رأى عبد الله الجد قال: بئس الضيف أنت، ما طرقنا طارق، ولا نزل بنا نازل أعظم بليةً منك، أتحلفني فيقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفه وقهره وألجأه إلى أن استحلفه؟ أما والله ليعلمن الله، عز وجل، أني سأبليه، في هذا الأمر، الصبر وحسن العزاء.

ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه، وبتجهيز الجارية بما يشبهها من الخدم والثياب والطيب، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، وقال: هذا لك ولك عوضها مما ألطفتنا، والله المستعان.

فقبض العراقي الجارية وخرج بها، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة! إني، والله، ما ملكتك قط، ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري دارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأسلبه أحب الناس إليه لنفسي، ولكني دسيس من يزيد بن معاوية، وأنت له وفي طلبك بعث بي فاستتري مني، وإن داخلني الشيطان في أمرك، أو تاقت نفسي إليك فامتنعي.

ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس بجنازة يزيد، وقد

استخلف ابنه معاوية بن يزيد، فأقام الرجل أياماً، ثم تلطف للدخول عليه، فشرح له القصة، ويروى أنه لم يكن أحد من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونسكاً، فلما أخبره قال: هي لك وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، وارحل من يومك، فلا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام.

فرحل العراقي ثم قال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين خرجت بك من المدينة، فأخبرتك أنك ليزيد، وقد صرت لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وإني قد رددتك عليه، فاستتري مني.

ثم خرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفك الذي صنع بنا ما صنع، وقد نزل العرصة، لا حياه الله، فقال عبد الله: مه! أنزلوا الرجل وأكرموه.

فلما استقر بعث إلى عبد الله: جعلت فداءك! إن رأيت أن تأذن لي أذنةً خفيفةً لأشافهك بشيء فعلت. فأذن له، فلما دخل سلم عليه، وقبل يده، فقربه عبد الله، ثم اقتص عليه القصة، حتى إذا فرغ قال: قد والله وهبتها لك قبل أن أراها، وأضع يدي عليها، فهي لك، ومردودة عليك. وقد علم الله تعالى أني ما رأيت لها وجهاً إلا عندك. فبعث إليها، فجاءت وجاء بما جهزها به موفراً، فلما نظرت إلى عبد الله خرت مغشياً عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمها إليه.

وخرج العراقي وتصايح أهل الدار: عمارة عمارة، فجعل عبد الله يقول، ودموعه تجري: أحلم هذا، أحق هذا؟ ما أصدق بهذا. فقال له العراقي: جعلت فداءك! قد ردها عليك إيثارك الوفاء وصبرك على الحق وانقيادك له. فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أني

تصبرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسلمت لأمرك، فرددتها علي بمنك، فلك الحمد! ثم قال: يا أخا العراق ما في الأرض أعظم منةً منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقي أياماً، وباع عبد الله غنماً له بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقهرمانه: احملها إليه، وقل له: اعذر، واعلم أني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلاً لأكثر منه، فرحل العراقي محموداً وافر العرض والمال (١).

وإني أستشيرك فأشر عليَّ:

كتب يزيد بن معاوية إلى أبي هريرة يأمره أن يخطب عليه هند بنت سهيل بن عمرو أخي بني عامر بن لؤي. فجاءها أبو هريرة فخطبها على يزيد، فقالت له: فإن حسن بن عليّ خطبني، وإني أستشيرك فأشر عليّ. فقال: إني أشير عليك أن تضعي فاك حيث وضع رسول الله فاه، فتزوجت الحسن عليه السلام (٢).

أنخدع الناس أم يخدعونا؟ :

يروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية في اليوم الذي بُويعَ له بالعهد، فجعل الناس يمدحونه، ويُقرِّظونه: يا أمير المؤمنين، والله ما ندري أنخدع الناس أم يخدعونا؟. فقال له معاوية: كل من أردتَ خديعته فتخادع لك حتى تبلُغَ منه حاجتك فقد خدعته (٣).

ولو كانت أكنت تفي بها؟

بعث يزيد بن معاوية عبيد الله بن عضاه الأشعري إلى ابن الزبير فقال له: إن أول أمرك كان حسناً فلا تفسده بآخره. فقال ابن

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٢) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٧٤/٢.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ١٨/٣.

الزبير: إنه ليست ليزيد في عنقي بيعة. قال له: ولو كانت أكنت تفي بها؟ قال: نعم. قال: يا معشر المسلمين قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم ليزيد، وهو يأمركم بالرجوع عن بيعته (١).

وترك كثيراً مما كان عليه:

وفد هانئ بن قبيصة على يزيد بن معاوية فاحتجب عنه أياماً ثم إن يزيد ركب يوماً يتصيد، فتلقاه هانئ فقال: إن الخليفة ليس بالمحتجب المتخلي، المتنحي، ولا بالمتطرف المتنحي ولا الذي ينزل على العدوات والفلوات، ويخلو باللذات والشهوات، وقد وليت أمرنا، فأقم بين أظهرنا، وسهل إذننا واعمل بكتاب الله فينا، فإن كنت عجزت عما هاهنا، واخترت عليه غيره، فاردد علينا بيعتنا، نبايع من يعمل بذلك فينا ونقمه، ثم عليك بخلواتك، وصيدك وكلابك. قال: فغضب يزيد وقال: والله لولا أن أسن بالشام سنة العراق لأقمت أودك. ثم انصرف وما هاجه بشيء وإذن له ولم تتغير منزلته عنده، وترك كثيراً مما كان عليه (٢).

لست في العير ولا في النفير:

وجرى في الإسلام كلام بين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وبين عمرو الأشدق فقال عمرو ليزيد أسكت فلست في العير ولا في النفير فقال يزيد لجلسائه إن هذا الأحمق سمع كلمةً فأحب أن يتمثل بها ولم يحسن أن يضعها موضعها، يقول لي لست في العير ولا في النفير وصاحب العير جدي أبو سفيان وصاحب النفير جدي عتبة بن ربيعة(٣).

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٩٤/٤.
(٢) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ١٢/٦.
(٣) الزجاجي، الأمالي، ٣٧/١.

هلا قلت وافق المعنى تفسيراً:

سأل يزيد بن معاوية الأحنف عن المروءة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق هنيئة فقال:

وإذا جميل الوجه لم ::: يأت الجميل فما جماله
ما خير أخلاق الفتى ::: إلا تقاه واحتماله

فقال يزيد: أحسنت يا أبا بحر، وافق البم زيراً. فقال الأحنف: هلا قلت وافق المعنى تفسيراً [(١)].

أخاف أن يبلغ أمير المؤمنين!

أهدى يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر هدية فيها در وجوهر وعطر وكسى فقال للرسول: اختر ما شئت منها، فاختار فصاً من ياقوت أحمر وجد في خزائن ذي القرنين مما كان لدارا بن دارا، فقال: خذه وكل ما في السفط، فقال: أخاف أن يبلغ أمير المؤمنين! قال: ومن يبلغ ذاك إلا أنا وأنت؟ فأخذه[(٢)].

كم كان أمير المؤمنين يعطيك؟

ورد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على يزيد بن معاوية، فقال له: كم كان أمير المؤمنين يعطيك؟ قال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف. فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. قال: بأبي أنت وامي. قال: ولهذه ألف ألف. قال: أما أني لاأقولها لأحد بعدك. قال: ولهذه ألف ألف. قال: مايمنعني من الأطناب في وصفك إلا الإشفاق عليك من جودك. قال: ولهذه ألف ألف. وحمل المال معه، فقيل ليزيد: فرَّغت بيت مال المسلمين على رجلٍ واحدٍ.

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٨٥/١.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٩٧/١.

قال: إنما دفعته إلى أهل المدينة أجمعين. ثمّ وكل به من يعرفه خبره من حيث لايعلم، فلما دخل المدينة فرق المال فيها حتى أحتاج بعد شهرٍ الى القرض[١].

فما ترى فيه؟

دخل يزيد بن معاوية على أبيه فوجده مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين ما هذا الأمر الذي أشجاك؟ قال: أمر أمرضني وأقلقني منذ اليوم، وما أدري ما اعمل فيه قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الفاسق أبو دهبل كتب إلى أختك عاتكة بهذه الأبيات:

أعاتك هلا إذ بخلت فلـم تـري ::: لذي صبوة زلفى لديك ولا حقـا
رددت فؤاداً قد تولى بـه الهـوى ::: وسكنت عيناً لا تمـل ولا ترقـا
ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ::: ولم أر يوماً منك جوداً ولا صـدقاً
فواكبدي إذ ليس لي منك مجلـس ::: فأشكو الذي بي من هواك وما ألقى
وأكبر همي أن أرى منك مرسـلاً ::: وطول النهار جالس أرقب الطرقا
رأيتك تزدادين للصـب غلظـة ::: ويزداد قلبي كل يوم لكم عشـقاً

فلم تزل باكية منذ اليوم قد أفسدها الخبيث فما ترى فيه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين إن الشأن فيه لهين قال: وما هو؟ قال: عبد من عبيدك يكمن له في بعض أزقة مكة فيريحنا منه. فقال معاوية: أُفٍ لك، والله إن امرءاً يريد بك ما يريد ويسمو بك إلى ما يسمو لغير ذي رأي، فأنت قد ضاق ذرعك بكلمة، وقصر فيها باعك، حتى أردت أن تقتل فيها رجلاً من قريش. أو ما تعلم أنك إن فعلت ذلك صدقت قوله وجعلتنا أحدوثة أبداً. قال: يا أمير المؤمنين إنه قال قصيدة أخرى تناشدها أهل مكة وسارت حتى بلغتني فأوجعتني وحملتني على ما أشرت فيه قال: وما هي قال:

(١) المرزباني، نور القبس، ٦٧/١.

حمى الملــك الجبــار في لقاءهــا ::: فمن دونها تخشى المتالف والقتــل
فلا خير في حــب يخــاف وبالــه ::: ولا في حبيب لا يكون له وصــل
فواكبــدي إني ســهرت بحبــها ::: ولم تك فيما بيننــا ســاعة بــذل
ويــا عجبــاً إني أُكــاتم حبــها ::: وقد شاع حتى قطعت دونها السبل

فقال معاوية: قد والله رفهت عني فما كنت آمن أن يكون وصل إليها، فإما وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصل ولا بذل فالخطب أيسر علي، قم عني واكتم ما كان. فقام يزيد وانصرف. وحج معاوية في تلك السنة، فلما انقضت أيام الحج كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وكتب فيهم اسم أبي دَهْبَل، ثم دعاهم ففرق في جميعهم الصلات السنية، وأجازهم الجوائز الكثيرة فلما قبض أبو دهبل جائزته وقام لينصرف، دعا معاوية إليه فقال له: يا أبا دهبل مالي أرى أبا خالد يزيد ابن أمير المؤمنين عليك ساخطاً في قوارص ثابتة عنك، وشعر لا تزال قد نطقت به وأُنفذ إلى خصمائنا وموالينا؟ لا تعرض لأبي خالد، فجعل أبو دهبل يعتذر إليه ويحلف أنه مكذوب عليه. فقال له معاوية: لا بأس عليم وما يضرك هذا عندنا، هل تأهلت؟ قال: لا. قال: فأي بنات عمك أحب إليك قال: فلانة. قال: قد زوجكها أمير المؤمنين وأصدقها عنك ألفي دينار وأمر لك بألف دينار. فلما قبض قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفو لي عما مضى فإن نطقت ببيت في معنى ما سبق مني فقد أبحت به دمي وفلانة التي زوجنيها أمير المؤمنين طالق البتة. فسرّ بذلك معاوية، وضمن له أن يرضي يزيد عنه، ووعده بإدرار ما وصله به كل سنة وانصرف إلى دمشق، ولم يحج معاوية في تلك السنة إلا من أجل أبي دهبل (١).

من كلامه ـ غفر الله له ـ:

(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ١/٦٥.

- قال يزيد بن معاوية على مِنبره: ثلاثٌ يُخْلِقنَ العقل وفيها دليل على الضّعف: سرعةُ الجواب وطُول التمنّي والاستغراق في الضَّحك(١).

خطب يزيد بن معاوية توفي سنة ٦٤هـ:

خطبته بعد موت معاوية:

الحمد لله الذي ما شاء صنع من شاء أعطى ومن شاء منع ومن شاء خفض ومن شاء رفع إن أمير المؤمنين كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ثم قطعه حين أراد أن يقطعه وكان دون من قبله وخيرا ممن يأتي بعده ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه فإن يعف فبرحمته وإن يعاقبه فبذنبه وقد وليت بعده الأمر ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم وعلى رسلكم إذا كره الله شيئا غيره وإذا أحب شيئا يسره.

خطبة أخرى له:

الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اصطفاه لوحيه واختاره لرسالته بكتاب فصله وفضله وأعزه وأكرمه ونصره وحفظه ضرب فيه الأمثال وحلل فيه الحلال وحرم فيه الحرام وشرع فيه الدين إعذارا وإنذارا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ويكون بلاغا لقوم عابدين أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه وإليه يصير معادها

(١) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٥/١٦٠.

وانقطاع مدتها وتصرم دارها ثم إني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وأينعت بالفاني وتحببت بالعاجل لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعتها أكالة غوالة غرارة لا تبقي على حال ولا يبقى لها حال لن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز و جل: { وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ } [الكهف: ٤٥]، نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله:{ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ } [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم:{ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ } [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩] (١).

وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه :

لما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له إن أباك كفى أخاه يعني معاوية عظيما وقد استكفيتك صغيرا فلا تتكلن على عذر مني لك فقد اتكلت على كفاية منك وإياك مني قبل أن أقول إياي منك فإن الظن إذا أخلف منك أخلف مني فيك وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه وقد أتعبك أبوك فلا تريحن نفسك وكن لنفسك تكن لك واذكر في يومك أحاديث غدك تسعد إن شاء الله تعالى

(١) جمهرة خطب العرب ، ٢ /١٨٩.

(١).

- وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد: إن أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتُك صغيراً، فلا تتَّكِلن مني على عُذْر، فقد اتكلت منك على كِفاية، ولأنْ أقولَ لك: إياك، أحبُّ إليّ من أن أقول: إياي؛ فإن الظنّ إذا أخلف فيك أخلف منك، فلا تُرحْ نفسَك وأنت في أدنى حظّك، حتى تَبْلُغ أقصاه؛ واذكرْ في يومك أخبارَ غَدِك، واستَزِدْنِي بإحسانك إلى أهل الطاعة، وإساءتك إلى أهل المعصية، أزدْك إن شاء الله تعالى (٢).

- قال يزيد بن معاوية: ثلاث يخلقن العقل، وفيهن دليل على الضعف: سرعة الجواب، وطول التمني، والاستغراب في الضحك(٣).

- كتب يزيد بن معاوية لسالم بن زياد قليل العتاب يؤكد أواخي الأسباب وكثيره يقطع وصائل الأنساب

لا تكثرن في كل حادثة ::: عتب الصديق فإنه يهفو
هب مشرباً يصفو فتحمده ::: أترى المشارب كلها تصفو(٤)

* * *

(١) جمهرة خطب العرب ، ٢ /١٨٩.
(٢) القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ٣٧٦/٢.
(٣) الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ٦٩/١.
(٤) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٢٤١/١.

مروان بن الحكم

مروان بن الحكم

.. هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم ولد بمكة وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد بن جبر، وأبنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عن عثمان يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش، وكان يتتبع قضاء عمر، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان، وكان إذا وقعت معضلة - أثناء ولايته على المدينة - جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء وكان شديد الحب لبني أمية، وكان متحمساً لبيعة يزيد بن معاوية ولما توفي يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي[1].

ولم يبايع مروان ابن الزبير والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودين بالشام حوله وبايعوه وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هو الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده عبد الملك، وعبد العزيز - بولاية العهد، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٧٦/٣.

مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وثنوه عن عزمه واقنعوه أن يدعو لنفسه. ونجح مروان في القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام وإعادة مصر إلى الأمويين وحاول إعادة العراق والحجاز ولكنه لم يتم هذا العمل وترك إستكماله لابنه عبد الملك.

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولاً ومن ثم يتيسر له القضاء عليه، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية [١] لأهل الشام.

ففي الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، واجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات، وقد دارت نقشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء،

حسان بن مالك بن بحدل الكلبي والحصين بن نمير السكوني، وروح بن زنباع الجذامي، ومالك بن هبيرة السكوني وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية

(١) الجابية: بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان.

وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك.

وكانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، استبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، مبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، أن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفوياً، الاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين إتباع ابن الزبير في الشام بادي الأمر[1].

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني وانعقدت البيعة لمروان وحل مؤتمر الجابية، مشكلة الخلافة بين بني أمية - وكانت هذه خطوة حاسمة ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وأنضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحاً أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها، وكان أول فتح على بني أمية ولم يضيع مروان وقتاً، فقد عبأ

(١) د. شحادة الناطور، عبد الله بن الزبير، ص١٣٢، إسماعيل الجبوري، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، صـ٤٦، ٤٧، سليمان بن صالح الخراشي، عبد الله بن الزبير، ص١٤٧..

أنصاره من قبائل اليمن في الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته، عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان حيث هزم القيسيون، أنصار بن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام، واستمرت المعركة حوالي عشرين يوماً، وكانت في نهاية سنة ٦٤ هـ، وقيل في المحرم سنة ٦٥ هـ.

وترتب علي تلك المعركة أن أعادت الملك لبني أمية بعد أن كان مهدداً بالزوال، وحوّلت السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني وتخلص الأمويين من الضحاك بن قيس الذي كان يعتبر معارضاً قوياً للأمويين، وتابعاً مخلصاً لابن الزبير وسقطت قنسرين في يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحرثي وسقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامي إلى ابن الزبير، وسقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير واندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصراً مؤقتاً، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية[١].

كما مكّن انتصار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في

(١) ابن الأثير، الكامل، ٦١٨/٢، تاريخ الطبري، ٤٧٣/٦، الصلابي، الدولة الأموية، ٢٢٣/١.

مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعباً، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سراً وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد ابن يزيد بن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالباً العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه، وكان نجاح مروان في استرداد مصر من جمادي الآخرة سنة ٦٥هـ، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له: يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عيناً على غيره، وينقاد قومه إليك وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟ (١).

بعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ١ /٢٢٣.

التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئاً من أهدافها في عهد مروان إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث في قرقيسيا وعند مجيء عبد الملك أقر هذه الحملة التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد، أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشاً من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[١].

وختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسداً لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين، فبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموي، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذي قرر في مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بتولية العهد لولديه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذي كان يطالب بولاية العهد بعد مروان وأعلن ذلك بعد رجوعه من قتال مصعب ابن الزبير، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وذلك سنة ٦٥هـ مستعيناً بحسان بن مالك بن بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيد بن الأشدق بأن الأخير هو ولي العهد فقال حسان: أنا أكفيك عمرو. لهذا جمع الناس

(١) عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص٥٧، ٦٠.

وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد(١).

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٦٥هـ وهو ابن ثلاث وستين سنه، وصلى عليه ابنه عبد الملك وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ودفن بين باب الجابية وباب الصغير، وقد اختلف في سبب وفاته إذ وردت ثلاث روايات فيها الأولى - ترى أنه توفي بالطاعون، وتذهب الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقته سماً فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات، وثالثة ترى أنه توفي وفاة طبيعية، وتناقض الروايات تدل على أن الحقيقة غير معروفة (٢).

مواقف من حياته ـ غفر الله له ـ:

أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان:

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يومٍ بمجلسٍ كان له بدمشق على قارعة الطّريق، وكان المجلس مفتّح الجوانب لدخول النّسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لجلسائه: لم يخلق الله ممّن أحتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثمّ قال: يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصّته فوالله لئن كان فقيراً لأغنينّه، ولئن كان شاكياً لأنصفنّه، ولئن كان مظلوماً لأنصرنّه، ولئن كان غنياً لأفقرنّه. فخرج إليه الرسول متلقياً فسلّم عليه فردّ عليه السّلام. ثمّ قال له: ممّن الرّجل؟ قال: سيّدي أنا رجلٌ أعرابيٌّ من بني عذرة، أقبلت إلى أمير

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٤٩/٥ - ١٥٠، عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص٥٧ - ٦٠.
(٢) عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص٥٧ - ٦٠.

المؤمنين مشتكياً إليه بظلامةٍ نزلت بي من بعض عمّاله. فقال له الرّسول: أصبحت يا أعرابي؟ ثمّ سار به حتّى وقف بين يديه فسلّم عليه بالخلافة ثمّ أنشأ يقول:

معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل ::: ويا ذا النّدى والجود والنّابل الجزل
أتيتك لّما ضاق في الأرض مـــذهبي ::: فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصافٍ من الجّائر الـــذي ::: شواني شيّاً كـــان أيســـره قتلـــي
سباني سعدى وانـــبرى لخصـــومتي ::: وجار ولم يعدل، وأغصبني أهلـــي
قصدت لأرجـــو نفعـــه فأثـــابني ::: بسجنٍ وأنواع العذاب مع الكبـــل
وهـــمّ بقتلـــي غـــير أن منـــيّتي ::: تأبّت، ولم أستكمل الرّزق من أجلي
أغـــثني جـــزاك الله عنّـــي جنّـــةً ::: فقد طار من وجدٍ بسعدى لها عقلي

فلمّا فرغ من شعره قال له معاوية: يا إعرابي إنّي أراك تشتكي عاملاً من عمّالنا ولم تسمعه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمّك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصّتك معه يا أعرابي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عمٍّ خطبتها إلى أبيها فزوّجني منها. وكنت كلفاً بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقرابة. فبقيت معها يا أمير المؤمنين، في أصلح حالٍ وأنعم بالٍ، مسروراً زماناً، قرير العين. وكانت لي صرمةٌ من إبلٍ وشويهات، فكنت أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أقضية الله وحوادث الدّهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئاً، وصرت مهيناً مفكّراً، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلمّا بلغ ذلك أباها حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطردني، ودفعها عنّي. فلم أدر لنفسي بحيلةٍ ولا نصرةٍ. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكياً بعمّي، فبعث إليه، فلمّا وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيّها الرّجل لم حلت بين

ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجّارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأتت الجّارية مسرعةً، فلمّا وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السّجن. فبقيت كأني خررت من السّماء في مكانٍ سحيقٍ، ثمّ قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوّجها منّي، وأنقدك ألف دينارٍ، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهمٍ تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوّجتها منك.

فلمّا كان من الغد بعث إليّ، فلمّا أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلّق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردّني إلى السّجن، فلمّا كان في اليوم الثّاني قال: عليّ بالأعرابي. فلمّا وقفت بين يديه، قال: طلّق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلّط عليّ يا أمير المؤمنين خدّامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثمّ أمر بي إلى السّجن؛ فلمّا كان في اليوم الثالث قال: عليّ بالإعرابي، فلمّا وقفت بين يديه قال: عليّ بالسّيف والنّطع وأحضر السيّاف، ثمّ قال: يا أعرابي، وجلالة ربّي، وكرامة والدي، لئن لم تطلّق سعدى لأفرّقنّ بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلّقتها طلقةً واحدةً على طلاق السّنّة، ثمّ أمر بي إلى السّجن فحبسني فيه حتّى تمّت عدّتها ثمّ تزوّجها، فبنى بها، ثمّ أطلقني. فأتيتك مستغيثاً قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبّها بلا عقلٍ، ثمّ انتحب حتىّ كادت نفسه تفيض. ثمّ أنشأ يقول:

في القلـــــب منّـــــي نـــــارٌ ::: والنّـــــار فيـــــه الـــــدّمار
والجّســـــم منّـــــي ســـــقيمٌ ::: فيـــــه الطّبيـــــب يحـــــار
والعـــــين تهطـــــل دمعـــــاً ::: فـــــدمعها مـــــدرار
حملـــــت منـــــه عظيمـــــاً ::: فمـــــا عليـــــه اصـــــطبار
فلـــــيس ليلـــــي ليـــــلٌ ::: ولا نهـــــاري نهـــــار
فـــــارحم كئيبـــــاً حزينـــــاً ::: فـــــؤاده مســـــتطار
اردد علـــــيّ ســـــعادي ::: يثيبـــــك الجبّـــــار

ثمّ خرّ مغشيّاً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنّه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئاً، فلمّا نظر إليه قد خرّ بين يديه قام ثمّ جلس، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضراراً في حدود الدّين، وإحساراً في حرم المسلمين: ثمّ قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديثٍ ما سمعت بمثله. ثمّ قال: يا غلام عليّ بداوةٍ وقرطاسٍ فكتب إلى مروان: أمّا بعد، فإنّه بلغني عنك أنّك اعتديت على رعيّتك في بعض حدود الدّين، وانتهكت حرمة لرجلٍ من المسلمين. وإنّما ينبغي لمن كان والياً على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضّ بصره وشهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. وإنّما الوالي كالرّاعي لغنمةٍ، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذئباً فمن يحوطها بعده. ثمّ كتب بهذه الأبيات:

ولّيت، ويحك أمراً لست تحكمــه ::: فاستغفر الله من فعل امــرئ زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدب ::: مع القــراطيس تمثــالاً وفرقــان
حتّى أتانا الفتى العــذريّ منتحبــاً ::: يشــكو إلينــا ببــثٍّ ثمّ أحــزان
أعطي الإلــه يمينــاً لا أكفّرهــا ::: حقّاً وأبــرأ مــن ديــني وديــاني
إن أنت خالفتني فيما كتبــت بــه ::: لأجعلنّــك لحمــاً بــين عقبــاني
طلّــق ســعاد وعجّلــها مجهّــزةً ::: مع الكميت، ومع نصر بن ذبيــان
فما سمعت كما بلّغــت في بشــرٍ ::: ولا كفعلك حقــاً فعــل إنســان

فاختر لنفسك إمّا أن تجود بها ::: أو أن تلاقي المنايا بين أكفان

ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد. فلمّا وقفا بين يده قال: اخرجا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجا بالكتاب حتّى وردا به عليه، فسلما ثمّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلمّا نظرت إليه قالت له: سيّدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلّقك وأجهّزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلّقها وجهّزها ثمّ كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد ::: أوفي بنذرك في رفقٍ وإحسان
وما ركبت حراماً حين أعجبني ::: فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنّك لو أبصرتها لجرت ::: منك الأماقي على أمثال إنسان
فسوف يأتيك شمسٌ لا يعادلها ::: عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
لولا الخليفة ما طلّقتها أبداً ::: حتّى أضمّنّ في لحدٍ وأكفان
على سعادٍ سلامٌ من فتىً قلقٍ ::: حتّى خلّفته بأوصابٍ وأحزان

ثمّ دفعه إليهما، ودفع الجّارية على الصّفة التي حدّث له. فلمّا وردا على معاوية فكّ كتابه وقرأ أبياته ثمّ قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثمّ أمر بالجّارية فأدخلت إليه، فإذا بجاريةٍ رعبوبةٍ لا تبقي لناظرها عقلاً من حسنها وكمالها. فعجب معاوية من حسنها ثمّ تحوّل إلى جلسائه وقال: والله إنّ هذه الجّارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النّعمة مع حسن الصّفة، لقد كملت النّعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلمّا وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلوٍ، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ مع كلّ جاريةٍ منهنٍ ألف درهمٍ، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر خلعٍ من الخزّ والدّيباج والحرير والكتّان، وأجري عليك وعليهنّ ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظاً من الصّلات والنّفقات؟ فلما أتمّ معاوية كلامه غشي على الأعرابيّ وشهق شهقةً ظنّ معاوية أنّه قد مات منها. فلّما أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شرّ بالٍ، وأسوأ حالٍ، أعوذ بعد لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلني هـداك الله مـن ملـكٍ ::: كالمستجير من الرّمضاء بالنّـار
أردد سعاد على حـرّان مكتئـب ::: يمسي ويصبح في هـمٍّ وتـذكار
قد شفّته قلـقٌ مـا مثلـه قلـقٌ ::: وأسعر القلـب منـه أيّ إسـعار
والله والله لا أنسـى محبّتـها ::: حتّى أغيّب في قبري وأحجـاري
كيف السّلوّ وقد هام الفؤاد بها ::: فإن فعلـت فـإني غـير كفّـار
فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ ::: لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعـار

ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلّ ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:

أبى القلب إلاّ حبّ ليل وبغّضت ::: إليّ نسـاءٌ مـا لهـن ذنـوب
وما هـي إلاّ أن أراهـا فجـاءةً ::: فأبهت حتّـى لا أكـاد أجيـب

فلمّا فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك مقرٌّ عندنا أنّك قد طلّقتها، وقد بانت منك ومن مروان، ولكن نخيّرها بيننا. قال: ذاك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحوّل معاوية نحوها ثمّ قال لها: يا سعدى أيّنا أحبّ إليك: أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره، أو مروان في غصبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجّارية نحو ابن عمّها

الأعرابي، ثمّ أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جـــوعٍ وأطمـــار ::: أعزّ عندي من أهلي ومن جـــاري
وصاحب التّاج أو مروانُ عاملـــه ::: وكلّ ذي درهمٍ منـــهم ودينـــار

ثمّ قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحقّ من صبر معه على السّرّاء والضّرّاء، وعلى الشّدّة والرّخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهمٍ وألحقها في صدقات بيت المسلمين [١].

يعوقني عنه أبوك وينهاني:

عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي عن أبيه قال كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام فلما ولي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب فقال له مروان ما نيتك فأخبره فقال له تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث فقال والله لقد هممت بالإسلام غير مرة وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني ويقول تدع دين آبائك لدين محمد فأسكت مروان وندم على ما كان.

أظنك أحمق:

قال مروان لحبيش بن دلجة أظنك أحمق، فقال أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنه[٢].

لقد هممت أن أفعل وأفعل:

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ٣/١ - ٤.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص ٦٢.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: اسمعوا من أميركم (١).

كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟

وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الشكر، وحاجته إلى القضاء أشد من حاجة صاحب الحاجة (٢).

وما هي؟

بينما مُعاوية بن أبي سُفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالباب؟ فقال معاوية: إنْ دخل أفسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحَكَم: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جَواب؛ قال مُعاوية: لا تَفعل، فإنهم قوْم قد. ألهموا الكلامَ، وأذن له. فلما دَخل وجَلس، قال له مَرْوان: أسرْع الشيبُ إلى شاربك يا حسن، ويُقال إن ذلك من الخُرْق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنّا - معشر بني هاشم - أفواهُنا عَذْبةٌ شِفَاهُها، فنساؤنا يُقبِلن علينا بأنفاسهنّ وقبَلِهن، وأنتم معشرَ بني أمية فيكم بَخَر شديد، فنساؤكم يَصرفن أفواههنّ وأنفاسهن عنكم إلى أصْداغكم، فإنما يَشِيب منكم موضعُ العِذار من أجل ذلك. قال مَروان: إن فيكم يا بني هاشم خَصْلة سَوء؟ قال: وما هي؟ قال: الغُلمة؟ (٣) قال: أجل، نُزعت الغُلمة مِن نسائنا ووُضعت في رجالنا، ونُزعت الغُلمة من رجالكم ووُضعت في نِسَائكم، فما قام لأموية إلا

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١/١٦.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١/٦٤.
(٣) الغُلمة - شَهْوة النّكاح من الرجال والنّساء.

هاشميّ. فغضِب مُعاوية، وقال: قد كنتُ أخبرتكم فأبيتم حتى سَمِعتم ما أظلم عليكم بَيْتَكم، وأفسد عليكم مَجْلِسكم. فخَرج الحسنُ وهو يقول:

ومارستُ هذا الدَهرَ خمسين حِجَّةً ::: وخَمْساً أزَجِّي، قائلا بعد قائل
فلا أنا في الدُّنيا بلغتُ جَسيمها ::: ولا في الذي أهْوَى كدحتُ بطائل
وقد شَرَعت دوني المَنايا أكُفَّها ::: وأيقنتُ أنّي رَهْنَ مَوْتٍ مُعاجل (١)

أَشِرْ عليّ في الحُسين!

قال العُتبيّ: دعا مُعاويةُ مَروان بن الحكم، فقال له: أشِر عليّ في الحُسين؛ قال: تخرجه معك إلى الشام فتَقطعه عن أهل العراق وتَقطعهم عنه؛ قال: أردتَ والله أن تستريح منه وتَبْتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأتُ إليه كُنتُ قد قطعتُ رحمه. فأقامه، وبعث إلى سعيد بن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشِرْ عليّ في الحُسين؟ قال: إنك والله ما تخاف الحسين إلا على مَن بعدك، وإنك لتُخلِّف له قِرْنا إنْ صارعه ليَصْرعنّه، هانْ سابقه لَيَسبقنّه، فَذَرِ الحُسين منبتَ النّخلة، يشربْ من الماء، ويَصْعد في الهواء، ولا يَبْلغ إلى السماء؛ قال: فما غَيّبك عنّي يوم صِفّين؟ قال: تَحملتُ الحُرم، وكُفيتَ الحَزْم، وكنتُ قريباً، لو دعوتَنا لأجبناك، ولو أمرت لأطعناك؛ قال معاوية: يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم (٢).

الصبر على خيانة الولاة:

كان مروان بن الحكم له غلام وكله بأمواله فقال له يوماً: أظنك تخونني! فقال: قد يخطأ الظن، اتخذتني في مدرعة صوف ولم أملك

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤٦٨/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤٦٩/١.

قيراطاً، وأنا اليوم أتصرف في ألوف وأتبختر في خزوز، إني أخوّنك وأنت تخون معاوية، ومعاوية يخون الله ورسوله! [١].

كلام مروان بن الحكم وولده في الخلفاء:

كتب مروان إلى النعمان بن بشير يخطبُ إليه ابنته أُمَّ أبانٍ لابنه عبد الملك: بسم الله الرحمن الرحيم. من مروان بن الحكم إلى النعمان بن بشير. سلام عليك، فإني أحمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن لله ذو الجلال والإكرام والعظمة والسلطان، قد خصَّكم - معاشر الأنصار - بنُصرة دينه، وإعزاز نبيه محمدٍ وقد جعلك منهم في البيْتِ العميمِ، والفرع القديم. وقد دعاني إلى إحباب مصاهرتك والإيثار لك على الأكفاءِ من ولدِ أبي. وقد أحبَبْتُ أن تزوِّجَ ابني عبد الملك بن مروان ابنتك أمَّ أبانٍ بنتَ النعمان، وقد جعلت صداقها ما نطق به لِسانكَ وترنَّمتْ به شفتاك، وبلغهُ مُناك. وحكمت به في بيت المالِ قبلكَ. فكتب إليه النعمان: من النعمان بن بشير إلى مروان ابن الحكم. بدأت باسمي سُنة من رسول الله وذلك أني سمِعْتُ خليلي يقول: إذا كتب أحدُكم إلى أحدٍ فلْيبدأ بنفسهِ.

أما بعد، فقد بلغني كتابُكَ، تذكر من مودَّتِك ما أراك صادقاً، فغُنْماً أصبت، وبحظّك أخذْتَ، ونفسَكَ زكّيْتَ، لأناً ناسٌ قد جعل الله حميداً حُبنا إيماناً، وبُغْضنا نفاقاً. وأما ما أطْنَبْتَ فيه من ذكرُ شرفنا، وقديم سلفنا، ففي مدح الله لنا وذكرهِ إيانا في كتابهِ المنزل، وقرآنه المفصَّل على نبيه ما أغنى به عن مدح غيره من المخلوقين، فأما ما ذكرْتَ من إيثارك إياي بابنك عبد الملك على الأكفاء من ولد أبيك، فحظّي منك مردودٌ عليهم، موفَّرٌ لهم غير مشاحٍّ فيه، ولا منافسٍ

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٧٢/١.

عليه، وأما ما ذكرتَ من بذْلِك لي من بيت المال قبلي، وبما نطق به لساني، وترنَّمتْ به شفتاي، وبلغه مناى، فلعمري لقد أصبح حظي فيه - والحمدُ لله - أوفرَ من حظّكَ، وسهْمي فيه أجزلَ من سهمِكَ، وأمري فيه أجوزَ من أمرِكَ، وبعدُ: فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصبَحتْ.. لها حقدٌ مما يُعَدَّ كثيرُ ولكنها نفسٌ عليَّ كريمةٌ.. عَيوفٌ لأصهارِ اللئامِ قذورُ في أبياتٍ أُخر قال معاوية لمروان: منْ تَرى لأهل العراق؟ قال: من لا يَفْحجُ الحلوبَ حتى تدنوَ الدِّرَّة، ولايدني العلبة حتى تمسَحَ الضرَّةَ. وقال مروان لابنه: آثر الحق، وحصِّنْ مملكتَكَ بالعدل، فإنهُ سورها المنيع الذي لا يُغْرِقُهُ ماءٌ، ولا تحرقُهُ نارٌ، ولا يهدِمُهُ منجنيق. وذكر أبو هريرة معاوية في مجلس فيه مروان فاغتابه، ثم خاف أن يبلُغَ معاوية ذلك، فقال: إنَّ رسول الله قال: " المجالسُ بالأمانة " وسأل مروان أن يكتم عليه. فقال مروانُ: والله. لما ركبت مني في ظنِّك بي أنيِّ أنقلُ حديثكَ أعظمُ ممَّا ركبتَ من معاوية[١].

ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيراً منه:

حبس مروان بن الحكم رجلاً من بني عبس فأتاه بشيخ منه فكلمه فيه فأبى أن يطلقه. فقال: أما والله لئن كنت حبسته، لقد كان تقياً، ذا مروءة. قال: وما المروءة فيكم يا أخا بني عبس؟ قال: صدق الحديث وصلة الرحم، وإصلاح المال. فأعجب مروان وكان إذا أعجب الشيء دعا له ابنيه عبد الملك وعبد العزيز ليسمعاه، قال: فدعاهما ثم استعاده، فأعاد الشيخ القول، وحضر طعام مروان فدعاه إلى طعامه فلم يجبه، فدعا ابنا له كان معه فأجاب. قال مروان للشيخ. ابنك خير منك يا أخا بني عبس، دعوناك إلى طعامنا فلم تجب،

(١) الآبي، نثر الدر، ٢٩/٣ - ٣٠.

ودعوناه فأجاب فقال العبسي: ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيراً منه. فضحك مروان حتى استلقى وأطلق له صاحبه (١).

أتقضي لي ثلاثين حاجة!

وقال مروان بن الحكم يوماً إني مشغوف ببغلة للحسن بن عليّ - عليهما السلام - فقال له ابن أبي عتيق: إن دفعتها إليك أتقضي لي ثلاثين حاجة؟ ومروان يومئذ أمير بالمدينة. قال: نعم، قال: إذا اجتمع الناس عندك العشية فإني آخذ في مآثر قريش، وأمسك عن ذكر الحسن، فلُمني على ذلك، فلما أخذ القوم مجالسهم أفاض في أوليّة قريش. فقال له مروان: ألا تذكر أوليّة أبي محمد، وله في هذا ما ليس لأحد؟ قال: إنما كنا في ذكر الأشراف، ولو كنا في ذكر الأنبياء لقدّمنا لأبي محمد ماله. فلما خرج ليركب تبعه ابن أبي عتيق، فقال له الحسن - عليه السلام، وتبسّم - ألك حاجة؟ فقال ذكرت البغلة، فنزل الحسن ودفعها إليه (٢).

أفرضوا له:

قال عبد الرحمن: وقف أعرابي على مروان بن الحكم وهو يفرض للناس بالمدينة فقال له: افرض لي فقال: قد طوينا الكتاب. فقال: افرض لي. فقال: قد طوينا الكتاب. فقال: أما علمت إني القائل الوافر:

إذا هزّ الكريم يزيد خيرا ::: وان هزّ اللئيم فلا يزيد

فقال له مروان: نشدتك بالله أنت القائل له؟ قال: نعم. قال: أفرضوا له (٣).

(١) الآبي، نثر الدر، ٢٨/٦.
(٢) الآبي، نثر الدر، ١٧٨/٧.
(٣) الزجاجي، أخبار أبي القاسم الزجاجي، ٤٤/١.

فقد طمع فيه من هو دونه:

نازع عبد الله بن الزبير مروان بن الحكم عند معاوية، فقال ابن الزبير: يا معاوية لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه [١]، ويضرب صفاتهم بمعوليه، فإنه لولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشةٍ وريشة نعامة، وأقل في نفوسنا من خشاشة، ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقاً تخافه. فقال له معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن تركه تركه لمن هو فوقه، وإن أراكم منتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند ملمة، ويسومكم خسفاً، ويوردكم حتفاً. قال ابن الزبير: إذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حافتاه الأسل، لها دوي كدوي الريح، تتبع غطريفاً من قريش لم تكن أمه براعية ثلة. فقال معاوية: أنا ابن هند أطلقت عقال الحرب، فأكلت ذروة السنام، وشربت عنفوان المكرع، وليس للآكل إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق[٢].

مالك لم تجب صاحبك!

وروى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير اجتمعا ذات يوم في حجرة عائشة - رضي الله تعالى عنها - والحجاب بينهما وبينها، يحدثانها ويسألانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعةً وعائشة تسمع، فقال مروان:

فمن يشأ الرحمن يخفض بقدره ::: وليس لمن لم يرفع الله رافع

فقال ابن الزبير:

ففوض إلى اله الأمور إذا اعترت ::: وبالله لا بالأقربين أدافع

(١) المِشْقصُ: سَهْمٌ فِيه نصْلٌ عَرِيضٌ يُرْمَى به الوَحْشُ.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٢/١٠٠.

فقال مروان:

وداو ضمير القلب بالبر والتقــى ::: فلا يستوي قلبان: قاسٍ وخاشــع

فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان، هذا مكــذب ::: عتل لأرحــام العشــيرة قــاطع

فقال مروان:

وعبد يجافي جنبــة عــن فراشــه ::: يبيت يناجي ربــه وهــو خاشــع

فقال ابن الزبير:

وللخير أهــل يعرفــون بهــديهم ::: إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع

فقال مروان:

وللشر أهل يعرفــون بشــكلهم ::: تشير إلــيهم بــالفجور الأصــابع

فسكت ابن الزبير ولم يجب، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا عبد الله، مالك لم تجب صاحبك! فوالله ما سمعت تجادل رجلين تجادلاً في نحو ما تجادلتما فيه، أعجب إلى من تجادلكما؛ فقال ابن الزبير: إني خفت عوار القول فكففت، فقالت عائشة رضي الله عنها: أما إن لمروان إرثاً في الشعر ليس لك من قبل صفوان بن المحارث الكناني - وكانت أم مروان آمنة بنت علقمة بن صفوان [(١)].

من كلامه ـ غفر الله له ـ:

- وجبت الجنة لمن خاف النار.

- ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر، وقال له حين ودعه: أرسل حكيماً ولا توصه. أي بني، انظر إلى عمالك، فإن كان لهم عندكم حق غدوة فلا

(١) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ١/٥١.

تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق. واستشير جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة؛ فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا واستخلف الله عليك (١).

- قال مروان بن الحكم لابنه يوصيه: آثر الحق وحصن مملكتك بالعدل فإنَّه سورها المنيع الذي لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه منجنيق (٢).

* * *

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٢/١.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١١٧/١.

عبد الملك بن مروان

أعلام الخلفاء الأمويين

عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

ولد في سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذّبان (1).

ثناء العلماء عليه:

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد ابن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة.

وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أبا - يعني عبد الملك - ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه.

وعن يحي بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر، في أمر الله، والورع عن محارم الله. وقد صدق رحمه الله.

وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا

(1) البداية والنهاية، 11/377 - 379.

عبد الملك بن مروان، فإنّني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه. وروى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل.

وروى ابن أبي الدينا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة سبِّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبَّروا بنا حتى نأتي تلك الحجر، ونحو ذلك[1].

شهد عبد الملك بن مروان عدة أحداث سياسيةوعسكرية ساهمت في تشكيل فمره السياسي والعسكري، فقد شهد مقتل عثمان رضي الله عنه، وتولي على هجر في عهد معاوية ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت، وشارك في الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم ويشتي هناك في سنة ٤٢هـ، كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية ابن حديج وكلفه بفتح جلولا في بلاد الشمال الإفريقي وفي عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير ما على الأرض اليوم خيراً منه، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسي في عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائباً عنه روح بن زنباع، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى في دمشق قريباً من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك لاسيما أن الفترة التي تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى أمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[2].

ومن المواقف الصعبة في حياة عبد الملك مواجهته لجماعة

(١) البداية والنهاية، ٣٧٩/١١ - ٣٨٥.
(٢) الدور السياسي لأهل اليمن ص٦٤ - ٦٥.

التوابين[١] والقضاء عليهم حيث التقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام ٦٥هـ وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم [٢].

وله من الأعمال: قتال الخوارج ومن أشهر فرقهم التي قاتلها الأزارقة [٣] والصفرية [٤]، والقضاء علي ثورة عبد الرحمن بن

---

(١) بعد أن عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، وثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في شهر ربيع الأول ٦٥هـ وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام.

(٢) البداية والنهاية، ١١/ ٧٠٣، الكامل في التاريخ، ٦٣٩/٢، محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص٧٢.

(٣) الأزارقة: هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفاً في الأفكار والمبادئ وجنوحاً إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار.

(٤) الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية وفي تعيين نسبتهم أقوالاً عدة، فقيل إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد الله بن صفار وقيل: عبد الله بن قبيصة وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى تلك الصفرة.

الأشعث[١] وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي [٢].

وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يصفي خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول، وقد عمل على توطين الأمن في البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات، ومن أشهر الحركات التي خرجت في عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث واستطاع أن ينتصر عليها جميعاً، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين

---

(١) هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموي، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجّاج بن يوسف وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ. ولم نعلم له صحبة استعمله عمر بن الخطاب على جيش، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين، وقد قال النبي ﷺ: يكون في ثقيف كذاب ومبير، فكان الكذاب هذا، ادَّعى أنَّ الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وكان يسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين.

بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له ومذهب عامة أهل السنة والجماعة، أن الإمامة يصح أن تنعقد لمن غلب الناس، وقعد بالقوة في موضع الحكم، إلا أنه يجب أن يفهم أن هذه حال ضرورة والضرورات تبيح المحظورات فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى التي تعم الناس. وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة في الإمام الحق بالوسائل التي لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعي دائماً لأن يكون الإمام آتياً عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظراً إلى حال الضرورة، إلا أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقاً لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين، وإذ حال القهر يمكن أن يتسامح فيها في بعض شروط الإمامة كالعلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسلام لا يمكن أبداً إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعاً - كما يرى ذلك الجمهور - السكوت على هذا الوضع ويجب خلع هذا المتغلب بقوة السلاحلأن الله سبحانه يقول:{وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } [النساء: ١٤١].

أهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على

سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان، وقد أعاد عبد الملك تنظيم الحكم الأموي على أسس جديدة واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التي وضعها ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضي الله عنه في كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية في النقد والقول، والرأي، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشيء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئاً، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيماً جعله السيد المتفرد في دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت دواوين الدولة، والولاة.

ولعل أهم أعمال عبد الملك بن مروان الإدارية هي تعريب الدواوين والتي نتج عنها تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، وظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين وظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، كما كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية، و تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات وأجبر الموالي لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العاليةوأوجد نظام إداري موحد

وشامل للدولة [1].

لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، وقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتخن حنين الجارية والأمة، إذا مت فشمر واتزر، وألبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشاً يا وليد: أتقي الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي، و انظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها، أنظر إلى ابن عمنا علي بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصله رحمه، واعرف حقه، وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فاكرمه، فإنه هو الذي مهد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أمٍ واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعنا فرامها ::: بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ مفند
عزت فلم تكسر وإن هي بددت ::: فالكسر والتوهين للمتبدد

ثم قال: إذا أنا مت فادعو الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فاكرمهن، وأحبهن إليَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي ماريا، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظني فيها[2].

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن

(١) الصلابي، الدلة الأموية، ٣٩/٣.
(٢) البداية والنهاية، ٣٩٢/١٢، ٣٩٣.

أموت في رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات، مات بدمشق سنة ٨٦هـ يوم الجمعة وقيل الأربعاء وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل ثلاث وستين سنة وقيل ثمان وخمسين سنة، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير [١].

مواقف من حياته :

فأعلم أنها ستكر حتى توفي نذرها:

ودخل أرطأة على عبد الملك بن مروان وكان شيخا كبيرا فاستنشده ما قاله في طول عمره فأنشده:

رأيت المرء تأكله الليالي ::: كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما ينبغي المنية حين تأتي ::: على نفس ابن آدم من مزيد
فأعلم أنها ستكر حتى ::: توفي نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه وعلم أرطأة أنه زل فقال يا أمير المؤمنين إني أكنى بأبي الوليد وصدقه الحاضرون [٢].

رأي عبد الملك في الجَواري:

قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتّخذ جاريةً للمتعة، فليتّخذها بربريّةً ومن أراد للولد فليتّخذها فارسيّةً؛ ومن أرادها للخدمة فليتّخذها روميّةً.

حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين :

قيل: وفدت عزّة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلمّا دخلتا عليه انحرف إلى عزّة، وقال لها: أنت عزّة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزّة ولكنّي أمّ بكرٍ الضّمريّة. قال أتروين قول كثيرٍ فيك؟

(١) البداية والنهاية، ١٢/ ٣٩٦، سير أعلام النبلاء، ٤/٢٤٦.
(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين. المكتب التجاري - بيروت، ص ٣٠، ٧٠.

لقد زعمت أني تغيّرت بعدها ::: ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمي والخليقة كالتي ::: عهدت، ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت: لست أروي هذا، ولكنّي أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضت ::: من الصّمّ لو يمشي بها العصم زلّت
صفوحاً فما تلقاك إلاّ بخيلةٍ ::: فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّت

ثمّ عطف على بثينة فقال لها: ما رأى جميل حين لهج بذكرك بين النّساء كلّهن؟ قالت: الذي رأى فيك النّاس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتّى بدت سنٌّ له سوداء، كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما.

فصار يجمعنا في بطنها الكفن:

ومن ذلك ما حكى جميلٌ بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل حدّثني ببعض أحاديث بني عذرة. فإنّه بلغني إنّهم أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمك أنّ آل بثينة انتجعوا عن حيّهم، فوجدوا النّجعة بموضع نازح فظعنوا، فخرجت أريدهم، فبينما أنا أسير إذ غلطت الطّريق وأجنّني الليل فلاحت لي نارٌ، فقصدها حتّى وردت على راعٍ في أصل جبل قد انحنى عنه إلى كهفٍ فيه، فسلّمت، فردّ عليّ السّلام، وقال: أظنّك قد غلطت الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل وبت الليلة فإذا أصبحت وقفت على القصد فنزلت فرحب بي وأكرمني وذبح شاة، وأجّج ناره، وجعل يشوي ويلقي بين يدي، ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فوضع به جانب الخبا ومهّد لي محلاً خالياً فنمت.

فلمّا كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقت له ليلتي. فلمّا أصبحت طلبت الإذن فأبى، وقال: الضّيافة ثلاث. فجلست

وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب فإذا هو من بني عذرة، من أشرفهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هذا؟ فأخبرني أنّه كان يهوى ابنة عمٍّ له، وأنّه خطبها من أبيها فأبى أن يزوّجها إيّاها لقلّة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجلٌ من بني كلاب وخرج بها عن الحي، وأسكنها في موضعه. وأنّه رضي أن يكون لزوجها راعياً حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها. وأقبل يشكو قديم عشقه لها، وصبابته بها حتّى أتى المساء، وحان وقت مجيئها. فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائماً على قدميه، وأنشأ يقول:

ما بال ميّة لا تأتي كعادتها ::: أعاجها طربٌ أو صدّها شغل
لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله ::: حتّى الممات وما لي غيركم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم ::: لما اعتذرت، ولا طابت لك العلل
نفسي فداؤك، قد أحللت بي سقماً ::: تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لو أنّ ما بي من سقمٍ على جبلٍ ::: لزال واهدّ من أركانه الجبل

ثمّ قال لي: اجلس، يا أخا بني عذرة، حتّى أكشف خبر ابنة عمّي. ثمّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي هذه ابنة عمّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمّ وضعها بين يديّ، وقال: على رسلك، حتّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ، حتّى آيست من رجوعه، فلم ألبث أن أقبل ورأس الأسد على يديه فوضعه ثمّ، قال: يا أخي إنّك ستراني ميّتاً فاعمد إليّ وإلى ابنة عمّي فأدرجنا في كفنٍ واحدٍ، وأدفنّا في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

كنّا على ظهرها والعيش في مهلٍ ::: والشّمل يجمعنا والدّار والوطن
ففرّق الدّهر بالتّصريف إلفتنا ::: فصار يجمعنا في بطنها الكفن

وردّ الغنم إلى صاحبها، وأعلمه بقصّتها.

ثمّ عمد إلى خناقٍ وطرحه في عنقه، فناشدته الله لا تفعل، فأبى وخنق نفسه حتّى مات. فلمّا أصبحت كفّنتهما ودفنتهما وكتبت الشّعر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصّتهما، فحزن حزناً خفت عليه الهلاك أسفاً على ما فرّط من عدم اجتماعهما.

الحجّاج وابنة عبد الله بن جعفر:

وتزوّج الحجّاج ابنة عبد الله بن جعفر، فلمّا دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجود على خدّها، فقال لها: بأبي وأمّي، ممّ تبكين؟ فقالت: من شرفٍ اتّضع، ومن ضعةٍ شرفت. فلمّا كتب إليها عبد الملك بن مروان بطلاقها، قال لها: إنّ أمير المؤمنين امرني بطلاقك. قالت: هو والله أبرّ بي ممّن زوّجك إياي. فلمّا مات أبوها لم تبك عليه، فقيل لها في ذلك، فقالت: والله أنّ الحزن ليبعثني، وإنّ الغيظ ليصمتني.

عبد الملك يعيب قولاً على نصيب:

وأمّا قول نصيبٍ:

أهيم بدعدٍ ما حييت وإن أمت ::: فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فإنّي لم أجد له تأويلاً. وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان، وقال لجلسائه: أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا: لا ندري، فكيف كان أمير المؤمنين قائلاً: قال: كان يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت ::: فلا صلحت دعد لذي خلّةٍ بعدي

أهدر دمه ولم يتمتّع بها:

نزل أعرابيٌّ من طيء، يقال له المثنّى بن معروف، بأبي جبر الفزاري فسمعه يوماً يقول: لوددت أنّي بتّ الليلة خالياً ببنت عبد الملك ابن مروان. فقال المثنّى: أحلالاً أم حراماً؟ فقال: ما أبالي. قال:

فوثب إليه فضرب رأسه برحالةٍ فشجّه، ثمّ ارتحل وهو يقول:

أبلــغ أمــير المــؤمنين رســالةً ::: على النّأي إنّي قد وترت أبا جــبر
نشرت على اليافوخ منــه رحالــةً ::: لنصري أمير المــؤمنين ولا يــدري
وما كان شيءٌ غير أنّــي سمعتــه ::: ينادي نساء المــؤمنين بــلا مهــر

قال، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأهدر دم أبي جبرٍ وبعث إلى المثنّى بصلة جزيلة.

أرادها لحسن ثغرها فقط:

وكانت خولة بنت منظور بن زياد الفزاري عند الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكانت أختها عند عبد الله بن الزّبير، وهي أحسن النّاس ثغراً، وأتمّهم جمالاً. فلمّا رأى ذلك عبد الملك بن مروان وقد قتل عبد الله بن الزّبير زوجها، ثمّ خطبها، فكرهت أن تتزوّجه وهو قاتل زوجها، فأخذت فهراً وكسّرت به أسنانها. وجاء رسول عبد الملك فخطبها، فأذنت له ليراها، فأدّى إليها رسالته ورأى ما بها، فقالت: ما لي عن أمير المؤمنين رغبة، ولكنّي كما ترى، فإن أحبّني فأنا بين يديه، فأتاه الرّسول فأعلمه بذلك، فقال: أنا، والله، إنّما أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأمّا الآن فلا حاجة لي فيها.

قد عفوت عنه :

وحكى الهيثم بن عدي، عن ابن عبّاس، قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان، وكان يجد بها ويحبّها حبّاً شديداً، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكلّ أمرٍ، فأبت حتّى أضرّ به ذلك وشكا إلى خاصّته. فقال له عمر بن الأسدي: ما لي إن أرضيتها؟ قال له: حكمك. قال، فخرج فأتاها وجلس بين يديها يبكي. فقال له خاصتها: ما لك يا أبا حفص؟ قال: لقد جئت إلى بنت عمّي

في أمرٍ مهمٍّ عظيمٍ، فاستأذني لعلّها تقضي حاجتي. فقالت: ما بالك؟ فقال لها: قد عرفت حالي مع أمير المؤمنين عبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين، فتعدّى أحدهما على الآخر فقتله. فقلت: أنا وليّ الدّم وقد عفوت. فقال أمير المؤمنين: ما أحبّ أن أعوّد رعيّتي هذا. وهو قتله بالغداة فنشدتك الله ألا كلّمته فيه، وسألته في إبقائه لي، فإنّك تجمعين في ذلك إحياءه وإحياء نفسي. فإنّه إن قتله قتلت نفسي. فقالت: ما أكلّمه. فقال لها: ما أظنّك تكسبين شيئاً أحبّ من إحياء نفسين.. وبكى بكاءً شديداً: فلم يزل بها صواحبها وخدمها وحاشيتها حتّى قالت: عليّ بثيابي. فلبست، وكان بينها وبينه بابٌ قد ردمته. فأمرت بفتحه ثمّ دخلت. فأقبل أحد الغلمان فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة. قال: ويلك رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. وإذا هي قد أقبلت وعبد الملك على سريره. فسلّمت، فسكت، فقالت: أمّا والله لولا مكان عمر بن بلال ما فعلت، ولا أتيتك والله. إن عدا أحد بنيه على الآخر فقتله، وهو الوليّ وقد عفا عنه، لتقتله؟ قال: أي والله، وهو راغمٌ. قالت: أنشدك الله أن لا تفعل. فدنت فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت أرجله فقبّلتها، فأكبّ عليها وضمّها إلى نفسه ورفعها إلى سريره، وقال: قد عفوت عنه. فتراضيا.

وراح عبد الملك فجلس مجلس الخاصّة، فدخل عمر بن بلال، فقال: يا أبا حفص ألطفت الحيلة في القيادة فلك حكمك! فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينارٍ ومزرعة بما فيها من الرّقيق والآلة. قال: هي لك. قال: ومرابض لولدي وأهل بيتي. قال: وذلك كلّه لك.. وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القوّاد خدعني.

أريحيّة عبد الملك بن مروان:

قال أبو عبيدة: كان بأرض الحجاز رجلٌ له ابنةٌ جميلةٌ فهويها

ابن عمٍّ لها فبذل لها أربعة آلاف درهمٍ، فأبى أبوها أن يزوّجها منه، وأجدبت البادية، فدخل ابن عمّها على عمّه ذات يومٍ فشكا إليه ما يلقى. فقال له: قد كنت بذلت لنا أربعة آلاف درهمٍ، فأعطنا إيّاها، فأنت أحبّ إلينا لقرابتك. قال له: أجّلني شهراً. فأجّله، ولم يكن مع الفتى إلاّ ناقةٌ، فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان فطلب الإذن فلم يؤذن له. فقال: إنّي رسول فلانٍ عامل أمير المؤمنين على الحجاز. فأدخل عليه من ساعته. قال: معك كتابٌ من فلان؟ قال: لا، قال فرسالةٌ؟ فأنشأ يقول:

ماذا يقول أمير المؤمنين لمن ::: أدلى إليك بلا قربى ولا سبب
مدلّةٌ، عقله من حبّ جاريةٍ ::: موصوفةٍ بكمال الحسن والأدب
خطبتها إذ رأيت النّاس قد لهجوا ::: بذكرها، والهوى يدعو إلى العطب
فقلت، لي حسبٌ زاكٍ، ولي شرفٌ ::: قالوا: الدّراهم خيرٌ من ذوي الحسب
إنّا نريد ألوفاً منك أربعةً ::: ولست أملك غير الحسّ والقتب
فامنن عليّ، أمير المؤمنين، بها ::: واجمع بها شمل هذا البائس العرب
فما وراءك، بعد الله، مطّلبٌ ::: أنت الرّجاء وأقصى غاية الطّلب

فضحك عبد الملك وأمر له بأربعة آلاف درهمٍ، وقال هذا صداق أهلك، وزاده أربعةً أخرى وقال له أولم بهذه، وأنفق عليها منها. فقبضها ومضى. فتزوّج بالجّارية (١).

والله ما أردت إلا ذلك!

من المنقول عن ابن أخي الأصمعي قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له فاستكثر الشعبي فقال له من أهل بيت الملك أنتَ قال لا فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال إذا رجعت إلى صاحبك أبلغته

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص ١، ١٠، ١٨، ٢٠، ٣٢، ٣٩، ٥٦، ٧٧.

جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما أحتاج إلى ذكره ونهض من عنده فلما خرج ذكر الرقعة فرجع فقال يا أمير المؤمنين أنه حملني إليك رقعة نسيتها حتى خرجت وكانت في آخر ما حملني فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك قال فأمر برده فقال أعلمت ما في هذه الرقعة قال فيها عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا أفتدري لم كتب إلي بمثل هذا فقال لا فقال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك فقال الشعبي لو كان رآك يا أمير المؤمنين ما تسكثرني فبلغ ذلك ملك الروم ففكر في عبد الملك فقال لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك!.

وذلك أني رجل مشؤوم:

وعن الأصمعي عن أبيه قال أتى عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال اضربوا عنقه فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك قال وما جزاؤك قال والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم وقد بان لك صحة ما ادعيت وكنت لك خيراً من مائة ألف معك فضحك وخلى سبيله(١)

فاني لا أعد انتقام غيري انتقاما:

وقال ابو الحسن: أربى غلام من بني علي على عبد الملك وعبد الملك يومئذ غلام فقال له كهل من كهولهم لما رآه ممسكا عن جواب المربي عليه لو شكوته الى عمه انتقم لك منه قال أمسك يا كهل فإني لا أعد انتقام غيري انتقاما.

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٦، ٥٦.

شغلني الغضب له عن الحزن عليه:

و قال ابو الحسن: خاض جلساء عبد الملك يوما في قتل عثمان فقال رجل منهم يا أمير المؤمنين في اي سنك كنت يومئذ قال كنت دون المحتلم قال فما من حزنك عليه قال شغلني الغضب له عن الحزن عليه(١).

خبر الحجاج بن عبد الله الثعلبي مع عبد الملك:

كان عبد الله بن الحجاج الثعلبي من أشد الناس على عبد الملك بن مروان في طاعة ابن الزبير مع القيسية، فلما قتل ابن الزبير أرسل عبد الملك يطلب عبد الله بن الحجاج فلم يظفر به، فلما خاف عبد الله بن الحجاج أن يظفر به أقبل فدخل على عبد الملك في اليوم الذي يطعم فيه أصحابه فمثل بين يديه ثم، قال:

منع الفرار فجئت نحوك هارباً ::: جيش يجر ومقنب يتلمع

فقال: أي الأخابث أنت؟ فقال:

ارحم أصيبيتي هديت فإنهم ::: حجل تدرج بالشربة جوعُ

فقال: أجاع الله بطونهم، فقال:

مال لهم فيمن يظن جمعته ::: يوم القليب فحيز عنهم أجمع

فقال: أحسبه كسب سوء، فقال:

أدنوا لترحمني وتقبل توبتي ::: وأراك تدفعني فأين المدفع

قال: إلى النار، فقال:

ضاقت ثياب الملبسين ونفعهم ::: عني فألبسني فثوبك أوسع

قال: فنزع مطرفاً كان عليه فطرحه عليه، ثم قال له: آكل؟ قال:

---

(١) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ص ٣٧٢.

كل. فلما وضع يده على الطعام قال: أمنت ورب الكعبة، قال: كنت من كنت إلا عبد الله بن حجاج، قال: فأنا عبد الله بن حجاج، قال: أولى لك.

وقد روى لنا هذا الخبر عن طريق آخر، وفيه: أن عبد الله قال له: لا سبيل لك إلى قتلي، قد جلست في مجلسك وأكلت طعامك ولبست من ثيابك.

اللحانون من الخاصة:

قال أبو الزناد: كان الوليد بن عبد الملك بن مروان لحاناً كأني أسمعه على منبر النبي وهو يقول: يا أهل المدينة. قال: وقال عبد الملك بن مروان لرجل من قريش: إنك لرجل لولا أنك لحان، فقال: وهذا ابنك الوليد يلحن، قال: لكن ابني سليمان لا يلحن، قال الرجل: وأخي فلان لا يلحن.

أشعر من مضى ومن بقي :

عن أبي عمرو الشيباني، قال: حدثني مروان بن أبي حفصة، قال: جلس عبد الملك بن مروان يوماً للناس على سرير، وعند رجل السرير محمد بن يوسف أخو الحجاج بن يوسف، وجعل الوفود يدخلون عليه ومحمد بن يوسف يقول: يا أمير المؤمنين! هذا فلان، هذا فلان، إلى أن دخل جرير بن الخطفي فقال: يا أمير المؤمنين! هذا جرير بن الخطفي، قال: فلا حياه الله، القاذف للمحصنات والعاضة لأعراض الناس [1] - فقال جرير: يا أمير المؤمنين دخلت

---

(١) العاضه: المغتاب، ويقال: العاضه: النمام، ويقال: الساحر، قال القاضي: ومنه الخبر عن النبي : أنه لعن العاضهة والمستعضهة، يعني الساحرة والمستسحرة، قال الراجز:

الماء من عضاههن زمزمه

وقيل في قول الله تعالى:{ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ } [الحجر: ٩١] أقوال منها: هذا، وهو أن المشركين قالوا: هو سحر، وقيل: إنهم عضوه بأن آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقيل، بل اقتسموه بينهم استهزاء فقالوا: لفلان هذه السورة ولفلان هذه السورة، فعضوه كما

فاشرأب الناس نحوي، ودخل قوم بعدي فلم يشرئب الناس إليهم، فقدرت أن ذلك لذكر جميل ذكرني به أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: لما ذكرت لي قلت: لا حياه الله القاذف للمحصنات العاضه لأعراض الناس، فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين ما هجوت أحداً حتى أجزه عرضي سنة، فإن أمسك أمسكت، وإن أقام استعنت عليه وهجوته، فقال له: هذا صديقك أبو مالك سلم عليه - يعني الأخطل - فاعتنقه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما هجاني أحد كان هجاؤه علي أشد من هجائه، إلا أني كنت أظن أنه يرشي على هجائي، فقال له الأخطل: كذبت وأتن أمك، قال له جرير: صدقت وخنازير أمك، فقال عبد الملك: أحضروا جامعة فأحضرت و غمز الوليد الغلام أن ناجز بها، فقال عبد الملك للأخطل: أنشد، فأنشد:

تأبد الربع من سلمي بأجفار ::: وأقفرت من سليمي دمنة الدار

حتى ختمها، فقال له عبد الملك: قضينا لك أنك أشعر من مضى ومن بقي.

من مدحنا فليمدحنا هكذا:

واستأذنت قيس عبد الملك في أن ينشد جرير فأبى، ولم يزل جرير مقيماً دهراً يلتمس إنشاد عبد الملك وقيس تشفع له، وعبد الملك يأبى إلى أن أذن له يوماً، فأنشده:

تعضى الشاة وكما تجزأ أعضاء الجزور فتقسم وتوزع بين مقتسميها وهذا فيما يتضمن عنه بمشيئة الله وعونه كتابنا المسمى البيان الموجز عن علوم القرآن المعجز ونأتي على ما جاء فيه عن أهل العلم، وأصحاب التأويل والمفسرين، وعن أصحاب المعاني النحويين، ومن العضه السحر، ما أنشدنيه عبيد الله بن محمد بن جعفر الأزدي، قال: أنشدنا أحمد بن يحيى:

أعوذ بربي من النافثا ::: في عقد العاضه المعضه

وقال: يعني بهما الساحر، وقال أبو موسى الحامض: المعضه الذي يأتي بالأمر العظيم ثم يبهت.

أتصحو بل فـؤادك غـير صـاح ::: عشية هـم صـحبك بـالرواح

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا بن اللخناء [1]، فلما انتهى إلى قوله:

تعـزت أم حـزرة ثم قالـت ::: رأيـت المـوردين ذوي اللقـاح
تعلـل وهـي سـاغبة بنيهـا ::: بأنفاس مـن الشـبم القـراح[2]

فلما انتهى إلى قوله:

ألستم خير مـن ركـب المطايـا ::: وأنـدى العـالمين بطـون راح

قـال عبـد الملـك: مـن مـدحنا فليمـدحنا هكـذا. فلمـا ختمهـا أمـره بإعادتها، فلما أنشد:

أتصحو أم فؤادك غير صاح

لم يقل له ما قال في المرة الأولى، ولما ختمها أمر لـه بمائـة ناقـة بأداتها ورعاتها، فقال جرير: يا أمير المؤمنين! اجعلها من إبل كلب، وإبل كلب إبل كرام.

خبر وضاح اليمن:

عن هشام بن محمد بن السائب، قال: كانت عند يزيد بن عبد الملك ابن مروان أم البنين بنت فلان، وكان لها من قلبه موضع قال: فقدم عليه من ناحية مصر بجوهر له قيمة وقدر، قال: فدعا خصياً له

(١) اللخناء: المنتنة الريح.
(٢) قال أبوبكر: الشبم: البارد، والقراح: الماء الذي ليس معه لبن، والساغبة الجائعة، قال القاضي: ومن دعاء العرب: حلبت قاعداً وشربت بارداً، يريدون كنت ذا غنم تحلبها وأنت قاعد ولا إبل لك تحلبها قائماً، وشربت بارداً أي ماء محضاً، قال عبد الملك: لا أروى الله عيمتها، قال القاضي: العيمة: شهوة اللبن، يقال: عمت إلى اللبن أعيم عيمة، ومن دعاء العرب: ما له عام وغام وآم، فغام: قرم إلى اللبن ولم يقدر عليه، وآم: ماتت امرأته، كما قال الشاعر:

وأبنا وقد آمت نساء كثيرة ::: ونسوان سعد ليس فيهن أيم

معنى آمت نساء مات أزواجهن، وغام: عطش فلم يقدر على الماء.

فقال: اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها: أتيت به الساعة فبعثت به إليك، قال: فأتاها الخادم فوجد عندها وضاح اليمن وكان من أجمل العرب وأحسنها وجهاً، فعشقته أم البنين فأدخلته عليها، فكان يكون عندها فإذا أحست بدخول يزيد بن عبد الملك عليها أدخلته في صندوق من صناديقها، فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته في الصندوق فرآه الغلام ورأى الصندوق الذي دخل فيه، فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها الرسالة، ثم قال: يا سيدتي هبي لي منه لؤلؤة، قالت: لا، ولا كرامة، فغضب وجاء إلى مولاه فقال: يا أمير المؤمنين! إني دخلت عليها وعندها رجل، فلما رأتني أدخلته صندوقاً فهو في الصندوق الذي من صفته كذا وكذا وهو الثالث أو الرابع، فقال له يزيد: كذبت يا عدو الله، جئوا في عنقه فوجأوا عنقه ونحوه عنه، قال: فأمهل قليلاً ثم قام فلبس نعله ودخل على أم البنين وهي تمتشط في خزانتها، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصف له الخادم، فقال: يا أم البنين! ما أحبب إليك هذا البيت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أدخله لحاجتي وفيه خزانتي فما أردت من شيء أخذته من قرب، قال: فما في هذه الصناديق التي أراها؟ قالت: حليي وأثاثي، قال: فهبي لي منه صندوقاً، قالت: كلها يا أمير المؤمنين، قال: لا أريد إلا واحداً ولك علي أعطيك زنته وزنة ما فيه ذهباً، قالت: فخذ ما شئت، قال: هذا الذي تحتي، قالت: يا أمير المؤمنين! عد عن هذا وخذ غيره، فإن لي فيه شيئاً يقع بمحبتي، قال: ما أريد غيره، قالت: هو لك، قال: فأخذه ودعا الفراشين فحملوا الصندوق فمضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر ما فيه، فلما جنه الليل دعا غلاماً له أعجمياً، فقال له: استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل المصر، قال: فجاء بهم فأمرهم فحفروا له حفرة في مجلسه حتى بلغ الماء، ثم قال: قدموا لي

الصندوق فألقي في الحفرة ثم وضع فمه على شفره فقال: يا هذا! قد بلغنا عنك الخبر فإن يكن حقاً فقد قطعنا أثره وإن يكن باطلاً فإنما دفنا خشباً، ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى، قال: فلم ير وضاح اليمن حتى الساعة، قال: فلا والله ما بان لها في وجهه ولا في خلائقه ولا في شيء حتى فرق الموت بينهما.

حقق الله لهم أمنياتهم:

عن الشعبي، قال: لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، قال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم رجلٌ رجلٌ منكم فليأخذ بالركن اليماني ويسأل الله حاجته، فإنه يعطي من سعة.

قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولودٍ ولد في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني فقال: اللهم إنك عظيمٌ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك، وبحرمة نبيك، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم علي بالخلافة.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا مصعب بن الزبير، فقام فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم إنك رب كل شيءٍ وإليك يصير كل شيءٍ، أسألك بقدرتك على كل شيءٍ ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراقين، وتزوجني سكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان، فقام وأخذ بالركن اليماني، وقال: اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع، ذات النبت بعد القفر، أسألك بما سألك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين

حول بيتك، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحدٌ إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس.

ثم قالوا: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: أللهم إنك رحمنٌ رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، ألا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت كل رجل منهم قد أعطي ما سأل من الدنيا، وبشر عبد الله بن عمر بالجنة.

خبران يرويهما الزهري عن نفسه:

عن الزهري، قال: أتيت عبد الملك بن مروان فاستأذنت عليه فلم يؤذن لي، فدخل الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلاً شابا أحمر، زعم أنه من قريش، قال: صفه فوصفه له، قال: لا أعرفه إلا أن يكون من ولد مسلم بن شهاب، فدخل عليه، فقال: هو من بني مسلم فدخلت، قال: من أنت؟ فانتسبت له وقلت: إن أبي هلك وترك عيالاً صبية، وكان رجلاً متلافاً لم يترك مالاً، فقال: لي عبد الملك: أقرأت القرآن؟ قلت: نعم بإعرابه، قال: وما ينبغي منه من وجوهه وعلله؟ قال: قلت: نعم، قال: إنما فوق ذلك فضل إنما يراد أن يعايا ويلغز به، قلت: نعم، قال: تعلمت الفرائض؟ قلت: نعم، قال: الصلب والجد واختلافهما؟ قلت: أرجو أن أكون قد فعلت، قال: وكم دين أبيك؟ قلت له: كذا وكذا، قال: قد قضى الله دين أبيك، وأمر لي: بجائزة ورزق يجري، وشراء دارٍ قطيعة بالمدينة، وقال: اذهب فاطلب العلم ولا تشاغل عنه بشيءٍ فإني أرى لك عيناً حافظة وقلباً زاكياً، وأئت الأنصار في منازلهم، قال الزهري وكنت أخذت العلم عنهم بالمدينة، فلما خرجت إليهم إذا علم جم فأتبعتهم حتى ذكرت لي

امرأة نحو قباء تروي رؤيا فأتيتها، فقلت: أخبريني برؤياك، قال: فقالت: كان لي ولدان واحدٌ حين حبا، والآخر يتبعه، وهلك أبوهما وترك واهناً [١] وداجناً [٢] ونخلات، فكان الداجن نشرب لبنها ونأكل تمر النخلات، فإني لبين النائمة واليقظانة ولنا جديٌ فرأيت كأن ابني الأكبر قد جاء إلى شفرةٍ لنا فأخذها، وقال يا أمه! قد أضررت بنا وحبست اللبن عنا، فأخذ الشفرة وقام إلى ولد الداجن فذبحه بتلك الشفرة، ثم نصب قدراً لنا ثم قطعه ووضعه فيها، ثم قام إلى أخيه فذبحه بتلك الشفرة، واستنبهت مذعورة وإذا ابني الأكبر قد جاء، فقال: يا أمه! أين اللبن، فقلت: يشربه ولد هذه الداجن، فقال: ما لنا في هذا من شيءٍ، وقام إلى الشفرة فأخذها ثم أمرها على حلق الداجن ثم نصب القدر، قالت: فلم أكلمه حتى قمت إلى ابني الصغير فاحتضنته فأتيت به بعض بيوت الجيران فخبأته عندهم، ثم أقبلت مغتمة لما رأيت، ثم صعد على بعض تلك النخلات فأنزل رطباً ثم قال: يا أمه! أدني فكلي، قلت: لا أريد، ثم مضى في بعض حوائجه وترك القدر فإني لمنكبة على بليس [٣] عندي إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بآتٍ قد أتاني، فقال: مالك مغتمة؟ فقلت: لكذا وكذا، ولأن ابني صنع كذا وكذا، فنادى يا رؤياه يا رؤياه! فجاءت امرأةٌ شابةٌ حسنة الوجه طيبة الريح، فقال: ما أردت من هذه المرأة الصالحة، قالت: ما أردت منها شيئاً، فنادى: يا أضغاث يا أضغاث! فأقبلت امرأةٌ سوداء الخلقة وسخة الثياب دونها، فقال: ما أردت من هذه المرأة؟ قالت:

---

(١) الخادم: ويقال مهن الرجل مهنة ومهنة، وفلان في مهنة أهله ومهنة أهله، ويقال: مهن مهانة من الهوان، ومن المهان بمعنى الخادم، قول الشاعر:

وهزئن مني أن رأين مويهناً ::: تبدو عليه شتامة المملوك

(٢) الداجن هي الشاة من شياه البيوت التي تعلف.

(٣) البلس: بعض ما يكون في رحل القوم من المتاع الذي يتكأ عليه.

رأيتها صالحة فأردت أن أغمها، قالت: ثم انتبهت فإذا ابني أقبل، فقال: يا أمه! أين أخي؟ قلت: لا أدري حبا إلى بعض الجيران، قالت: فذهب يمشي لهو أهدى إلى موضعه حتى أخذه وجاء به فقبله، ثم قعد فأكل وأكلت معه.

قاتلك الله من شيخ :

عن أبي مهدية قال أخبرني أبو عفير الدؤلي وكان شاعراً قال: كنت عند عبد الملك بن مروان إذ دخل أبو الأسود الدؤلي وكان أحول دميماً قبيح المنظر، فقال له عبد الملك يمازحه: يا أبا الأسود لو علقت عليك عوذة تدفع عنك العين، فقال: إن لك جواباً يا أمير المؤمنين، وأنشد:

أفنى الجديد الذي فارقتُ جدتهُ ::: كرُّ الجديدين من آتٍ ومنطلق
لم يتركا ليَ في طولِ اختلافهما ::: شيئاً يخافُ عليه لذعةُ الحدق

أما والله لئن كانت أبلتني السنون، وأسرعتْ إلي المنون، لما أبلت ذلك إلا في موضعه، ولرب يوم كنتُ فيه إلى الآنسات البيض أشهى منك إليهن في يومك هذا على عجبك بنفسك، وإني اليوم لكما قال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قل ماله ::: ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

ولقد كنت كما قال أيضاً:

يرعن إلى صوتي إذا ما سمعنه ::: كما ترعوي عيط (١) إلى صوت أعيسا(٢)

قال له عبد الملك: قاتلك الله من شيخ ما أعظم همتك.

---

(١) العيط: جمع عيطاء، وهي الناقة الطويلة العنق.
(٢) والأعيس: فحل أبيض تعلوه شقرة.

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها:

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك [١]، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلةٍ قتلت ولا أي ميتةٍ مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وصفق عجباً، وتعاظمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجراً، وأسمعني نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقاً للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان

(١) قول الحجاج: سك الله سمعك يقال: استكت الأذنان واصطكت الركبتان.

أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعةٍ ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجلٍ أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدةٍ؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إداً، وأردت أن تبورنى، فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبداً أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم

الزبيب؟! [1] والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله بين أظهرنا فلم تقبل له أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأةً منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزرة وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته واكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله خدمه ثماني سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكل بحتفٍ قاضٍ و{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾} [الأنعام: ٦٧].

يشكو والي السماوة إلى عبد الملك:

عن أبي عبيدة قال: ولى عبد الملك بن مروان صدقات كلبٍ رجلاً من بني أمية، وكانت الروم قد نزعته، وكان أشقر غضاً، فدخل أعرابي جلف جافٍ على عبد الملك في جفة الناس، فلما مثل بين يديه قال يا إنسان إنك مدبر مربوب، قال: أجل فما تشاء؟ قال: قد احتجبت بهذه المدرة ووليت خطابنا أصهب غضاً [2] كالقرعوش [3] طمطمانياً [4] أطوماً [5] كأن وجهه جهوة قردٍ قد قشر بصرها، وكأن

---

(١) ابن المستفرمة بعجم الزبيب: كانت المراة تستعمل عجم الزبيب لتضيق قبلها في ما ذكر بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحدته عجمة، قال الأعشى:

مقادك بالخيل أرض العدو ::: وجذعانها كلقيط العجم

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذٍ فهو أصلب وأملس، وإنما أرارد صلابتها وضمرها، ولقيط أراد ملقوط مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

(٢) الغضا: الغتم.

(٣) القرعوش ولد البختية وهو لا ينجب ولا ينفع.

(٤) الطمطاني: الأعجم.

(٥) والأطوم: الذي لا يفهم ولا يفهم. وإنما أخذ من جلد الأطوم وهي دابة من دواب البحر

فاه سرم أتانٍ، قد قاشها عير فهي ترمز، إن كشرت بسر، وإن خاطبت نهر، وإن تألفت زبر، فلا الكلام مدفوع، ولا القول مسموع، ولا الحق متبوع، ولا الجور مردوع، ولنا ولك مقام فيه ينص الخصام، وترجف الأقدام، وينتصف المظلوم، وينعش المهضوم؛ ها إن ملكك هناك زائل، وعزك حائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل؛ فاكبأن عبد الملك وتضاءلت أقطاره وترادت عبراته في صدره، ثم قال: لله أبوك، أي ظلم نالك منا حتى أجاءك إلى هذا المقال؟ قال: ساعيك في السماوة، نهاره لهو، ومقاله لغو، وغضبه سطو، يجمع المباقط ويحتجن المشائط ويستنجد العمارط، فأمر عبد الملك بصرف العامل.

أيمن بن خريم لا يقاتل مصلياً:

عن الشعبي أن عبد الملك بن مروان قال لأيمن بن خريم بن فاتك: ألا تخرج فتقاتل معنا؟ فقال: إن أبي وعمي شهدا بدراً مع رسول الله وأمراني أن لا أقاتل رجلاً يصلي، فإن أعطيتني براءةً من النار قاتلت معك، فتركه. وهو الذي يقول:

فلست مقاتلاً رجلاً يصلي ::: على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي وزري ::: معاذ الله من سفهٍ وطيش
أأقتل مسلماً في غير جرم ::: فليس بنافعي ما عشت عيشي

معاوية واللقمة التي لم تكتب له:

عن عبد الملك بن مروان قال: جلست مع معاوية على غدائه فأخذ لقمةً فهيّأها، وأخذ يتحدّث فوضعها، فأخذتها، فعل ذلك مراراً يضعها وآخذها وألقمها، فسمعته يقول وهو يخطب: إن الرجل ليرفع اللقمة

صلبة الجلد، وقال قوم: هي السلحفاة.

إلى فيه يراها من رزق الله له قد كتبها لغيره فيأكلها الّذي كتبت له.

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك:

قال محمد بن هشام السّعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صارا في الطريق قال الحجاج لمحمد ابن الحنفية: لقد بلغني أن اباك كان إ ذا فرغ من القنوت يقول كلاماً حسناً أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفظع لفظكم، وأشدَّ خنزوانتكم، ما تعدُّون الناس إلا عبيداً، ولقد خضتم الفتنة خوضاً وقتلتم المهاجرين والأنصار. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت آنفاً، فما ردَّك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتّى ألقاه. فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن الحنفية مستأذنٌ عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد ردَّه أمرٌ، ايذن له. فلما دخل عليه تحلحل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاماً تكمَّشت له [1]، وذكر أبي بكلام تقمّعت له [2]، وما أحرت حرفاً، قال: فما قال لك حتّى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنمّا تفقأ في وجهه الرمّان ونخسه شوك، فخبره عمّا سأله عنه، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالحجاج السّاعة. فأتاه في منزله حين خلع ثيابه فحمله حملاً عنيفاً، وانصرف ابن الحنفية. فجاء الحجاج فوقفه بالباب طويلاً ثم قال: إيذن له، فدخل فسلَّم عليه، فقال له عبد الملك:

لا أنعم الله بعمروٍ عينا ::: تحية السُّخط إذا التقينا

(١) تكمشت له " أي انقبضت منه.
(٢) تقمّعت له " يقال: قد تقمَّع الرجل وانقمع إذا انخزل وانكسر.

يا لكع [١] وهراوة البقار [٢]، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير المؤمنين، ما كان إلاّ خيراً، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابرّ، ذكرته وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال: سألته يا أمير المؤمنين عن شيءٍ بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا أعرفه، فعلمت أن ذاك مقتٌ منه لنا ولدولتنا، فأجبته بالذي بلغك. فقال له عبد الملك: أسأت ولؤّمت، والله لولا أبوه وابن عمّه لكنّا حيارى ضلالاً، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلاّ الله عز وجل وهم، وما أعزّنا بما ترى إلا رحمهم وريحهم الطيبة، والله لا كلّمتك كلمةً أبداً، أو تجيئني بالرضا منه، وتسلَّ سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغدَّى مع أصحابه، قال: فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسلَّ سخيمتك، وأقسم أن لا يكلمني ابداً حتّى آتيه بالرضى منك، وأنا أحبُّ، برحمك من رسول الله ، إلاّ عفوت عمّا كان، وغفرت ذنباً إن كان. فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه وسللت سخيمته وأجاب إلى ما أحبّ وهو أهل ذلك. قال: فأيُّ شيءٍ آخر ما كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنةٌ أعرفها من أخزم، انصرف. فلمّا كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد الملك فقال له: أتاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟ قال:

(١) وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لئيم.
(٢) وقوله " " وهراوة البقار " يعني عصا الراعي التي يذود بها البقر، يريد أنّه لا يصلح إلا لأداني الأمور.

نعم يا أمير المؤمنين وما منعني أن أبثه غياه إلا مقتي له فأتّه من بقية ثمود. فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليّم له - كاتباً ودواةً وقرطاساً، قال: فكتب بخطّه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللّهم حاجتي العظمى التي إن قضيتها لم يضرَّني ما منعتني، وإن منعتني لم ينفعني ما أعطيتني. فكّاك الرقاب، فكَّ رقبتي من النار، ربِّ ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم عليَّ، فوعزَّتك ما يحسّن ملكك إحساني، ولا تقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غناي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحدتي في قبري، ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي [١]. ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك: حسن والله رضي الله عنه [٢].

ما تــــرى!

لما أتي عبد الملك بن مروان بأسرى بني الأشعث؛ قال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله أعطاك ما تحب من الظفر فأعطه ما يحب من العفو! فعفا عنهم [٣].

---

(١) ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمَّته، يريدون أخذه كلّه واستوفاه ولم يغادر شيئًا منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمّي الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدّونه بالقدِّ إذا أسروه. وأما الرّمة فالحبل البالي كانوا يشدُّون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرّمة: أشعث باقي رمَّة التقليد وقيل: إنّما سمّي ذا الرمَّة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأمّا الرمّة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمَّ العظم يرمّ وهو رميم، ومنه قول الشاعر:

والنيب إن تعر مني رمّةً خلقاً ::: بعد الممات فإني كنت أثّئر

(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٨٨، ١١٠، ص ١٢٦، ١٢٧، ١٦٥، ١٧٥، ٢٧١، ٢٧٣ - ٢٧٤، ٣١٧، ٣٤٨، ٣٨٤، ٤٧٥.

(٣) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص ٢٤، ٢٩.

لو سبق سماعه فعلى لأمسكت:

قال أبو الحسن المدائني: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب إليه أماناً وأشهد شهوداً، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمر قد فات دركه. قال: لتقولن. قال: حزم لو قتلته وحييت. قال: أو لست بحي؟ فقال: ليس بحي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت.

أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين:

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيراً، فرآه خائراً [1]، فقال: يا أبا الريان، مالك خائراً؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعتذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت، واعتررت يا أبا الريان! أعطوه كذا وكذا.

أتلوماني على هذا؟

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن يمينه الوليد، وعن يساره سليمان. فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي، وأنشأ يقول:

وما أنا في حقي ولا في خصومتي ::: بمهتضم حقي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي من سوء ما جنى ::: ولا خائف مولاي من سوء ما أجني
وفضلي في الأقوال والشعر أنني ::: أقول الذي أعني وأعرف ما أعني
وأن فؤادي بين جنبي عالم ::: بما أبصرت عيني وما سمعت أذني

(١) خار الحر والرجل يخور خؤورة: ضعف وانكسر.

وإني وإن فضلت مـــروان وابنـــه ::: على الناس قد فضلت خير أب وابن

فضحك عبد الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان:

قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشق، فإنا لنحط رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وردة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب؛ فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً؛ مهلاً يا بن أخي، فلست أهلاً لهذه المقالة منك؛ قال: بلى ولشر منها؛ قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبد ثقيف يتفخذها؛ قال: وفي هذا عتب علي يا بن أخي؟ قال: وما أكثر من هذا؟ قال: والله إن أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك، إن كان من قبلكم من الولاة ليصلون رحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني ما عندكما حتى ركبني من الدين ما والله لو أن عبداً مجدعاً حبشياً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها، فإنما فديت بها رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك - وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته ورفعته، حتى تفخذ نساء عبد مناف، وأدركته الغير. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه أن لا يضع

كتابه من يده حتى يطلقها. فما قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك.

قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا عير مقبلة من الحجاج، عليها لطف وكسوة وميرة، حتى لحق عبد الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابن جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سأله عن مطعمه ومشربه، فلما انقضت مسألته، قال له يحيى بن الحكم: أمن خبيثة كان وجهك أبا جعفر؟ قال: وما خبيثة؟ قال: أرضك التي جئت منها؛ قال: سبحان الله! رسول الله يسميها طيبة وتسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين. فلما خرج من عنده هيأ له ابن جعفر هدايا وألطافاً. فقلت لبديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف، من وصفاء ووصائف وكسوة وحرير ولطف من لطف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلت عليه وليس عنده أحد، فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريته شيئاً: عافى الله أبا جعفر، ما رأيت كاليوم، وما كنا نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كنا لمتذممين محتشمين. قال: فخرجت من عنده، وإذن لأصحابه، فوالله لبينا أنا أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال: أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت لنا وخش رقيق الحجاز أباقهم، وحبست عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدثهم عن هدايا ابن

جعفر ويعظمها عندهم؛ فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر؟ جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبس عنك فلانة؛ قال: ويلك! وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع والله أحد بمثلها قط جمالاً وكمالاً وخلقاً وأدباً، لو أراد كرامتك بعث بها إليك؛ قال: وأين تراها، وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر إذا سمع ما يكره تصام، فأقبل علي فقال: ما يقول بديح؟ قال: قلت: فإن أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم؛ قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز الله نصرك، وكبت عدوك؛ فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا، وأعاد مقالته الأولى. فسألني، فصرفته إلى وجه آخر؛ فأقبل علي الرسول، فقال: يا ماص أبرسل أمير المؤمنين تهكم؟ وعن أمير المؤمنين تجيب هذا الجواب؟ قال: والله لأطلن دمك؛ فانصرف. وأقبل علي ابن جعفر فقال: من ترى صاحبنا؟ قال: صاحبك بالأمس؛ قال: أظنه، فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلفت له ما تكلفت فإن منعتها إياه جعلتها سبباً لمنعك، ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه، قال: ادعها لي. فلما أقبلت رحب بها، ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت؛ قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببت، جاء الدهر فيه بما جاء؛ قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك، فإن تهوين فذاك، وإلا والله لا يكون أبداً؛ قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلت عينيها بالبكاء؛ فقال لها: أما إذا فعلت فلا ترين مكروهاً، فمسحت عينيها، وأشار إلي فقال: ويحك يا

بديح! استحثها قبل أن تتقدم إلي من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبه، فدحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيباً، ثم قال: عجلها ويلك! فخرجت أسوقها حتى انتهيت إلى الباب، وإذا الفارس قد بلغ عني، فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو يتلظى؛ فقال لي: يا ماص! وكذا أنت المجيب عن أمير المؤمنين والمتهكم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أتكلم؛ قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: ائذن لي يجعلني الله فداك أتكلم؛ قال: تكلم؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأناً، وأقل خطراً من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين، نعم قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين أنا إنما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأن الله لم يزل إليه محسناً، فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قط مثله، إنما طلبت نفسه التي بين جنبيه، فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه، ثم سألني فأخبرته، واستشارني فأشرت عليه، وها هي ذه قد جئتك بها؛ قال: أدخلها ويلك! قال:

فأدخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنه غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن

وارى الشيب، وعليه حلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخصرة يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً؛ قال: فأين قولك آنفاً؟ قالت: رأيت شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسلمة. دخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنه غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب، وعليه حلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخصرة يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً؛ قال: فأين قولك آنفاً؟ قالت: رأيت شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسلمة.

قال بديح: فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي، وأريته الجواري والطيب؛ قال: عافى الله ابن جعفر، أخشي أن لا يكون لها عندنا نفقة وطيب وكسوة؟ فقلت: بلى، ولكن أحب أن يكون معها ما

تكتفي به حتى تستأنس. قال: فقبضها مسلمة. فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هلكت. قال بديح: فوالله الذي ذهب بنفس مسلمة، ما جلست معه مجلساً، ولا وقفت موقفاً أنازعه فيه الحديث إلا قال: أبغني مثل فلانة، فأقول: أبغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال: حين دفع إليه حاجته ودينه، لأجيزنك جائزة، لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها، فأمر له بمائة ألف، وأيم الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريته التي كانت عدل نفسه مائتي ألف [1].

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان:

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث رجلاً يصلح للدين وللدنيا، أتخذه سميراً وجليساً وخلياً؛ فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي، وبعث به إليه. فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت قول زهير:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ::: خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ::: فكيف بمن يرمى وليس برامي
فلو أنني أرمى بنبل رأيتها ::: ولكنني أرمى بغير سهام
على الراحتين تارة وعلى العصا ::: أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ سبعين حجة:

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ::: خلصت بها عن منكبي ردائيا

ولما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال:

بانت تشكي إلى النفس موهنة ::: وقد حملتك سبعاً بعد سبعيناً

---

(١) العقد الفريد، ١ /١١٤.

فإن تزادي ثلاثاً تبلغي أملاً ::: وفي الثلاث وفاء للثمانينا

ولما بلغ تسعين سنة قال:

وقد سئمت من الحياة وطولها ::: وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولما بلغ عشراً ومائة قال:

أليس ورائي إن تراخت منيتي ::: لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي خلت ::: أنوء كأني كلما قمت راكع

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ::: وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما فقولا بالذي تعلمانه ::: ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذي لا صديقه ::: أضاع ولا خان الخليل ولا غدر

إلى سنة ثم السلام عليكما ::: ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها[1].

وفود الحجاج بأبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان:

قال عمران بن عبد العزيز: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعظم منزلته، فلم تزل حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه معادلاً، لا يقصر له في بر ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم

(١) العقد الفريد، ١ /١١٥.

ووجوب الحق وعظم قد الأبوة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك، وتعرف له ما عرفتك؛ فقال: أذكرتنا رحماً قريبة وحقاً واجباً، يا غلام، ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الوازرة، فلا تدعن حاجة عن خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا، ولحق نبيه أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخلني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي؛ قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد. قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خطرف الستر أقبل علي، فقال: يا بن طلحة، قل نصيحتك؛ فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه، وتعجرفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطؤهم بطغام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته، أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة، فاربع على نفسك أودع. فقال له عبد الملك: كذبت ومنت وظن بك الحجاج ما لم يجده

فيك، وقد يظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمت وما أعرف طريقاً، فلما خطرف الستر لحقني لاحق، فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل، فدخل، فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن، فقال: ادخل يا بن طلحة، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج، وهو خارج وأنا داخل، فاعتنقني وقبل ما بين عيني، وقال: أما إذا جزى الله المتواخيين خيراً تواصلهم فجزاك الله عني أفضل الجزاء، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك؛ قال: قلت: يهزأ بي وحق الكعبة. فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة، لعل أحداً شاركك في نصيحتك هذه؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصع عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج، ولو كنت محابياً أحداً لغرض دنيا لحابيته، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه؛ قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج، ولكن أردت الله والدار الآخرة، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما، ووليته العراقين، وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له، لألزمه بذلك من حقك ما يؤدي إليك عني أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام لصحبته. فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه (1).

وفود جريرعلى عبد الملك بن مروان:

لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

(1) العقد الفريد، ١ /١١٧.

من سد مطلــع النفــاق علــيكم ::: أم من يصول كصــولة الحجــاج
أم من يغار على النســاء حفيظــة ::: إذ لا يـــثقن بغـــيرة الأزواج

وقوله:

دعا الحجاج مثــل دعــاء نــوح ::: فــأسمع ذا المعــارج فاســتجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فقال:

أتصحو بل فؤادك غير صاحٍ

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعـــزت أم حـــزرة ثم قالـــت ::: رأيــت الــواردين ذوي امتيــاح
ثقــي بــالله لــيس لــه شــريك ::: ومــن عنــد الخليفــة بالنجــاح
سأشـــكر إن رددت إلي ريشـــي ::: وأثبـــت القـــوادم في جنـــاحي
ألستم خير مــن ركــب المطايــا ::: وأنــدى العــالمين بطــون راح

ارتاح عبد الملك وكان متكئاً، فاستوى جالساً، ثم قال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت؛ ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب كلها سود الحدقة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته؛ فلو أمرت بالرعاء؛ فأمر له بثمانية من الرعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده؛ فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحفة منها، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك. ففي ذلك يقول جرير:

أعطــوا هنيــدة يحــدوها ثمانيــة ::: ما في عطائهم مــن ولا شــرف[1]

من أنت؟

قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سناً، فقال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقال: لقد كان أبوك وعمك نعاقين في فتنة ابن الأشعث؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم يعدد، وإذا صفح لم يثرب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بحر لا تكدره الدلاء. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

أبالحرمان يهددني!

قال العتبي: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجودة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية فدخل عليه عمر بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أدنى حقك معتب، وبعضه فادح لنا، ولنا من حقك علينا حق عليك، بإكرام سلفنا لسلفك، فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك؛ قال: عبد الملك: إنما ما يستحق عطيتي من استعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه، فسنكله إلى نفسه، ثم أمر له بعطيته.

فبلغ ذلك خالداً فقال: أبالحرمان يهددني! يد الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبذول، فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

مذ متى اعتللت؟

(١) العقد الفريد، ١ /١١٨.

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فرآه شاحباً ناحلاً، فقال له: مذ متى اعتللت؟ فقال: ما مسني سقم، ولكني جفوت نفسي إذ جفاني الأمير، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعاده إلى حسن رأيه.

اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها:

أتي عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق، فأمر بقطع يده فأنشأ يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها ::: بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
ولا خير في الدنيا وكانت حبيبة ::: إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فأبى إلا قطعه؛ فقالت أمه: يا أمير المؤمنين، واحدي وكاسبي؛ قال: بئس الكاسب كان لك، وهذا حد من حدود الله؛ قال: يا أمير المؤمنين، اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه.

أنت رأيت ذلك!

قال أبو الحسن المدائني: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير، فلما بايع الناس عبد الملك بن مروان، ولى عثمان بن حيان المري، وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فعرض يوماً بذكر الفتنة وأهلها، فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه، كان مع ابن الزبير وعمل له؛ فقال عثمان بن حيان: ويلي عليه، والله لأقتلنه؛ قال العباس: فبلغني ذلك، فتغيبت حتى أضر بي التغيب، فأتيت ناساً من جلسائه فقلت لهم: ما لي أخاف وقد أمنني عبد الملك بن مروان؟ فقالوا: والله ما يذكرك إلا تغيظ عليك، وقلما كلم على طعامه في ذنب إلا انبسط، فلو تنكرت وحضرت عشاءه وكلمته. قال: ففعلت، وقلت على طعامه وقد أتي بجفنة ضخمة ذات ثريد ولحم: والله لكأني أنظر

إلى جفنة حيان بن معبد والناس يتكاوسون عليها، وهو يطوف في حاشيته، يتفقد مصالحها، يسحب أردية الخز، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يميطه، ثم يؤتى بجفنة تهادى بين أربعة، ما يستقلون بها إلا بمشقة وعناء، وهذا بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتنحون عنه، فيأتي الحاضر من أهله بالدنو والطارئ من أشراف قومه، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام، وما هو إلا الفخر بالدنو من مائدته والمشاركة ليده؛ قال: هيه، أنت رأيت ذلك؟ قلت: أجل والله؛ قال لي: ومن أنت؟ قلت: وأنا آمن؟ قال: نعم؛ قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري، قال: مرحباً وأهلاً، أهل الشرف والحق. قال: فلقد رأيتني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده. فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت ونزلنا ذلك الماء وغشينا وعليه عباءة ذكوانية، فلقد جعلنا نذوده عن رحلنا مخافة أن يسرقه.

ما خرج هذا إلا من كلام النبوة:

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة لأغزينك جنوداً مائة ألف ومائة ألف. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتب إليه بما يقول، ففعل، فقال عبد الله بن الحسن: إن لله عز وجل لوحاً محفوظاً، يلحظه كل يوم ثلثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة. فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

أنىَ لك هذا!

ودخل رجلٌ على عبد الملك بن مَرْوان، وكان لا يَسأله عن شيء

إلاّ وَجد عنده منه عِلماً، فقال لهُ: أنىَ لك هذا؟ فقال: لم أمْنع قطّ يا أميرَ المؤمنين علماً أفيده، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنتُ إذا لقيت الرَّجُلَ أخذتُ منه وأعطيتُهُ.

ابن من أنت؟

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك، قال: صدقت.

ما في إبليس شرٌ من هذا:

وقال عبدُ الملك بن مَرْوان للحجاج: إنه ليس منَ أحدٍ إلا وهو يَعرف عَيب نفسه، فصفْ لي عيوبك. قال: أعفِنى يا أمير المؤمنين؛ قال: لستُ أفعل؛ قال: أنا لَجُوج لدُود حَقُود حَسُود؛ قال: ما في إبليس شرٌ من هذا.

وأيُّ الملوك أكمل؟

دخل مُسلم بن يَزِيد بن وَهْب على عبد الملك بن مَرْوَان،. فقال له عبدُ الملك: أيُّ زمان أدركتَ أفضَل، وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أمّا المُلوك فلم أرَ إلا حامداً أو ذامًّا، وأما الزمان فيَرْفع أقواماً، وكلّهم يَذُم زمانَه لأنه يُبْلِي جديدَهم، ويُفرَق عديدهم، ويهْرِم صغيرَهم؛ ويهلك كَبيرَهم.

وقال الشاعر:

أيا دهرُ إن كنتَ عاديتَنا ::: فَها قد صَنَعتَ بنا ما كفَاكَا
جَعلت الشرَارَ علينا خِياراً ::: وولَيتنا بعدَ وَجْهٍ قفَاكا

وقال آخر:

إذا كان الزمانُ زمانَ تَيْمٍ ::: وعكْلٍ فالسلامُ على الزّمانِ

زمان صارَ فيــه الصــدرُ عَجْــزا ::: وصــار الــزُّجّ قُــدّامَ السّــنان
لعــلّ زمانَنــا سَــيعود يومًــا ::: كما عاد الزمــانُ علــى بِطــان

أما وجدتْ لك أمُك اسماً إلا عطاء!

دخل عَطاء المُضْحك على عبد الملك بن مَرْوان، فقال له: أما وجدتْ لك أمُك اسماً إلا عطاء؟ قال: لقد استكثرتَ من ذلك ما استكثرتَه يا أميرَ المؤمنين، ألا سَمّتني باسم المُباركة، صلوات الله عليها، مَرْيم (١).

زُبيريّ!

دَخل رجل من قَيْس على عبد الملك بن مَرْوان فقال: زُبيريّ! والله لا يحبك قلبي أبداً؛ قال: يا أميرَ المُؤمنين، إنما يَجْزع من فقد الحُبّ النّساء، ولكنْ عَدْلاً وإنْصافاً. وقال عمر بن الخطّاب لأبي مَريم الحنفيّ، قاتل زيد بن الخطّاب: والله لا يُحبك قلبي أبداً حتى تُحِبّ الأرضُ الدمَ؛ قال: يا أمير المؤمنين، فهل تَمْنعني لذلك حقا؟ قال: لا؛ قال: فحَسبي (٢).

أتعرفني يا أمير المؤمنين؟!

وروت الرواة أن الحجاج لما أخذ رأس ابن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان مع عرار بن عمرو بن شأس الأسدي وكان أسود دميماً فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقعة إلا أنبأه به عرار، في أفصح لفظ، وأشبع قول، وأجزأ اختصار، فشفاه من الخبر، وملأ أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه،

(١) العقد الفريد، ١ /٤٧٤.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٦، ١٠، ١٢، ١٩، ٢٣، ٣٧، ٧١، ٩٠، ١١٨، ١٣٦، ١٣٨، ٢٧٤، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٥، ١٦١، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٧٤، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٧١، ٣٠٥، ٣٣٦.

وقد اقتحمته عينه حيث رآه فقال متمثلاً:

أرادت عواراً بالهوان ومـن يـرد ::: لعمري عواراً بالهوان فقـد ظلـم
وإن عواراً إن يكن غـير واضـح ::: فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

فقال له عرار: أتعرفني يا أمير المؤمنين قال: لا، قال: فأنا والله عرار فزاده في سروره، وأضعف له الجائزة [1].

لقلنا: صدقت!

ويروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً، فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك فقال له خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها، وأصغره، وعبد الملك مطرق، فرفع رأسه، فقال:{إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾} [النمل: ٣٤]، فقال خالد:{ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦]، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحناً فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان، فقال له خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه

---

(١) الكامل في اللغة و الأدب، ١ /٢١٧.

خالد، فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه وقال: ويحك فمن العير والنفير غيري؟ جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات، وحبيلات، والطائف ورحم الله عثمان لقلنا: صدقت! [(١)].

فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيماً!

ويروى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: " وبلغني أن أمير المؤمنين عطس عطسة فشمّته قومٌ، فقال: يغفر الله لنا ولكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيماً "![(٢)].

كثير والأخطل عند عبد الملك بن مروان:

وحدث أن كثيراً دخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل، فأنشده التفت عبد الملك إلى الأخطل، فقال: كيف ترى؟ فقال: حجازي مجوع مقرور[(٣)]، دعني أضغمه يا أمير المؤمنين، فقال كثير: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال له: هذا الأخطل، فقال له كثير: مهلاً، فهلا ضغمت الذي يقول:

لا تطلبن خؤولة في تغلب ::: فالزنج أكرمُ منهم أخوالاً
والتغلبي إذا تنحنح للقرى ::: حك استه وتمثل الأمثالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرفٍ [(٤)].

نصيب عند عبد الملك بن مروان:

وحدثت أن نصيباً أتى عبد الملك فأنشده، فاستحسن عبد الملك

(١) الكامل في اللغة و الأدب، ١ /٢٦٤.
(٢) الكامل في اللغة و الأدب، ٨٣/٢.
(٣) مقرور: أصابه القر، وهو البرد.
(٤) الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١١٧.

شعره وسر به، فوصله، ثم دعا بالغداء فطعم معه، فقال له بعد الملك: يا نصيب، هل لك فيما يتنادم عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، تأملني، قال: قد أراك، فقال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح، ولست في منصب، وإنما بلغ بي مجالستك ومؤاكلتك عقلي وأنا أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل عليه ما ينقص. فأعجبه كلامه فأعفاه [1].

شمعل التغلبي حين ضربه عبد الملك بن مروان:

قال: كلم شمعل التغلبي عبد الملك كلاماً لم يرضه، فرماه عبد الملك بالجرز ١ فخدش وهشم، فقال شمعل:

أمن جذبه بالرجل مني تباشـــرت ::: عداتي، فلا عيب علي ولا ســـخر
فـــإن أمـــير المـــؤمنين وســـيفه ::: لكالدهر، لا عار بما فعل الدهر! [2]

عبد الملك بن مروان ورجل من الخوارج:

وذكروا أن عبد الملك بن مروان أتي برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء فهماً ثم بحثه، فرأى ما شاء إرباً ودهياً[3]، فرغب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الإستدعاء فقال له: لتغنك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل، قال له: قل. فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته: لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنا أولى بالجهاد منهم. ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق. فقلت له: لله الآخرة والدنيا، وقد سلطنا الله

(١) الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١١٨.
(٢) الكامل في اللغة و الأدب، ٢ /١١٩.
(٣) الأرب: البصر بالأمور، والدهى، مصدر دهى، كرضي، إذ كان صاحبه عاقلا مجربا.

في الدنيا، ومكن لنا فيها، وأراك لست تجيب بالقبول، والله لأقتلنك إن لم تطع.

فبينما في ذلك إذ دخل علي بابني مروان.

قال أبو العباس: كان مروان أخا يزيد لأمه، أمهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أبياً عزيز النفس، فدخل به في هذا الوقت على عبد الملك باكياً لضرب المؤدب إياه، فشق ذلك على عبد الملك، فأقبل الخارجي، فقال له: دعه يبكي؛ فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة الله، فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قوله عبد الملك، فقال معجباً: أما يشغلك ما أنت فيه وبعرضه عن هذا! فقال ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء، فأمر عبد الملك بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بعد يعتذر إليه: لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك.

ثم قال عبد الملك: من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي. وكان عبد الملك من الرأي والعلم بموضع [1].

صديق عبد الملك بن مروان:

عن حماد بن سلمة: أن عبد الملك كان له صديق، وكان من أهل الكتاب، يقال له يوسف، فأسلم، فقال له عبد الملك يوماً، وهو في عنفوان نسكه، وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري، من مرة غطفان، تريد المدينة ألا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله ؟ فقال له يوسف: جيشك والله إلى حرم رسول الله

(١) الكامل في اللغة و الأدب، ٣ /١٧٠.

أعظم من جيشه، فنفض عبد الملك ثوبه ثم قال: معاذ الله! قال له يوسف: ما قلت شاكاً ولا مرتاباً، وإني لأجدك بجميع أوصافك. قال له عبد الملك: ثم ماذا؟ قال: ثم يتداولها رهطك. قال: إلى متى؟ قال: إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان (١).

هكذا العرب تقتتل بينها:

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب فقد تشاغل بعضهم ببعض ووقع بأسهم بينهم فالرأي أن تغزوهم في بلادهم فإنك تذلهم وتنال حاجتك منهم، فنهاهم عن ذلك فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلبين فأرّش بينهما فاقتتلا قتالاً شديداً ثم دعا بثعلب فخلاّه بينهما، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك وأقبلوا علينا، فعرفوا صدقه ورجعوا عما كانوا عليه.

أرسول أمير المؤمنين أنت؟

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن محمد صاحب البلقاء أن اخطب عليّ الشقراء بنت شبيب بن عوانة الطائية وهو يومئذ في بادية له ومعه عدة من أصحابه. فأرسل إليه عمر: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أخطب عليه الشقراء ابنتك فاحضر فارسل إليه. فقال: ما لنا إليكم حاجة، فإن كانت لأمير المؤمنين إلينا حاجة فليأت أو يرسل رسولاً. فقال عمر: سيروا بنا إليه. فسار في جماعة

---

(١) محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ١ / ١١٠.

من وجوه البلقاء. قال: فدفعنا إلى أعرابي بفناء خيمته فسلمنا فرد السلام، وتكلم عمر فقال الأعرابي: أرسول أمير المؤمنين أنت؟ قال: نعم، قال: فإنا قد زوجناه على صداق نسائنا مائة من الإبل وما يتبعها من الثياب والخدم. فقلت: نعم. ثم جاءنا بثلاث جفان من كسور خبز ولبن فأكلنا ثم انصرفنا، فكتبت إلى عبد الملك بن مروان فأرسل إليه بمائة من الإبل وعشرة آلاف درهم وما يتبع ذلك من الطيب والخدم والأثاث. فجهزها ثم حملها إلى عبد الملك وما معها من ذلك شيء إلا البعير الذي ركبته ومعها نسوة من بنات عمها. فلما وافت عبد الملك أمر فأُدخلت إلى دار فأقامت أياماً ثم إن عبد الملك بنى بها فكان كثيراً ما يقول: ما رأيت مثل هذه الأعرابية ظرفاً وخلقاً ومنطقاً.

فاشتد ذلك على عاتكة بنت يزيد بن معاوية فأرسلت إلى روح بن زنباع، وكان من أخص الناس بعبد الملك، فقالت: يا أبا زرعة قد علمت رأي أمير المؤمنين معاوية كان فيك ورأي يزيد من بعده وأن أمير المؤمنين قد أعجبه أمر هذه الأعرابية وغلبت على قلبه فشأنك في إفساد ذلك عنده. قال: نعم ونعمة عينٍ. ثم خلا بعبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين كيف ترى الأعرابية؟ قال: قد جمعت ما جمع النساء الحاضرة والبادية. قال: يا أمير المؤمنين إنك من الأعرابية كما قال الأول:

وإذا تسرك من تميم خلةٌ ::: فلما يسوءك من تميم أكثر

فقال له: لا تقل ذلك، قال: كأنك بها قد حالت إلى غير ما هي عليه.

فكثر ذلك منه. ثم إن عبد الملك دخل عليها فقال: يا شقراء أعلمت أن روحاً قال لي كذا وكذا؟ قالت: ولم ذاك وحال عشيرتي وعشيرته كما تعلم؟ قال: هو علي ما قلت لك وإن أحببت أسمعتك

ذلك منه! فقالت: قد أحببت.

فأمرها أن تجلس خلف الستر وأرسل إلى روح، فلما دخل عليه قال: هيه يا أبا زرعة والله لقد وقع كلامك مني موقعاً! قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الأعرابية تنتكث كانتكاث الحبل ثم لا تدري ما أنت عليه منها. فعجّلت ورفعت الستر وقالت: أنت فلا حياك الله ولا وصل رحمك قد كان يبلغني هذا عنك فما كنت أصدق! فوثب روح وقال: يا هذه إن هذا أرسل إليّ فأعلمني أنك خلف الستر وعزم عليّ أن أتكلم بهذا فلم أجد بداً من أبرّ عزيمته، وأما أنت فلا يسوءك الله! قالت: صدق والله ابن عمي وأنت الذي حملته على ما قال. فقال عبد الملك: ويلك يا شقراء ألا تقبلي منه! قالت: هو عندي أصدق منك. وجعل روح يقول وهو مولٍّ: هو والله الحق كما أقول. فخرج ووقع الكلام بينهما [1].

وله علي ما يتمناه:

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمناه فقام إليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١ / ٤٦، ٥٦، ٦١، ١٧١، ٢٤٨.

أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات

ولك ما تتمناه فابتدأ يقول انف أسنان أذن بطن بنصر بزة ترقوة تمرة تينة ثغر ثنايا ثدي جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ دراديرذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سرة سبابة شفة شفر شارب صدر صدع صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عاتق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيدنا عليها شيئا أعطوه ما يتمناه ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

أما والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب:

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال أيها الناس إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن حامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال أجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالي أرى الرؤوس مطرقة

والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق قال ومن انت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة قال إليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال انا للعراق فقال إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للاعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذي تحتاج إليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال

وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يزد عليه أحد شيئا فقال إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى رؤوسًا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها واني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس منى الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة

وإني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفتقبله بديلا مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا ابن صابئ الذي يقول:

(هممت ولم أفعل وكدت وليتني ::: تركت على عثمان تبكي حلائله)

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر [(١)].

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية

---

(١) المستطرف، ١ /١١٦ - ١١٨.

وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فإن كنت اردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز و جل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب:

(إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ::: وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه)
(فإن ترمني غفلة قرشية ::: فيا ربما قد غص بالماء شاربه)
(وأن تر مني وثبة أموية ::: فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه)
(فلا تأمنى والحوادث جمة ::: فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه)
(فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ::: يقمن به يوما عليك نوادبه)
(فلا تمنعن الناس حقا علمته ::: ولا تعطين ما ليس للناس واجبه)
(فإنك أن تعطي الحقوق فإنما ::: النوافل شيء لا يثيبك واهبه)

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب:

(إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ::: أذاك فليلي لا توارى كواكبه)
(وما لامرىء بعد الخليفة جنة ::: تقيه من الأمر الذي هو راكبه)
(إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ::: لقامت عليه بالصباح نوادبه)
(إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ::: واقص الذي تسري إلي عقاربه)

(وأعط المواسي في البلاء عطية ::: لرد الذي ضاقت علي مذاهبه)
(فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ::: ويخشى غدا والدهر جم نوائبه)
(وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ::: وما لم تقله لم أقل ما يقاربه)
(ومهما أردت اليوم مني أردته ::: وما لم ترده اليوم إني مجانبه)
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ::: مدى الدهر حتى يرجع الدرحالبه)
(وإلا فدعني والأمور فإنني ::: شفيق رفيق أحكمته تجاربه) [1]

صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين:

- كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجَّاج: صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين. فكتب إليه: لوكنت شاعراً لوصفتها لك في شعري، ولكني أصفها لك بمبلغ رأيي وعلمي، الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، فلما قرأ كتابه، قال: إن ذلك لكما وصفت، فخذ من قبلك بالجماعة، وأعطهم عطايا الفرقة، واستعن عليهم بالفاقة، فإنها نعم العون على الطاعة، فأخبر بذلك أبو جعفر المنصور فلم يزل عليه حتى مضى لسبيله.

- قال عبد الملك بن مروان: لقد كنت أمشي في الزرع فأتقي الجندب أن أقتله، وإن الحجاج اليوم ليكتب إليّ بقتل فئام من النّاس فما أحفل بذلك.

فما صنعت يا شعبي!

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا شعبي! بلغني أنه اختصم إليك رجلٌ وامرأته، فقضيتَ للمرأة على زوجها، فقال فيك شعراً، فأخبرني بقصتيهما وأنشدني الشعر إن كنت سمعته. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تسألني عن ذلك. فقال: عزمت عليك لتخبرني. قال: نعم، اختصمت إلى امرأة وبعلها، فقضيت للمرأة إذ

(١) المستطرف، ١ /١١٩.

توجه لها القضاء، فقام الرجل وهو يقول:

فَتِن الشّعْبيُّ لّما ::: رَفَعَ الطّرْفَ إليها
بفتاةٍ حين قامتْ ::: رفَعَتْ مَأكَمَتَيْها
ومشت مشياً رُوَيْداً ::: ثم هزّت مِنْكَبَيْها
فتنتهُ بقوامٍ ::: وبخطَّيْ حاجبيها
وبنانٍ كالمَدَاريِ ::: واسْودادِ مُقْلَتَيْها
قال للجلْوَاز قَرّب ::: هَاوأحْضِر شاهديْها
فقضى جوراً علينا ::: ثم لم يَقْضِ عَلَيها
كيف لو أبْصر منها ::: نحرَها أو سَاعِدَيها
لصَباَ حتى تَرَاهُ ::: ساجداً بينَ يَدَيْها
بنتُ عيسى بن حَرادٍ ::: ظُلِمَ الخَصْمُ لَدَيْها

قال عبد الملك: فما صنعت يا شعبي؟ قال: أوجعتُ ظهرهَ حين جوّرني في شعره.

وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان:

ضرب عبد الملك بن مروان بعثاً إلى اليمن، فأقاموا سنين، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق، قال: والله لأعسن الليلة مدينة دمشق، ولأسمعن ما يقول الناس في البعث الذي غربت فيه رجالهم، وغرمت فيه أموالهم. فبينما هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي، فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحجب، ويا منزل الكتب، ويا معطي الرغب، ويا مؤدي الغرب. أسألك أن ترد غائبي، فتكشف به همي، وتصفي به لذتي، وتقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بي هذا، فقد صير الرجل نازحاً عن وطنه، والمرأة مقلقةً على فراشها، ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا اللّيلُ فــالعينُ تــدمَعُ ::: وأَرّقني حُزْنــي وقلبــيَ مُوجَــعُ
فبتّ أقاسي الليلَ أرعَــى نجومَــهُ ::: وباتَ فــؤادي هامــداً يتفــزّعُ
إذا غابَ منها كوكبٌ في مغيبــهِ ::: لمحتُ بعيني آخــراً حــين يطلــعُ
إذا ما تذكرتُ الذي كــان بيننَــا ::: وجدتُ فؤادي للــهَوَى يتقطّــعُ
وكــلٌّ حبيــب ذاكــرٌ لحبيبــهِ ::: يرَجّى لِقاهُ كــلّ يــوم ويطمــعُ
فذا العرشِ فُرج مًا ترى من صَبَابتي ::: فأنت الذي ترعى أموريَ وتســمعُ
دعوتُك في السّراءِ وَالضُّرِّ دعــوةً ::: على غُلة بين الشراشــيف تلْــذَعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف لمن هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل زيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته. فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر ألا يمكث العسكر أكثر من ثلاثة أشهر.. (١).

بي فضل:

دعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى غدائه، فقال له قد تغديت. قال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام! فقال: يا أمير المؤمنين! بي فضل، ولكني كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين.. (٢).

أَشْبَهُ بِهِ مِنَ التَّمْرَةِ بالتَّمْرَةِ:

في هذا حديث وذلك أن عُبَيد الله ابن زياد بن ظبيان أحَدَ بني تَيْم اللات بن ثعْلبة دخل على عبد الملك بن مروان وكان أحدَ فُتَّاك العرب في الإسلام وهو الذي احْتَزَّ رأسَ مُصْعَب بن الزبير فدخل به على عبد الملك بن مروان وألقاه بين يديه فسَجَد عبدُ الملك وكان

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ٦، ٧٢، ٧٣، ٩٧، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٩، ٢١٢، ٢٢٨.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ٦، ٧٢، ٧٣، ٩٧، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٩، ٢١٢، ٢٢٨.

عبيد الله هذا يقول بعد ذلك: ما رأيت أعْجَزَ مني أن لا أكون قتلتُ عبدَ الملك فأكونَ قد جمعتُ بين قتلي ملك العراق وملك الشام في يوم واحد وكان يجلس مع عبد الملك على سريره بعد قتله مُصْعَبَ بن الزبير فَبَرِمَ به. فجعل له كرسياً يجلس عليه فدخل يوماً وسُوَيْدُ بن مَنْجُوف السَّدُوسي جالسٌ على السرير مع عبد الملك فجلس على الكرسي مُغْضَبا فقال له عبد الملك: يا عبيدَ الله بلغني أنك لا تشبه أباك فقال: لأنَا أشبه بأبي من التمرة بالتمرة والبيضة بالبيضة والماء بالماء ولكني أخبرك يا أمير المؤمنين عَمَّنْ لم تنضجه الأرحام ولا وُلِدَ لتَمَام ولا أشبه الأخوال والأعمام قال: ومن ذلك؟ قال: سُوَيْد بن مَنْجُوف فقال عبد الملك: سُوَيْدُ أكذلك أنت؟ فقال: إنه ليقال ذلك وإنما عَرَّضَ بعبد الملك لأنه وُلد لسبعة أشهر فلما خرجا قال له عبيد الله: والله يا ابن عمي ما يَسُرُّني بحلمِكَ عليَّ حمر النعم فقال له سويد: وأنا والله ما يسرني بجوَابك إياه سُودُ النَّعَم[1].

وأَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ مُعَرَّكٍ:

قال محمد بن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أن كلباً أوقعَتْ ببني فزارة يوم. العاه قبل اجتماع الناس على عبد الملك بن مروان فبلغ ذلك عبدَ العزيز بن مروان فأظهر الشماتة وكانت أمه كليبة وهي ليلى بنت الأصبع بن زبان. وأم بشر بن مروان قطبة بنت بشر بن عامر بن مالك بن جعفر فقال عبد العزيز لبشر أخيه: أما علمت ما فَعَلَ أخوالي بأخوالك؟ قال بشر: وما فعلوا؟ فأخبره الخبر فقال: أخوالُكَ أضْيَقُ أسْتَاهاً من ذلك فجاء وَفْدُ بني فَزَارة إلى عبد الملك يخبرونه بما صُنِعَ بهم وأن حُرَيْث بن بَجْدل الكلبي أتاهم بعهدٍ من

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، ١ /٣٨٦.

عبد الملك أنه مصدق فسمعوا له وأطاعوا فاغْتَرَّهم فقتل منهم نَيِّفًا وخمسين رجلا فأعطاهم عبدُ الملك نصف الحَمَالات وضَمِنَ لهم النصف الباقي في العام المقبل فخرجوا ودَسَّ إليهم بشر ابن مروان مالا فاشْتَرَوُا السلاح والكُرَاع ثم اغْتَرُّوا كلبا ببني فزارة فلَقُوهم ببنات قين فتعدَّوْا عليهم في القتل فخرج بشر حتى أتى عبدَ الملك وعندهُ عبدُ العزيز بن مروان فقال: أما بلغك ما فعل أخوالي بأخوالك؟ فأخبره الخبر فغضب عبدُ الملك لإخفارهم ذمتَهُ وأخْذِهم ماله وكتب إلى الحجاج يأمره إذا فَرَغَ من أمر ابن الزُّبير أن يُوقِع ببني فَزَارة إن امتنعوا ويأخُذَ مَنْ أصاب منهم فلما فرغ الحجاجُ من أمر ابن الزبير نَزَلَ ببني فزارة فأتاهم حَلْحَلَةُ بن قيس بن أشْيَمَ وسعيد بن أبان بن عُيَينة بن حِصْن بن حُذَيفة بن بدر وكانا رئيسي القوم فأخبرا الحجاج أنهما صاحبا الأمر ولا ذنْبَ لغيرهما فأوثقهما وبَعَثَ بهما إلى عبد الملك فلما أدْخِلاً عليه قال: الحمدُ لله الذي أقاد منكما قال حلحلة: أما والله ما أقادمني ولقد نَقضْتُ وِتْرَي وشَفَيْتُ صَدْري وبردت وَحْري قال عبد الملك: مَنْ كان له عند هذين وِتر يطلبه فليقم إليهما فقام سفيان بن سُوَيْد الكلبي - وكان أبوه فيمنقتل يوم بنات قين - فقال: يا حلحلة هل حست لي سُوَيدا قال: عهدي به يوم بنات قن وقد انقطع خُرْؤه في بطنه قال: أما والله لأقتلنك قال: كذبت والله ما أنت تَقْتُلني وإنما يقتلني ابنُ الزرقاء والزرْقاء إحدى أمهات مَرْوَان بن الحكم وكانت لها راية وكانوا يُسَبُّون بالزرقاء فقال بشر: صَبْراً حَلْحَلُ فقال: إي والله:

أصْبَرُ مِن عَوْدٍ بجنبه جُلَبْ ::: قد أثّرَ البِطَانُ فِيهِ وَالحقَبْ

ثم التفت إلى ابن سُوَيد فقال: يا ابن استها أجِدِ الضربَة فقد وقعت مني بأبيك ضربةٌ أسْلَحَتْهُ فضرب عنقه ثم قيل لسعيد نحو ما قيل

لحلحلة فردَّ مثلَ جواب حلحلة فقام إليه رجل من بني عليم ليقتله فقال له بشر: اصْبِرْ فقال:

أصْبَرُ مِـــن ذِي ضَـــاغِطٍ مُعَـــرَّكِ ::: أَلْقَـــى بَـــوَانِي زَوْرِهِ لِلْمَبْـــرَكِ

ويروى " من ذي ضاغط عَرَكْرَكِ " وهو البعير الغليظ القويُّ والضاغط: الوَرَمُ في إبط البعير شِبْهُ الكيس يضغطه أي يضيقه ويقال: " فلان جيد البَوَانِي " إذا كان جيدَ القوائم والأكتاف [1].

عبد الملك والغلام العاشق:

عن أبي ريحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال: كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً، فبينا هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصة غير مترجمة، فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنيني ثلاثة أصوات ثم ينفذ في ما شاء من حكمه. فاستشاط من ذلك غضباً، وقال: يا رباح علي بصاحب هذه القصة. فخرج الناس جميعاً، وأدخل عليه غلام من أجمل الفتيان وأحسنهم، فقال له عبد الملك: يا غلام! أهذه قصتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: وما الذي غرك مني؟ والله لأمثلن بك، ولأردعن بك نظراءك من أهل الخسارة. علي بالجارية! فجيء بها كأنها فلقة قمر، وبيدها عود، فطرح لها الكرسي، فجلست، فقال عبد الملك: مرها يا غلام! فقال لها: غنيني يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لقد كنتِ حسبَ النفسِ لوْ دامَ ودُّنا ::: وَلَكِنَّمَـــا الـــدُّنْيَا مَتَـــاعَ غُـــرُورِ
وَكنّا جميعاً قَبلَ أنْ يَظهَـــرَ الهَـــوَى ::: بِـــأنْعَمِ حَـــالَيْ غِبْطَـــةٍ وَسُـــرُورِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُونَ حَتى بَدَتْ لَنَـــا ::: بُطُونُ الهَـــوَى مَقْلُوبَـــةً لِظُهُـــورِ

---

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، ١ / ١١٩..

فغنت، فخرج الغلام بجميع ما كان عليه من الثياب تخريقاً، ثم قال له عبد الملك: مرها تغنك الصوت الثاني! فقال: غنيني بشعر جميل:

أَلا لَيتَ شِعري هَلْ أبيتَنَّ لَيلَةً ::: بِوَادي القُرَى إني إذاً لَسَعيدُ
إذا قلتُ ما بي يا بُثَيَنَةُ قَاتِلي ::: مِن الحُبِّ قالت: ثابتٌ ويَزيدُ
وَإن قلتُ رُدي بعض عقلي أعش به ::: معَ النّاسِ قالت: ذاكَ منك بَعيدُ
فَلا أنا مَرْدُوْدٌ بِما جئتُ طالِباً ::: وَلا حُبُّهَا فِيما يَبيدُ يَبيدُ
يَموتُ الهَوَى مني إذا ما لَقيتُها ::: وَيَحيَا إذا فارَقتُها، فَيَعُودُ

قال: فغنته الجارية، فسقط الغلام مغشياً عليه ساعةً، ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مرها فلتغنك الصوت الثالث! فقال: يا جارية غنيني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفي الجيرَة الغادينَ من بَطنِ وَجرَةٍ ::: غَزَالٌ غَضيضُ المُقلَتينِ رَبيبُ
فَلا تَحسَبي أنَّ الغَريبَ الذي نَأى ::: وَلَكِنَّ مَن تَنأينَ عَنهُ غَريبُ

فغنته الجارية، فطرح الغلام نفسه من المستشرف فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع، فقال عبد الملك: ويحه لقد عجل على نفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل، وأمر، فأخرجت الجارية من قصره، ثم سأل عن الغلام، فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه:

غداً يكثُرُ الباكونَ مِنّا وَمِنكُمُ ::: وَتَزْدادُ داري من دِيارِكُمُ بُعدا (١)

وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون:

خطب عبد الملك بن مروان، فلما انتهى إلى موضع العظة من

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، ١٤٥.

خطبته قام إليه رجل من آل صوحان فقال: مهلاً مهلاً، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتّعظون، أفنقتدي بسيركم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا فأنّى وكيف، وما الحجّة، وأين النصر من الله عزّ وجلّ في الاقتداء بسيرة الظّلمة الخونة الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً؟ وإن قلتم: أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصيحتنا، فكيف ينصح غيره من يغشّ نفسه؟ وكيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلّدناكم أزمّة أمورنا، وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا وأدياننا؟ وما تعلمون أنّ فينا من هو أفصح بصنوف اللغات، وأعرف بوجوه الكلام منكم، فتحلحلوا لهم عنها، وإلّا فأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يبتدر إليها من شردتموهم في البلاد، وقتلتموهم في كلّ واد؛ وأما لئن ثبتت في أيديكم لاستيفاء المدة، وبلوغ الغاية، وعظم المحنة، إنّ لكلّ قائمٍ يوماً لا يعدوه، وكتاباً يتلوه:{لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا} [الكهف: ٤٩]، {وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧].

لا يتكلّم أحدٌ بأعراب!

قال محمد بن شهاب الزّهري: كنت عند عبد الملك بن مروان فدخل عليه رجلٌ حسن الفصاحة، فقال له عبد الملك: كم عطاؤك؟ قال: مائتا دينار، قال: في كم ديونك؟ قال: في مائتي دينار، قال: أما علمت أنّي أمرت أن لا يتكلّم أحدٌ بإعراب؟ قال: ما علمت ذلك، قال: أمن العرب أنت أم من الموالي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن تكن العربية أباً فلست منها، وإن تكن لساناً فإنّي منها، قال: صدقت، قال الله تعالى:{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾} [الشعراء: ١٩٥].

حقيقٌ بأن لا يقرّ على عمل:

استوفد عبد الملك بن مروان عاملاً بلغه أنّه قبل هديّة فقال له: أقبلت هديّة؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، ورعيّتك راضية، فقال: أجب عمّا تسأل عنه، قال: نعم، فقال عبد الملك: أما والله لئن كنت قبلت هديةً كافأت صاحبها بأن وليّته من عملنا ما لم تكن لتوليه لولا هديّته إنك للئيم، وإن كنت قبلتها ولم تعوّضه منها إنّك لخائنٌ حسود، وإن كنت أعطيته مثل ما أخذت وأطعمت في نفسك رعيّتك وعرّضتها لخليفتك إنّك لأحمق، ومن أتى شيئاً لا يخلو فيه من حمقٍ أو لؤمٍ أو خيانةٍ حقيقٌ بأن لا يقرّ على عمل.

حسنة بين سيئتين:

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز وهو صبي: كيف نفقتك على عيالك؟ فقال: حسنة بين سيئتين، فقال لمن حوله: أخذه من قول الله تعالى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾} [الفرقان: ٦٧].

أراك يا أمير المؤمنين ذاكراً ما قلت!

قال مالك بن عمارة: كنت ربما جالست عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير في ظل الكعبة أيام الموسم، فنخوض مرة في الفقه ومرة في المذاكرة ومرة في أخبار الناس وأشعار العرب، فكنت لا أجد عند أحد ما أجد عند عبد الملك، من اتساعه في المعرفة، وتصرفه في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوته إذا حدث؛ قال: فتفرق أصحابنا ذات ليلة وبقيت أنا وهو، فقلت: والله إني بك لمسرور لما أرى من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال لي: إنك إن تعش قليلاً فسوف ترى العيون إلي طامحة، والأعناق إلي قاصره، فإذا كان ذلك فلا عليك أن تعمل إلى فلا ملآن يديك فلما أفضت الخلافة إليه اتيته

فكان أول ما وقعت عينه علي وهو على المنبر، كشر في وجهي وبسر، فقلت: لم يثبتني معرفة، أو عرفني فأظهر لي نكره، لكني لم أبرح من مكاني حتى قضى الصلاة ودخل المقصورة، فلم يلبث إلا ريثما دخل إذ خرج آذانه فقال: أين مالك بن عمارة قلت ها أنا ذا فأخذا بيدي فادخلني إليه فلما رأني مد يده إلي ثم قال: تراءيت في موضع لم يجز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض، فأما الآن فحي هلا بك، كيف كنت بعدي وكيف كان مسيرك؟ قلت: خير، وعلى ما يحب أمير المؤمنين، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: أجل، هو أعملني إليك يا أمير المؤمنين، قال: والله ما هو ميراث ادعيناه، ولكني أخبرك عن نفسي بشيء سميت بي إلى موضعي هذا: ما داهنت ذا ود ولا قرابة قط، ولا شمت بمصيبة عدو، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي، ولا قصدت لكبيرة من محارم الله تلذذاً بها ولا واثباً عليها، وكنت من عبد مناف في بيتها، ومن بيتها في واسطة قلادتها، وكنت أرجو بهذه أن يرفع الله تعالى مني وقد فعل، ثم قال: يا غلام بوئه منزلاً في منزلي، فأخذ الغلام بيدي وقال: انطلق، فكنت في أخفض حال وألين بال، حيث يسمع كلامي وأسمع كلامه، فإذا حضر طعامه أو قعد لأصحابه أتاني الغلام فقال: إن شئت صرت إلى أمير المؤمنين فإنه قاعد لبطانته، فأمشي بلا حذاء ولا رداء، فيرفع من مجلسي، ويقبل علي ويحادثني ويسألني عن الحجاز مرة وعن العراق مرة، حتى إذا مضت عشرون ليلة، تعشيت في آخرها معه وقام من حضر، ونهضت لأقوم فقال: على رسلك أيها الرجل، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك؟ المقام قبلنا، فلك النصفة في المحافظة والمخالطة والمعشرة، أم الشخوص فلك الحباء والكرامة؟ فقلت: خرجت من أهلي على أني زائر لأمير المؤمنين -

أكرمه الله - وعائد إليهم، فإن أمرني بالمقام اخترت فناءه على المال والأهل والولد، قال: بل أرى لك الرجوع إلى أهلك فإنهم متطلعون إلى قدومك، فتحدث بهم عهداً ويحدثون بك مثله، والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك، وقد أمرت لك بعشرين ألف دينار وحملتك وكسوتك، أتراني ملأت يديك؟ فقلت: أراك يا أمير المؤمنين ذاكراً ما قلت؟ قال: أجل، ولا خير فيمن لا يذكر إذاً وعد، ولا ينسى إذا أوعد، ودع إذا شئت صحبتك السلامة؛ قال: فودعته وقبضت المال وانصرفت، فكان آخر العهد به [1].

أتعرف عبد الملك!

انقطع عبد الملك بن مروان عن أصحابه فانتهى إلى أعرابي فقال له: أتعرف عبد الملك؟ قال: نعم جائر بائر، قال: ويحك، أنا عبد الملك بن مروان، قال: لا حياك الله ولا بياك ولا قربك، أكلت مال الله وضيعت حرمته، قال: ويلك أنا أضر وانفع، قال: لا رزقني الله نفعك، ولا دفع عني ضرك. فلما وصلت خيله قال: يا أمير المؤمنين، اكتم ما جرى فالمجالس بالأمانة.

ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين!

دخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تقويض الأخبية. قال: فما يمنعك منه؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلماص يردعنا عن أن نهضم، فعلام الهجاء؟ قال: لكلامك أشعر من شعرك، فأي عز لك يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع والفهم الناصع. قالك فما الحلم الذي يردعك

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١ / ٥٥، ٢٧٢، ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٩٦، ٧/٢.

أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرف والطبع التالد. قال: يا عجاج،. قال: ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين؟ قال الحكم بن عبدل:

وإني لأستغني فمـا أبطـر الغـنى ::: وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحيانـاً فتشـتد عسـرتي ::: فأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي
ولست بذي وجهين في من عرفته ::: ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي

وفي ما يروى للوليد بن عبد الملك على أنه كان مشهوراً باللحن: من الكامل

ولقد قضـيت وإن تجلـل لمـتي ::: شيب على رغـم العـدا لـذاتي
من كاعبات كالـدمى ومناصـف ::: ومراكـب للصـيد والنشـوات
في فتية تـابى الهـوان وجـوههم ::: شم الأنوف جحـاجح سـادات
إن يطلبوا بتـراقم يعطـوا بهـا ::: أو يطلبـوا لا يـدركوا بتـرات

وقال أبو النجم العجلي:

والخيل تسـبح بالكمـاة كأنها ::: طـير تمطـر في ظـلال عمـاء
يخرجن في رهـج دويـن ظلالـه ::: مثل الجنادب من حصـى المعـزاء
يلفظن من عجم الشكيم وعضـه ::: زبـداً خلطـن بياضـه بـدماء
كم مـن كريمـة معشـر أيمنـها ::: وتـركن صـاحبها بـدار ثـواء
إن الأعـادي لـن تنـال قـديمنا ::: حتى تنـال كواكـب الجـوزاء
كم في لجـيم مـن أغـر كأنـه ::: صبح يشـق طيـالس الظلمـاء
بحـر يكلـل بالسـديف جفانـه ::: حتى يمـوت شمـال كـل شـتاء
ومحرب خضل البنـان إذا التقـى ::: زحف محـاترة الصـدور ظمـاء
إنا وجـدك لا يكـون سـلاحنا ::: حجر الأكام ولا عصـا الطرفـاء
نأوي إلى حلـق الحديـد وقـرح ::: قب تشـوف نحـو كـل دعـاء
تلكم مراكبنـا وفـوق كماتنـا ::: بيض الغضـون سـوابغ الأثنـاء
قدرن من حلـق كـأن شـعاعها ::: ثلج يطـيش علـى متـون نهـاء

تحمي الرماح لنا حمانا كله ::: ونبيح بعد مسارح الأحياء
إن السيوف تجيرنا ونجيرها ::: كل يجير بعزة ووفاء

لسميت نفسي زينب:

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير: ما ثابت من الأسماء؟ لا باسم رجل ولا بامرأة، قال: يا أمير المؤمنين، لا ذنب لي، لو كان اسمي إلي لسميت نفسي زينب، يعرض بأبيه كان يعشق زينب بنت عبد الرحمن بن هشام، وخطبها فقالت: لا أوسخ نفسي بأبي الذبان.

حسبك ما فعلت:

كان بالمدينة رجل من أهل الكتاب يقال له يوسف، موصوف بقراءة الكتب. فلقي عبد الملك بن مروان، فقال له: إن بشرتك بشارةً تسرك، ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السرور حتى يعلم مقدارها من الجعل؟ قال: أن تملك الأرض، قال: ما لي من مال، ولكن أرأيت إن تكلفت لك جعلاً أتأتيني بذلك قبل وقته؟ قال: لا، قال: فإن حرمتك، أتؤخره عن وقته؟ قال: لا، قال: حسبك ما فعلت.

وخرج عن البهو وأمر بهدمه:

قال عبد الملك بن عمير الليثي: دخلت على عبد الملك بن مروان وهو جالس في بهو على سرير وقد وضع بين يديه رأس مصعب بن الزبير. فلما رأيته قلت متعجباً: لا إله إلا الله! لقد رأيت اليوم عجباً تذكرت به عجائب. قال: وما ذاك؟ قلت: رأيت عبيد الله بن زياد في هذا البهو جالساً على هذا السرير وبين يديه رأس الحسين بن علي عليه السلام، ثم دخلت بعد ذلك على المختار في هذا البهو فوجدته جالساً على هذا السرير وبين يديه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت على مصعب في هذا البهو وهو على هذا السرير وبين يديه رأس المختار، وقد دخلت عليك يا أمير المؤمنين في هذا البهو وأنت على

هذا السرير وبين يديك رأس مصعب. فبادر عبد الملك ونزل عن السرير وخرج عن البهو وأمر بهدمه (١).

ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيوم:

وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مروان ليلة قبض قلق فسمع صوت قصار فقال: ما هذا؟ فأخبر، فقال حين ثقل: ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيوم. فقيل لأبي حازم: إن عبد الملك قال كذا وكذا. فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى ما هم فيه (٢).

والعود أحمدُ:

و يحكى أنَّ عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى قال يوما لحاجبه: هات بدرة! فأتى بها، فوضعها بين يديه وقال لمن حضر من وجوه العرب: أيكم أنشدني صدر هذا البيت: والعود أحمد، فله هذه البدرة! فلم يكن فيهم من يعرفه. فقال للحاجب: اخرج وانظر من بالباب من العرب، وقل: من ينشدني صدر البيت: والعود أحمد، فله جائزة! فخرج الحاجب وقال ذلك. فقام فتى من القوم فقال: أنا. قال الحاجب: فأنشدني!قال: لا!إلا أن أشافه أمير المؤمنين. فدخل الحاجب فأخبره فقال عبد الملك: هذا رجل طال مقامه بالباب وله حاجة. والله لئن دخل عليَّ ولم ينشدني لأعاقبنه. أدخله! فلما دخل وسلم قال له عبد الملك أنشدنا صدر بيتنا! فقال: يا أمير المؤمنين، حاجتي! قال: وما هي؟ قال: بنو عم لي باعوا ضيعتهم بالسواد فأدخلوا ضيعتي في ضيعتهم فقال عبد الملك: فإن أمير المؤمنين قد رد عليك ضيعتك

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٦٥، ٧٨٧، ١٢٥، ١٤٢، ١٥١، ٣٣٠، ٤١٦، ٢ / ٤٩٨، ٣/٣١، ١١١، ١٤١.
(٢) المبرد، التعازي والمراثي، ص ٣١، ٥٧.

فأنشدنا صدر بيتنا! قال: نعم يا أمير المؤمنين! قالت تميم إنه بيتها. قال أوس بن حجر:

جزينا بني شيبان صاعا بصـــاعهم ::: وعدنا بمثل البدء والعـــود أحمـــد

قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، أبلعني ريقي! قال: قد أبلعتك قال: قالت اليمن أنه بيتها. قال امرؤ القيس:

فإنَ كنت قد ساءتك مني خليقـــة ::: فعودي كما هواك والعود أحمـــدُ

قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، قالت ربيعة إنّه بيتها. قال المرقش:

وأحسن فيما كان بـــيني وبينـــها ::: و إن عاد بالإحسان فالعود أحمـــدُ

قال: أصبت، وإنك لظريف. فمن أنت؟ قال أنا زيد بن عمرو. قال: ممن؟ قال من حي جانب عجرفية قيس، وعنعنة تميم، وكسكسة ربيعة وصأصأة اليمن وتأنيث كنانة: أنا امرؤ من عذرة. فأمر له بالبدرة.

أ كنت عرفته قبل اليوم!

و يروى إنَّ عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال لعبد الملك بن مروان: أريد إنَّ تعطيني سيف أخي عبد الله بن الزبير. فقال له: هو بين السيوف ولا أميزه. فقال: إذا أحضرت ميزته أنا. فأمر عبد الملك بن مروان بإحضاره. فلما أحضره اخذ عروة سيفا مفلول الحد وقال: هذا سيف أخي. فقال عبد الملك: أ كنت عرفته قبل اليوم؟ قال: لا قال: فكيف عرفته؟ قال: عرفته بقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير إنّ ســـيوفهم ::: بهن فلول مـــن قـــراع الكتائـــب

أذكى من إياس:

ولذكاء إياس وفراسته وفطنته أخبار عجيبة وحكايات غريبة.

ومن أوّل ما كان يعرف به من ذكائه إنّه دخل الشام وهو صغير ونازع رجلا في أمر وقدمه إلى القاضي عبد الملك بن مروان، وكان القاضي يعرف الرجل فقال لإياس: أما تستحي إنَّ تقود شيخا كبيرا؟ فقال: الحق اكبر منه! قال القاضي: اسكت! قال إياس: فمن يتكلم بحجتي إذا سكت؟ فقال له القاضي ما أظنك تتكلم بحق حتى تقوم. قال إياس: أشهد أن لا إله إلاّ الله وإنَّ محمّد رسول الله! فوثب القاضي قائما ودخل على عبد الملك فأخبره خبره. فقال له عبد الملك أقض حاجته! وأصرفه عن الشام لا يفسد علينا الناس!

حتى قُتل عبد الرحمن:

حكى أبو العباس المبرد في الكامل أنَّ صاحب اليمن بعث إلى عبد الملك بن مروان بجارية وكتب معها: إني وجهت إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ولم ير مثلها. وكان ذلك وقت محاربتهم لابن الأشعث. فلما دخل بالجارية على عبد الملك رأى وجها جميلا وخلقا نبيلا. فألقى إليها قضيبا كان في يده فنكست لتأخذه فرأى من جسمها ما بهره. فلما هم بها أعلمه الآذن أنَّ رسول الحجاج بالباب. فأذن له ونحى الجارية فأعطاه كتابا من عبد الرحمن بن الأشعث فيه سطور أربعة:

سائل مجاور هل جنيت لهم ::: حربا تزيل بين الجيرة الخلط؟
وهل سموت بجرار له لجبٌ ::: جم الصواهل بين الحم والفرط؟
وهل تركت نساء الحي ضاحيةً ::: في ساحة الدار يستوفدن بالقنطِ

وتحته:

قتل الملوك وسار تحت لوائه ::: شجر العرى وعراعر الأقوامِ

فكتب إليه عبد الملك كتابا وجعل في طيه جوابا لابن الأشعث:

ما بال من أسعى لأجـــبر كســـره ::: حفاظاً وينوي من سفاهته كسري؟
أظن خطوب الدهر بيني وبينـــهم ::: ستحملهم مني على مركبٍ وعــرِ
وإني وإياهم كمـــن نبـــة القطـــا ::: و لو لم تنبه باتت الطير لا تَســـري
أناة وحلما وانتظـــارا بهـــم غـــداً ::: و ما أنا بالواني ولا الضارع الغمرِ

قال: ثم بات يقلب كف الجارية ويقول: ما أفدت فائدة أحب إلي منك! فتقول: ما بالك يا أمير المؤمنين وما يمنعك؟ فقال: ما قاله الأخطل لأني إن خرجت منه كنت ألأم العرب:

قومٌ إذا حاربوا.. " البيت " فما إليك سبيل أو يحكم الله بيني وبين عدو الرحمن بن الأشعث. فلم يقربها حتى قُتل عبد الرحمن (١).

من كلامه ـ غفر الله له ـ:

ـ قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ـ علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السَّفِلَة فإنهم أسوأ الناس رِعة، وأقلهم أدباً، وجنِّبهن الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقوَوا وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً ويمصوا الماء مصَّاً ولا يُعبُّوا عبّاً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم(٢)

– من طالت لحيته فهو كوسج (٣) في عقله.

ـ وقد أوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز، حين وجهه إلى مصر فقال: تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك، فإن الغائب يخبره

(١) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ١ / ٨٤، ١٢٤، ٢٧١، ٢٩١، ٢٩٦.
(٢) البداية والنهاية، ٣٨٩/١١، والرعة: قلة الورع.
(٣) الكوسج: الذي لا شعر على عارضيه والناقص الأسنان والبطيء من البراذين والجمع كواسج.

عنك كاتبك، والمتوسم يعرفك بحاجبك، والخارج من عندك يذكرك بجليسك![1]

وصية عبد الملك لأبنائه:

عن العتبي قال: لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جمع ولده وفيهم مسلمة وكان سيدهم فقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى فإنها عصمة باقية وجنة واقية، وهي أحصن كهفٍ وأزين حلية، وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم الفرقة والخلاف فبهما هلك الأولون، وذل ذوو العزة المعظمون. انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومجنكم الذي به تستجنون، وأكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر وأثبت لكم الملك، وكونوا بني أم برزة وإلا دبت بينكم العقارب، كونوا في الحرب أحراراً وللمعروف مناراً، واحلولوا في مرارةٍ، ولينوا في شدة، وضعوا الذخائر عند ذوي الحساب والألباب، فإنه أصون لأحسابهم وأشكر لما يسدى إليهم. ثم أقبل على ابنه الوليد فقال: لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك وتحن حنين الأمة، ولكن شمر وائتزر والبس جلدة نمر ودلني في حفرتي وخلني وشأني وعليك وشأنك، ثم ادع الناس إلى البيعة فمن قال هكذا فقل بالسيف هكذا. ثم أرسل إلى عبد الله ابن يزيد بن معاوية وخالد بن أسيد فقال: هل تدريان لم بعثت إليكما؟ قالا: نعم لترينا أثر عافية الله تعالى إياك، قال: لا، ولكن قد حضر من الأمر ما تريان، فهل في أنفسكما من بيعة الوليد شيء؛ فقالا: لا، والله ما نرى أحداً أحق بها منه بعدك يا أمير المؤمنين، وقال: أولى لكما، أما والله ولو غير ذلك قلتما لضربت الذي فيه

(١) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٢٣.

أعينكما، ثم رفع فراشه فإذا السيف مشهور، ولم يزل بين مقالتين حتى فاظ، مقالته الأولى:

فهل من خالدٍ إما هلكنا ::: وهل بالموت يا للناس عار

ومقالته الثانية: الحمد لله الذي لا يبالي من أخذ من خلقه أو ترك، صغيراً أو كبيراً، حتى مات، فسجاه الوليد، وكان هشام أصغر ولده فقال:

وما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ::: ولكنه بنيان قومٍ تهدما

فلطمه الوليد ثم قال له: اسكت يا بن الأشجعية فإنك أحول أكشف، تنطق بلسان شيطان، ألا قلت:

إذا مقرم منا ذرى حد نابه ::: تخمط منا ناب آخر مقرم

فقال مسلمة: إياكم والضجاج فإنكم إن صلحتم صلح الناس، وإن فسدتم كان الفساد أسرع، ثم قال:

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى ::: على شخصه يوم علي عصيب
فإن تكن الأيام أحسن مرة ::: إلي فقد عادت لهن ذنوب
أتى دون حلو العيش حتى أمره ::: نكوب على آثارهن نكوب

فقال سليمان: مات والله أمير المؤمنين وصار في منزلة هو فيها والذليل الضعيف سواء. ثم صعد المنبر الوليد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون يا لها مصيبة ما أعظمها وأفظعها، وأخصها وأعمها وأوجعها، موت أمير المؤمنين، ويا لها نعمةً ما أعظمها وأجسمها وأوجب الشكر علي لله فيها: خلافته التي سربلنيها. فكان أول من عزى نفسه وهنأها بالخلافة. ثم قال: انهضوا رحمكم الله فبايعوا على بركة الله. فلما بايعه الناس جلس مجلس عبد الملك وجمع أهل بيته ثم قال:

ألقوا الضغائن والتحاسد بينكم ::: عند المغيب وفي الحضور الشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم ::: إن مد في عمري وإن لم يمدد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم ::: بتواصلٍ وتراحمٍ وتودد
وانفوا الضغائن والتخاذل عنكم ::: بتكرمٍ وتوازرٍ وتغمد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ::: لمسودٍ منكم وغير مسود
إن القداح إذا اجتمعن فرامها ::: بالكسر ذو حنقٍ وبطش أيد
عزت فلم تكسر وإن هي بددت ::: فالوهن والتكسير للمتبدد

- وقال عبد الملك بن مروان: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلي من ان أصيب وقد استبددت برأي فإمصيه عن غير مشورة، لأن المقدم على رأيه يزري به أمران: تصديقه رأيه الراجب عليه تكذيبه، وتركه من المشورة ما يزداد في أمره بصيرة. وقد قال الشاعر:

إن الأمر أشكل إنفاذه ::: ولم تر منه سبيلاً فسيحا
فشاور بأمرك في سره ::: أخاك أخاك اللبيب النصيحا
فيا ربما فرح الناصحون ::: وأبدوا من الرأي رأياً صحيحا
ولا يلبث المستشير الرجال ::: إذا هو شاور أن يستريحا[1]

- وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

- وقال عبد الملك بن مروان: إن أفضل الرجال من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

- وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، وكان ولي عهده: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توان.

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص ٢٤، ٢٩.

- وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

ولا تفش سرك إلا إليك ::: فإن لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت غواة الرجا ::: ل لا يتركون أديماً صحيحا

- وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.

- وقال عبدُ الملك بن مَروان لبَنِيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استَغنيتم عنه كان لكمٍ جمالاً.

- مَن كان في يده شيءٌ فليُصْلحه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأوّل ما يَبْذُل دينهُ.

- أرْبعة لا يُستحي من خِدْمتهم: الإمام والعالِم والوالد والضيف.

- اللحنُ في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثوب والجُدَريّ في الوجه.

- الإعراب جمالٌ للوَضيع، واللحن هُجْنة على الشَّريف.

- قال: تَعلّموا النحوَ كما تتعلمون السُّنن والفرائض.

- ثلاثة لا يَنبغي للعاقل أن يَستخِفَّ بهم: العُلماء والسُّلطان والإخْوان. فمن استخفَّ بالعُلماء أفْسد دينَه، ومَن استخفَّ بالسُّلطان أفسد دُنياه، ومن استخفَّ بالإخوان أفسد مرُوءته.

- وقال عبد الملك بنُ مَرْوَان لبَنيه: كُفّوا الأذى، وابذُلوا المعروف، واعْفوا إذا قدَرْتم!، ولا تَبْخَلوا إذا سئلتم، ولا تُلْحِفوا إذا

سألتم، فإنه من ضيّق ضُيِّق عليه، ومن أعطى أَخْلَفَ اللهّ عليه.

- قال العُتْبيّ: كان عبد الملك بن مَرْوان يَدْعو على المِنْبر: يا ربّ، إن ذُنوبي قد كَثُرت وجَلّت عن أن تُوصف، وهي صَغيرة في جَنْب عَفْوك، فاعفُ عنّي (١).

- كان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده: علمهم العوم، وهذبهم بقلة النوم.

- وقال عبد الملك بن مروان: الصمت نومٌ والنُّطق يقظة (٢).

- قال عبد الملك بن مروان: أفضل النّاس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

- قال عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه: إنه - والله - ما يخفى علي ما تعلمهم وتلقيه إليهم، فاحفظ عني ما أوصيك به: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وعلمهم الشعر يسمحوا ويمجدوا وينجدوا، وجنبهم شعر عروة بن الورد، فإنه يحمل على البخل، وأطعمهم اللحم يقووا ويشجعوا، وجز شعورهم تغلظ رقابهم، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس أدباً وهدياً، ومرهم فليستاكوا، وليمصوا الماء مصاً، ولا يعبوه عباً، ووقرهم في العلانية، وأدبهم في السر، واضربهم على الكذب كما تضربهم على القرآن، فإن الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإن الحر لا يجد من شتم عرضه عوضاً، وإذا ولوا أمراً فامنعهم من ضرب

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٦، ١٠، ١٢، ١٩، ٢٣، ٣٧، ٧١، ٩٠، ١١٨، ١٣٦، ١٣٨، ٢٧٤، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٥، ١٦١، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٧٤، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٧١، ٣٠٥، ٣٣٦.

(٢) المستطرف، ١ /١١٩.

الأبشار؛ فإنه على صاحبه عار باق ووتر مطلوب، واحثثهم على صلة الرحم. واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب [١].

وقال عبد الملك بن مروان: ما الناس إلى شيء من الأدب أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاودون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكمة، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها، ويجمعون ما تفرَّق منها، فإن الكلام قاضٍ يحكم بين الخصوم، وضياءٌ يجلو الظُّلم، حاجة الناس إلى موادِّه حاجتهم الى مواد الأغذية.

قال أسامة بن منقذ: وبذلك عَبَّرَ ابْنُ سيرين رؤيا عبد الملك بن مروان حين بَعَثَ إليه: إني رأيتُ في المنام أني قمتُ في محراب المسجد وبُلْت فيه خمس مرات فكتب إليه ابنُ سيرين: إن صَدَقَت رؤياك فسيقومُ من أولادك خمسة في المحراب ويتقلدون الخلافة بعدك فكان كذلك [٢].

- من كان الحرص شعاره، كان البخل دثاره.

- القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة.

قال عبد الملك بن مروان: الهدية السحر الحلال. [٣].

- أربعة لا يستحيى من خدمتهم: السلطان والولد والضيف والدابة.

- اطلبوا معيشة لا يقدر سلطان جائر على غصبها، قيل: وما

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ / ٦، ٧٢، ٧٣، ٩٧، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٩، ٢١٢، ٢٢٨.
(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص ٦٨.
(٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١ / ٥٥، ٢٧٢، ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٩٦، ٧/٢.

هي، قال: الأدب.

- اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأي.

- وروي أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج: لا تولين الأحكام بين الناس جاهلاً بالأحكام، ولا حديداً طائشاً عند الخصام، ولا طمعاً هلعاً يقرب أهل الغنى ويبش بأهل السعة فيكسر بذلك أفئدة ذوي الحاجة، ويقطع ألسنتهم عن الأدلاء بالحجة والإبلاغ في النصفة، واعلم أن الجاهل لا يعلم، والحديد لا يفهم، والطائش القلق لا يعقل، والطمع الشره لا ينفع عنده الحجة ولا تغني قبله البينة (١).

- وأوصى عبد الملك بن مروان حين حضرته الوفاة فقال لبنيه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنة واقية. والتقوى خير زاد، وأفضل في المعاد، وأحصن كهف، وأزين حلية. ليعطف الكبير منكم على الصغير وليعرف الصغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعز خلقاء، وهابتكم الأعداء. إياكم والتباغي والتحاسد فإن بهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المتكبرون. انظروا يا بني، مسلمة بن عبد الملك فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به. وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القناطر. كونوا أولاداً أبراراً، وفي الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: لا ألفينك يا وليد، إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كما تفعل الأمة، بل شمر واتزر، والبس جلد نمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيك بأخيك

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٦٥، ٧٨٧، ١٢٥، ١٤٢، ١٥١، ٣٣٠، ٤١٦، ٢ / ٤٩٨، ٣/ ٣١، ١١١، ١٤١.

عبد الله بن عبد الملك وبعمر بن عبد العزيز خيراً. لا تعزلهما ولا تستبدل بهما. وأوصيك بابن عمنا هذا خيراً يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأما الحجاج فلست تستغني عنه.

ثم أرسل إلى خالد وعبد الله، ابني يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: ما تقولان: أأقيلكما بيعة الوليد؟ قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا. ثم دعا بقداح بعدة ولده فأمر بها فجمعت ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرها. فلم يقدر على ذلك. ثم دفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعاً، فأعياهم كسرها، فأمر بها ففرقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قدحاً وأمره بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يكسر أحد، وإن تفرقتم كسرتم. وقال: احفظوا عني هذه الأبيات:

انفوا الضّغائن عنكم وعليكم ::: عند المغيب وفي الحضور الشّهّد
بصلاح ذات البين طول بقائكم ::: إن مدّ في عمري وإن لم يمدد
فلمثل ريب الدّهر ألّف بينكم ::: بتواصلٍ وتراحمٍ وتودّد
حتّى تلين قلوبكم وجلودكم ::: لمسوّدٍ منكم وغير مسوّد
إنّ القداح إذا أجتمعن فرامها ::: بالكسر ذو حنقٍ وكسرٍ أيّد
عزّت فلم تكسر وإن هي بدّدت ::: فالوهن والتّكسير للمتبدّد

فلما توفي سجاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ، ثم قال: لم أر مثلها مصيبةً ولا مثلها نعمة. فقد الخليفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على عظم المصيبة. والحمد لله رب العالمين، على عظيم النعمة. ثم دعا الناس إلى بيعة، فبايع الناس ولم يتخلف أحد. فسمع أحد ولد عبد الملك يبكي ويقول: مات، والله، أمير المؤمنين. فقال: ويلك لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال أخو بني

أسيد أوس بن حجر: الطويل

إذا مقــرمٌ منّــا ذرا حــدّ نابــه ::: تخمّط فينــا نــاب آخــر مقــرم

وأوصى أبو قيس بن صرمة الأنصاري ولده عند موته فقال: الخفيف

يا بــنيّ، الأرحــام لا تقطعوهــا ::: وصــلوها قصــيرةً مــن طــوال
واتّقــوا الله في ضــعاف اليتــامى ::: ربّمــا يســتحلّ غــير الحــلال
اعلمـــوا أنّ لليتـــيم وليّـــاً ::: عالمــاً يهتــدي بغــير السّــؤال
يــا بــنيّ، الأيّــام لا تأمنوهــا ::: واحذروا مكرهــا وكــرّ اللّيــالي
واعلمـــوا أنّ مرهـــا لنفـــاد ال ::: خلق ما كان مــن جديــدٍ وبــال
واجمعوا أمركم على الــبرّ والتــق ::: وى وترك الخنا وأخــذ الحــلال

- أوصى عبد الملك بن مروان أولاده بالتآلف والتعاضد، وتمثل بقول عبد الأعلى القرشي:

أن القــداح إذا جمعــن فرامهــا ::: بالكسر ذو حــق وبطــش أيــد
عزت فلم تكسر وإن هي بــددت ::: فالكســر والتــوهين للمتبــدد

دخل بعض ولد عبد الملك بن مروان عليه باكياً لضرب المعلم إياه فشق على عبد الملك، فأقبل عليه رجل من الخوارج فقال: دعه يبك فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى أن لا تأبى عليه عينه إذا أحقرته طاعة الله فاستدعى عبرتها. فأعجبه ذلك وسكت.

ألا رب هم يمنــع النــوم برحــه ::: أقام كقبض الراحتين على الجمــر
وشوق كأطراف الأسنة في الحشــا ::: ملكت عليه طاعة الدمع أن يجري

- قال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على مقدار عقول أربابها:

الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه، والرسول يدل على مقدار عقل مرسله، والهدية تدل على مقدار عقل مهديها (١).

- وقال عبد الملك بن مروان وذكر الخمر: إن أولها لمُرّ، وآخرها لسُكر وإنها لتُذهب العقل وتكسب الجهل وتسقط المروءة وتفسد الفتوة، وتدعو إلى عشرة الوضيع وتحط درجة الرفيع، ولهي أسرع في عِرض الرجل وماله من النار في يبس العرفج (٢).

* * *

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٧٢، ٢٤٣، ٤٨٤.
(٢) الرقيق القيرواني، قطب السرور في أوصاف الخمور، ١١٥.

الوليد بن عبد الملك

أعلام الخلفاء الأمويين

الوليد بن عبد الملك

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي بويع بعهد من أبيه، كان نهمته في البناء، أنشأ جامع بني أمية وأنشأ أيضاً مسجد رسول الله وزخرفه ورزق في دولته سعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك، وغزا الروم مرات في دولة أبيه، وحج وقيل كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبعة عشرة ختمة، وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وكان فيه عسف وجبروت. وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزّمنى والضعفاء وضبط الأمور(١).

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران حتى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ ذلك المشروع وهو توسعة المسجد النبوي، وأدخل حجر أمهات المؤمنين وحجرة فاطمة وحجرة عائشة رضي الله عنهن جميعاً في المسجد إضافة إلى أن المؤرخين قد ذكروا أن بعض جدران الحجرة قد بدأ فيه الخلل نتيجة القدم، وعندما وصل خطابه بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء ووجوه الناس وأخبرهم بما أمر به الوليد فأنكروا ذلك وكرهوه ورأوا أن بقاء بيوت النبي على حالها أدعى للعبرة والاتعاظ، وقد قال الفقهاء: هذه حجر قصيرة السقوف وسقوفها من جريد النخل وحيطانها من اللبن وعلى أبوابها المسوح وتركها على حالها أولى، ينظر فيها الحجاج والزوار والمسافرون إلى بيوت النبي فينتفعوا بذلك ويعتبر به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٤٨/٤، ٣٤٩.

الحاجة، وهو ما يستر ويكن، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها. فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء، فأرسل إليه يأمره بتجديد البناء، كما أراد الوليد، وقد كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري مائها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته[1].

ومن مآثر الوليد بن عبد الملك بناء المسجد الأموي، قال ابن كثير في حوادث عام ٩٦هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً.. ثم - إن النصارى حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى - جاء الإسلام - وعندما صارت الخلافة إلى الوليد عزم على تحويلها إلى مسجد، بعد أن تفاوض مع النصارى وقام بترضيتهم مقابل عروض مغرية. ثم أمر الوليد باحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤساء الناس وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجن في الله عز وجل والله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي، ثم صعد المنارة ثم إلى أعلى مكان من

(١) البداية والنهاية، ١٢/٤١٥.

الكنيسة وضرب بها في أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية.. ثم شرع في بنائه وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثير من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه، وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك، وقد أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. قلت فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف وألف دينار وستمائة ألف دينار، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار.

وقد نقل إلى الوليد بأن الناس يقولون أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم إنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها. ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فاحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع وبسطت الأنطاع تحت القبة ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً وفضة خالصة حتى صارت كوماً حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر وهذا شيء كثير، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ستة عشرة سنة مستقبلة ولو لم يدخل للناس شيء بالكلية - ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع فاحمدوا الله تعالى. وانصرفوا شاكرين داعين. وقد كان الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا

أبهى ولا أجل منه، بحيث أنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهة منه، أو إلى أي بقعة أو مكان منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه، ولا يمل ناظره، بل كلما أدمن النظر، بانت له أعجوبة ليست كالأخرى(١).

كما أن الوليد كان أول من أسس مستشفى خاصاً بالمجذومين وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل فيه أطباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بعزلهم عن الأصحاء كي لا تنتقل العدوى من المصابين إلى الأصحاء، وهذا ما يعرف في التاريخ بدور المجذومين. و كان الوليد يخصص الأرزاق للفقهاء والضعفاء والفقراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفيهم كما فرض على العميان والمجذومين، فقد أعطى المجذومين وقال: لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً وفتح في ولايته فتوح عظام، وقد اهتم الوليد بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز لتيسير سفر الحُجاج إلى بيت الله الحرام، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وعمل الفوارة في المدينة وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منها أهل المساجد(٢).

وقد شب الوليد على حب القرآن الكريم والاكثار من تلاوته وحث الناس على حفظه وإجازتهم على ذلك، فقد حدث إبراهيم بن أبي عبلة قال: قال لي: الوليد بن عبد الملك يوماً في كم تختم القرآن؟ قالت: كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في ثلاث - وقيل في سبع - قال: وكان يقرأ في شهر رمضان سبعة شعرة ختمة، قال إبراهيم: رحم الله الوليد، وأين مثله؟ بنى مسجد دمشق، وكان

(١) البداية والنهاية، ٥٧٦/١٢ - ٥٧٩.
(٢) البداية والنهاية، ٦٠٩/١٢، تاريخ الطبري، ٣٣٧/٧.

يعطيني قطع الفضة، فأقسمها على قرّاء بيت المقدس[١].

وكانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، بعد أن ملك عشر سنين إلا شهراً، وتوفي وهو ابن خمس وأربعين سنة وقيل وهو ابن اثنتين وأربعين سنة وأشهر وقيل سبع وأربعين سنة، و صلى عليه عمر بن عبد العزيز وكان له: تسعة عشر ابناً [٢].

مواقف من حياته:

لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج:

قال زهير بن حسن مولى الربيع بن يونس قدم الحجاج على الوليد ابن عبد الملك فصلى عنده ركعتين وركب الوليد فمشى الحجاج بين يديه فقال له الوليد اركب يا أبا محمد فقال يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمناً طويلاً فعزم عليه الوليد أن يركب ودخل فركب مع الوليد فبينا هو يتحدث ويقول ما فعلت بأهل العراق وفعلت أقبلت جارية فنادت الوليد ثم انصرفت فقال الوليد يا أبا محمد أتدري ما قالت الجارية قال لا قال قالت أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه وأنت في غلاله غرر فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك وقالت والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج وقد قتل أحباء الله له وأهل طاعته ظلماً وعدواناً فقال الحجاج يا أمير المؤمنين إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة لا تطلعهن على سرك ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن ولا تكثرن

(١) البداية والنهاية، ٦٠٧/١٢.

(٢) تاريخ الطبري، ٣٩٦/٧.

مجالستهن صغاراً وذلام ثم نهض فخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالته فقالت إني أحب أن تأمره بالتسليم علي فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه فغدا الحجاج على الوليد فقال الوليد ائت أم البنين فقال اعفني يا أمير المؤمنين قال فلتفعلن فأتاها فحجبته طويلاً ثم أذنت له ثم قالت له يا حجاج أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حواري رسول الله وابن الأشعث فلعمري لقد استعلى عليك حتى عججت ووالى عليك الهرار حتى عويت فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن وأنت في أضيق من القرن فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم لكنت مأسوراً قد أخذ الذي فيه عيناك وعلى هذا فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غدائرهن وبعنه في أعطية أوليائه وإماماً أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه فإن يكن إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فغير مجيبك إلى ذلك وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخلق والخلق يالكع فما أحقه أن يقتدي بقولك قاتل الله الذي يقول:

أسد علي وفي الحروب نعامة ::: فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغا ::: أو قد كان قلبك في جناحي طائر

ثم أمرت جارية لها فأخرجته فلما دخل على الوليد قال ما كنت فيه يا أبا محمد فقال والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظهرها قال إنها بنت عبد العزيز [1].

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص ١٠١.

الوليد بن عبد الملك يسأل عمر عن سبب الأثر الذي في منكبه:

عن السعدي قال قدم الوليد بن عبد الملك مكة فأراد أن يأتي الطائف فقال: هل لي في رجل علم بأموال الطائف فيخبرني عنها فقالوا عمر بن أبي ربيعة قال لا حاجة لي به ثم عاد فسأل فذكروه له فرده ثم عاد فسأل فذكروه له ثم رده ثم عاد فسأل فذكروه له فقال هاتوه فركب معه يحدثه ثم حرك عمر رداءه ليصلحه على كتفه فرأى على منكبه أثرا فقال ما هذا الأثر فقال كنت عند جارية إذ جاءتني جارية برسالة من عند جارية أخرى فجعلت تسارني فغارت التي كنت أحدثها فعضت منكبي فما وجدت ألم عضها من لذة ما كانت تلك تنفث في أذني حتى بلغت ما ترى والوليد يضحك فلما رجع عمر قيل له ما الذي كنت تضحك أمير المؤمنين به فقال ما زلنا في حديث الزنا حتى رجعنا (١).

أعرج من أهل الجنة:

قال أبو الحسن: رأى الوليد بن عبد الملك في المنام أن رجلاً من أهل الأندلس أعرج يكنى أبا عبد الرحمن من أهل الجنة يفتح الله على يديه المغرب، فكتب إليه موسى بن نصير: أنام الله عينك يا أمير المؤمنين، أنا أبو عبد الرحمن وأنا موسى بن نصير وأنا أعرج وأنا بالأندلس، فكتب إليه الوليد: أنت موسى بن نصير من أهل كفر هندا ولست به، فاطلب إلى الرجل الغربي الذي وصفت لك ثم احمله إلي، فسأل عنه بعد ذلك فإذا كما وصف، وإذا هو عبد الله فحمله إليه

(١) أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت، ١ / ١٢١.

(١).

فخاف المريب صولة العقاب:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

يا أبت ما السياسة؟

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك:

قال المدائني: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك. قال صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك. من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟

إن الناس ليغوونا عن ديننا:

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته

(١) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص٢٥.

كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطل يا أمير المؤمنين، أنبي خليفة أكرم على الله أم خليعة غير نبي؟ قل: بل نبي خليفة. قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾} [ص: ٢٦]. فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال: إن الناس ليغووننا عن ديننا.

أو كذبت!

عن عطاء بن يسار، قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي. فقال: كذبت. فقلت: أو كذبت؟ فما أفلت بجريعة الذقن.

للأمير عندي نصيحة!

ودخل رجلٌ على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دِمشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة؟ فقال: إن كانت لنا فاذكُرْها، وإن كانت لِغَيرنا فلا حاجة لنا فيها؟ قال: جارٌ لي عَصىَ وفَرَّ مِنْ بَعْثه؛ قال: أما أنت فتُخبر أنَّك جارُ سَوْء، وإن شئتَ أرْسلنا معك، فإن كنتَ صادقاً أقصَيناك، وإن كنتَ كاذباً عاقبناك، وإن شئتَ تاركناك، قال: تَاركني.

يا شيخُ، تحِبُّ المَوْت!

ودخل الوليدُ بن عبد الملك المسجدَ، فخَرَج كلَّ من كان فيه إلاّ شيخاً قد حَنَاه الكِبَر، فأرادُوا أن يُخْرجُوه، فأشار إليهم أن دَعُوا الشيخ؟ ثم مضىَ حتى وَقف عليه، فقال له: يا شيخُ، تحِبُّ المَوْت؟ قال: لا يا أميرَ المؤمنين، ذهَبَ الشَّبَاب وشَرُّه، وَأتى الكِبر وخيْرُه، فإذا قمتُ حَمِدْتُ الله، وإذا قعدتُ ذكرتُه، فأنا أُحِب أن تَدُوم لي هاتان

الخَلَّتان.

خطبة الوليد بن عبد الملك:

لما مات عبد الملك بن مروان ورجع الوليد من دَفنه، لم يدخل منزله حتى دخل المسجدَ، ونُودي في الناس: الصلاةُ جامعة. فصَعِد المِنْبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه لا مُؤَخِّر لما قدّمَ الله، ولا مُقدِّم لما آخرَ الله، وقد كان من قضاء الله وسابق عِلْمه، وما كَتب على أنبيائه، وحَمَلَة عرْشِه من الموت، مَوْتُ وليّ هذه الأمَّة، ونحن نرجو أنْ يصيرَ إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدّة على المُريب، واللّين على أهل الفَضْل والدِّين، مع ما أقام من مَنار الإسلام وأعلامِه، وحَجَ هذا البيت، وغَزْو هذه الثغور، وشَنّ الغارات على أعداء الله، فلم يكن فيها عاجزاً، ولا وانياً، ولا مُفَرِّطاً. فعليكم أيها الناس بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الفَذّ، وهو من الجماعة أبعد. واعلموا أنه من أبْدَى لنا ذاتَ نَفسه ضَرَبْنا الذي فيه عيناه، ومَن سكت مات بدائه. ثم نزل.

لأجمعن المال جَمْع مَن يعيش أبداً:

كتب الحجاج إلي الوليد بن عبد الملك لا بلاغه أنه خَرق فيما خَلّف له عبد الملك، يُنكر ذلك عليه ويُعرِّفه أنه على، غير صواب، فوقَّع في كتابه: لأجمعن المال جَمْع مَن يعيش أبداً، ولا فرقنَّه تفريق مَن يموت غدا. ووقع إلى عمر بن عبد العزيز: قد رَأب الله بك الداء، وأوْذم بك السقاء.

أولستَ تعلم ذلك؟

قال الهيثم بن عَدِيّ: دخل رجل من أصحاب الوليد بن عبد الملك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد رأيتُ ببابك جماعةً من الشعراء لا

أحسبُهم اجتمعوا بباب أحد من الخلفاء، فلو أذنتَ لهم حتى يُنشدوكَ؟ فأذن لهم فأنشدوه وكان فيهم الفرزدق، وجرير، والأخطل، والأشهب ابن رُميلة. وترك البَعِيث فلم يأذن له. فقال الرجل المُستأذن لهم: لو أذنتَ للبَعِيث يا أمير المؤمنين، إنه لشاعر. فقال: إنه ليس كهؤلاء إنما قال من الشعر يسيراً. قال: والله يا أمير المؤمنين إنه لشاعر. فأذِن له فلما مَثَل بين يديه، قال: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء ومَن ببابك قد ظنّوا أنك إنما أذنتَ لهم دوني لفَضل لهم عليّ. قال: أولستَ تعلم ذلك؟ قال: لا والله، ولا علّمه الله لي. قال: فأنشِدْني من شعرك. قال: أمَا والله حتى أنشدك من شعر كُل رجل منهم ما يَفضحه فأقبل على الفرزدق، فقال: قال هذا للشيخُ الأحمق لعبد بني كُليب:

بأيّ رِشاءٍ يا جريرُ وماتحٍ ::: تدلّيت في حَوْمات تلك القَماقِمِ

فجعله يتدلّى عليه وعلى قومه من عَلُ، وإنما يأتيه من تحته لو كان يَعقلُ. وقد قال هذا، كَلبُ بني كُليب:

لَقومِيَ أحَمى للحقيقة منكُم ::: وأضربُ للجَبَّار والنقعُ ساطع
وأوثقُ عند المُرْدفات عشيّةَ ::: لَحَاقاً إذا ما جَرَّد السيفَ لامِع

فجعل نساءه لا يثقنَ بلحاقه إلا عشيَّة، وقد نُكحن وفُضحن.

وقال هذا النصراني، ومدح رجلاً يسمى قيناً فهجاه، ولم يشعر، فقال:

قد كُنت أحسبه قيناً وأُنبؤه ::: فالآن طُيّر عن أثوابه الشَّررُ

وقال ابن رُميلة ودَفع أخاه إلى مالك بن ربْعيّ بن سَلْميّ فقُتل، فقال:

مَدَدنا وكان ضَلّة من حلومنا ::: بَثَدْيٍ إلى أولاد ضَمرة أقْطَعا

فمن يرجو خيرَه وقد فعل بأخيه ما فعل. فجعل الوليدُ يُعْجب من

حفظه لمثالب القوم وقُوة قلبه، وقال له: قد كشفتَ عن مساوئ القوم، فأنشدني من شعرك. فأنشده فاستحسن قوله ووصَلَه وأجزل له.

الله أعلم حيث يجعل رسالته:

كان عند الوليد بن عبد الملك أربع عقائل [(١)]: لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأم جحش بنت عبد الرحمن بن الحارث، فكن يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفخرن. فاجتمعن يوماً، فقالت لبابة: أما والله إنك لتسويني بهن، وإنك تعرف فضلي عليهن. وقالت بنت سعيد: ما كنت أرى أن للفخر علي مجازا، وأنا ابنة ذي العمامة إذ لا عمامة غيرها. وقالت بنت عبد الرحمن بن الحارث: ما أحب بأبي بدلاً، ولو شئت لقلت فصدقت وصدقت. وكانت بنت يزيد بن معاوية جارية حديثة السن فلم تتكلم. فتكلم عنها الوليد، فقال: نطق من احتاج إلى نفسه وسكت من اكتفى بغيره. أما والله لو شاءت لقالت: أنا ابنة قادتكم في الجاهلية، وخلفائكم في الإسلام. فظهر الحديث حتى تحدث به في مجلس ابن عباس، فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته [(٢)].

لا أصلي بالناس حتى أتعلمه:

وكان الوليد بن عبد الملك لحّانة فدخل عليه أعرابي فقال: من ختنَك؟ قال: رجل من الحي لا أعرف اسمه. فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول: من ختنُك؟ فقال: ها هوذا بالباب. فقال الوليد لعمر: ما هذا؟ فقال: النحو الذي كنت أخبرك عنه. فقال:

---

(١) جمْع عَقيلة وهي في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة. إنما سمِّيت عقيلة لأنها عَقلت صواحبَها عن أن يبلُغنها. وقال الخليل: بل معناه عُقِلت في خدرها. قال امرؤ القيس:

عقيلة أخدانٍ لها لا دميمةٌ ::: ولا ذات خُلْق أن تأمَّلْتَ جَأنَبِ

(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٥، ٦، ٥أ، ١٨، ١٩٧، ٣٢٥، ٢/٥، ٥٥، ٢١٧، ٣٤١، ٤٣٠.

لاجرم لا أصلي بالناس حتى أتعلمه.

محاسم المكاتبات:

وقال كعب العبسي لعروة بن الزبير: قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكتب إليه. فكتب: لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بي إليك فوثقت له منك بعفو لا يخلطه سخط، فحقق أمله فيّ وصدق ثقتي بك مغتنماً للشكر مبتدئاً بالنعمة. فكتب إليه الوليد: قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه لمعوله عليك، وله عندي الذي تحب إن لم تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك.

وأنت شرّ الثلاثة:

وحدث إسماعيل بن أبي خالد قال: أُتي الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج وعنده عمر بن عبد العزيز وخالد بن الريان فقال له الوليد: ما تقول في أبي بكر؟ قال: صاحب نبي الله في الغار وثاني اثنين رحمه الله وغفر له. قال: فما تقول: في عمر؟ قال: هو الفاروق رحمه الله وغفر له. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: كان سنياتٍ من خلافته ملازماً للعدل. قال: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: لعن الله ذاك. قال: فما تقول في عبد الملك؟ قال: ذلك ابن ذاك لعن الله ذاك. قال: فما تقول فيّ؟ قال: بنيّ ذينك وأنت شرّ الثلاثة. فقال: يا عمر ما تقول فيما تسمع؟ قال: يا أمير المؤمنين ما أحد أعلم بهذا منك وأنت أعلى به عيناً. فألحّ عليه والله لتقولنّ، فقال: أما إذا أبيت يا أمير المؤمنين إلا أن أقول فسبّ إياه كما سب إياك وأن تعفو أقرب للتقوى. قال: ليس إلا هذا. قال: لا يا أمير المؤمنين إلا أن تدخلك جبرية، فأما الحق فليس إلا هذا.

فالتفت إلى خالد بن الريان وهو قائم على رأسه ثم قام وهو غضبان. فقال خالد: والله يا عمر لقد نظر إليّ أمير المؤمنين نظرة ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك. قال: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي والله. قال: أما إنه كان يكون شراً لكما وخيراً لي.

ثم سكت عنه وبقي ذلك في قلبه، فلما قام الوليد من مجلسه دخل على امرأته أم البنين بنت عبد العزيز وهي أخت عمر فقال: أخوك الحروري والله لأقتلنه.

فمكث أياماً وعمر في منزله لا يحضر الباب ولا يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل من باب القصر عدل به إلى بيتٍ فأدخل فيه وطيّن عليه الباب. فرجع صاحب دابته إلى أهله فأخبرهم فأخبروا أخته بذلك فبحثت عن خبره فلم تجد أحداً يخبرها بخبره وذلك يوم الثالث. فقيل لها: إن فلاناً الخصي يعلم علمه. فأرسلت إليه فأعلمها بموضعه. فدخلت على الوليد فناشدته الله والرحم وقبّلت يده. فقال: قد وهبته لك إن أدركته حياً قال. ففتحوا عنه الباب فوجدوه قد انثنى عنقه فحملوه إلى منزله وعالجوه.

فلما توفي الوليد وكان سليمان بعده فهلك وتولى عمر الخلافة جاء خالد بن الريان في اليوم الذي استخلف فيه عمر، رحمه الله، متقلداً سيفه، فقال له عمر: يا خالد انطلق بسيفك هذا فضعه في بيتك واقعد فيه فإنه لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أُمرت بشيء فعلته لا تنظر لدينك. فلما ولى خالد نظر عمر في قفاه فقال: اللهم يا رب إني قد وضعته لك فلا ترفعه أبداً. فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله[١].

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/١٨٤، ١٩٠، ٢٢٠.

وأتاه الفرج من عند الله تعالي:

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن اخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن وكان محبوسا واضربه في مسجد رسول الله خمسمائة سوط فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى الى جنب الحسن فقال يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك قال ما هو يا ابن العم؟ فقال لا إله إلا الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم سبحان رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين ثم أنصرف عنه وأقبل الحسن يكررهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال أراه في سجنه مظلوما أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره فأطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالي.

لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا:

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا قال مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك قال بلى والله وبشر منها قال وفيم ذلك؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها بتفخذ قال وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي؟ قال نعم فقال عبد الله والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا

إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتي فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال ما لك يا أبا عباس؟ قال إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف [1].

ما أردت إلى عجوزنا هذه؟!:

وقال المدائني لما أهديت بنت عقيل بن غلفة إلى الوليد بن عبد الملك ابن مروان بعث مولاه له لتأتيه بخبرها قبل أن يدخل بها فأتتها فلم تأذن لها أو كلمتها فأحفظتها فهشمت أنفها فرجعت اليه فأخبرته فغضب من ذلك فلما دخل عليها قال ما أردت إلى عجوزنا هذه؟! قالت أردت والله إن كان خيراً أن تكون أول من لقى بهجته وإن كان شراً أن تكون أول من ستره.

انا اشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك:

قال المدائني: تزوج الوليد بن عبد الملك في خلافته تسع سنين ثلاثاً وستين امرأة يطلق ويتزوج حتى تزوج عاتكة بنت عبد الله بن

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١٥٧/٢، ٤٨٢.

مطيع فلما دخل بها وأراد أن يقوم أخذت بثوبه فقال لها ما تريدين قالت أنا اشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك قال تقيمين وأمسكها أربعة أشهر ثم طلقها [١].

تصحيف أفضى إلى مضرة:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى والي المدينة: أحص من قبلك من المخنثين، فوضعت نقطة على الحاء فقرأ الكاتب أخص، فقال العامل: لعله أحص، فقال الكاتب: على الحاء نقطة كسهيل فخصى جماعة منهم، ولكل واحدة نادرة.

غلبتني لعنك الله!:

قال الوليد بن عبد الملك لبديع المغني: خذ بنا في الأماني فلأغلبنك. فقال: والله لا تغلبني فيها أبداً إني أتمنى كفلين من العذاب، وإن يلعنني الله لعناً يشن على من خلفي ومن قدامي أتتمنى مثله؟ فقال: غلبتني لعنك الله!

لو ركبت الأشهب لم يعثر بك:

وكان البراء بن قبيصة صاحب شراب، فدخل على الوليد بن عبد الملك وبوجهه أثر فقال: ما هذا؟ قال: ركبت فرساً أشقر فكبا بي. فقال: لو ركبت الأشهب لم يعثر بك. فعرض بأنه شرب الخمر ولو شرب اللبن لما سقط.

الحقي بأهلك:

كانت بنت سعيد بن العاص عند الوليد بن عبد الملك فلما مات عبد الملك لم تبكه، فقال لها الوليد: ما يمنعك من البكاء على أمير المؤمنين ولا مصيبة أجل من فقده؟فقالت: ما أقول استزيد الله في

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٥٩، ٦١، ٦٦.

سلطانه حتى يقتل لي أخاً آخر. فقال: أي والله لقد كسرنا ثناياه وقتلناه. قالت: لقد علمت من شقت استه بالملمول قال: الحقي بأهلك. قالت: ألذ من الرفاه والبنين.

قد وصلت وأنت أحمق أحمق أحمق والسلام:

كتب معاوية بن مروان إلى الوليد بن عبد الملك: بعثت إليك بقطيفة خز أحمر أحمر. فكتب إليه: قد وصلت وأنت أحمق أحمق أحمق والسلام(١).

مواقف بين خالد بن يزيد بن معاوية والوليد بن عبد الملك:

خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان. الأمير أبو هاشم الأموي: كان من رجالات قريش المتميزين بالفصاحة والسماحة وقوة المارضة، علامة خبيراً بالطب والكيمياء شاعراً. قال الزبير بن مصعب: كان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً. وقال ابن أبي حاتم: كان خالد من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام. وقيل عنه: قد علم علم العرب والعجم. روى خالد الحديث عن أبيه وعن دحية بن خليفة الكلبي - رضي الله عنه - وروى عنه الزهري وغيره. وأخرج البيهقي والخطيب البغدادي والعسكري والحافظ بن عساكر عنه عدة أحاديث. وكان إذا لم يجد أحداً يحدثه حدث جواريه، وكان من صالحي القوم، وكان يصوم الجمعة والسبت والأحد. وكان يقول: كنت معنياً بالكتب، وما أنا من العلماء ولا من الجمال. وكان خالد جواداً ممدحاً جاءه رجل فقال له: إني قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما إلا بحكمي، فقال له قل، فقال:

---

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/٤٤، ٢٠٧، ٣١١، ١٤١، ١٤٧.

سألت الندى والجود حران أنتما؟ ::: فقالا بلى عبدان بين عبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا علي وقالا خالد بن يزيد

فقال له تحكم. فقال: مائة ألف درهم، فأمر له بها. وكان خالد شجاعاً جريئاً وكان بينه وبين عبد الملك ابن مروان مناظرات، تهدده عبد الملك مرةً بالسطوة والحرمان فقال له: أتهددني ويد الله فوقك مانعة، وعطاؤه دونك مبذول؟ وأجرى أخوه عبد الله بن يزيد الخيل مع الوليد بن عبد الملك فسبقه عبد الله، فدخل الوليد على خيل عبد الله فنقرها ولعب بها فجاء عبد الله إلى أخيه خالدٍ فقال: لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك، فقال له خالد: بئس ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين، قال: إنه لقي خيلي فنفرها وتلاعب بها، فقال له خالد: أنا أكفيكه فدخل خالد على عبد الملك وعنده الوليد وقال له أمير المؤمنين: إن الوليد بن أمير المؤمنين لقي خيل ابن عمه عبد الله فنرها وتلاعب بها فشق ذلك على عبد الله. فقال عبد الملك: إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوا وجعلوا أعزة أهلها أذلةً، وكذلك يفعلون. فقال له خالد: وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً. فقال له عبد الملك: أما والله لنعم المرء عبد الله على لحن فيه. فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول مع اللحن. فقال عبد الملك إن يكن الوليد لحاناً فأخوه سليمان. قال خالد: وإن يكن عبد الله لحاناً فأخوه خالد. فقال عبد الملك: مدحت والله نفسك يا خالد. قال: وقبلي والله مدحت نفسك يا أمير المؤمنين، قال: ومتى؟ قال: حين قلت أنا قاتل عمرو بن سعيدٍ، حق والله لمن قتل عمراً أن يفخر بقتله، قال: أما والله لمروان كان أطولنا باعاً، قال: أما إني أرى ثأري في مروان صباح مساء، ولو أشاء أن أديله لأدلته؟ قال ما أجرأك علي يا خالد خلني عنك. قال لا والله، قال

الشاعر:

ويجرو اللسان من أسلات ال ::: حرب ما لا يجر منها البنان

فقال عبد الملك: يا وليد أكرم ابن عمك، فقد رأيت أباه يكرم أباك، وجده يكرم جدك (١).

وكشفت لي عن عورة من عوراتك:

كان الوليد بن عبد الملك يلعب بالحمام؛ فخلا لذلك يوماً، واستؤذن لنوفل بن مساحق، فأذن له، فلما دخل قال: خصصتك بالإذن دون الناس. فقال: ما خصصتني ولكن خسستني، وكشفت لي عن عورة من عوراتك.

أتريد أن تقتص أوتارك من الناس بي!

جاء رجل إلي الوليد بن عبد الملك فقال: أن فلاناً نال منك. قال: أتريد أن تقتص أوتارك من الناس بي؟.

فما رأيك!

قال ابن عياش: تزوج الوليد بن عبد الملك ثلاثاً وستين امرأة، وكان أكثر ما يقيم على المرأة ستة أشهر، وكان فيمن تزوج ابنة عبد الله بن مطيع العدوي، وكانت جميلة ظريفة، فلما أهديت إليه قال لسماره الذين كانوا يسمرون عنده: لا تبرحوا - وإن أبطأت - حتى أخرج إليكم. ودخل بها وانتظروه حتى خرج إليهم في السحر وهو يضحك. فقالوا: سرك الله يا أمير المؤمنين. فقال: ما رأيت مثل ابنة المنافق. يعني عبد الله بن مطيع - وكان ممن قتل مع ابن الزبير، وكان بنو مروان يسمون شيعة ابن الزبير: المنافقين - لما أردت القيام أخذت بذيلي وقالت: يا هذا؛ إنا قد اشترطنا على الجمالين

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤٥٥/١.

الرجعة. فما رأيك؟ فأعجب بها وأقام عليها ستة أشهر ثم بعث إليها بطلاقها.

يا ليته بقي حتى يقتل أخاً لي آخر كعمرو بن سعيد:

كانت آمنة بنت سعيد بن العاص عند الوليد بن عبد الملك، فلما مات عبد الملك سعت بها إحدى ضراتها إلى الوليد. وقالت: لم تبك على عبد الملك كما بكت نظائرها. فقال لها الوليد في ذلك فقالت: صدق القائل لك أكنت قائلة: يا ليته بقي حتى يقتل أخاً لي آخر كعمرو بن سعيد(١).

ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه:

قال المدائني: أتي الوليد بن عبد الملك برجل من عبس، فسأل عن حاله وذهاب عينه فقال: ما كان في الأرض يا أمير المؤمنين عبسي أكثر مالاً مني وولداً، فأتى السيل ليلاً فلم يبق لي مالاً ولا أهلاً ولا ولدا إلا بنيا صغيراً وبعيراً، فحملت الصبي، وند البعير فوضعت الصبي وتبعته فنفحني برجله ففقأ عيني، فجرعت إلى ابني فإذا الذئب يلغ في دمه، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه (٢).

أتعرف هذا يا جرير؟

روى أن جريراً دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي - ولم يكن جرير رآه من قبل ذلك - فقال الوليد: أتعرف هذا يا جرير؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: هو ابن الرقاع، فقال جرير: شر الثياب الرقاع، فمن هو؟ قال: هو رجل من

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢/١٢٨، ٣/٣٨، ٤/٤٦، ٤٨.

(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١/٢٦٥.

عاملة، فقال جرير: هو من الذين قال الله فيهم: " عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ". قال: ويلك يا ملعون! فأنشأ جرير يقول:

يقصر با ع العاملي عــن النــدى ::: ولكـــن أيـــر العـــاملي طويـــل

فابتدر عدي فقال:

أأمـــك يـــا ذا أخبرتـــك بطولـــه ::: أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقـــول!

فقال جرير: امرؤ لم أدر كيف أقول. فوثب عدي فأكب على رجل الوليد يقبلها ويقول: أجرني منه يا أمير المؤمنين. فالتفت الوليد إلى جرير وقال: وتربة عبد الملك لئن هجوته لألجمنك ولأسرحن عليك ولأطيفنك بدمشق. فيعيرك الشعراء بذلك، فخرج جرير فصنع قصيدته التي أولها:

حي الهدملة مـــن ذات المـــواعيس ::: فالحنو أصبح قفراً غـــير مـــأنوس

افتخر فيها بنزار وعدد أيامهم، وهجا قحطان، وعرض بعدي ولم يسمه، فقال:

أقصر فـــإن نـــزاراً لا يفـــاخرهم ::: فرع لئيم وأصل غـــير مغـــروس
وابن اللبـــون إذا مـــالز في قـــرنٍ ::: لم يستطع صولة البزل القناعيس (١)

حاجتك!

أصابت أهل البادية قحمة شديدة فخرج الفرزدق إلى الوليد بن عبد الملك وامتدحه بقصيدة فيها:

وكم من مناد والشـــريفان دونـــه ::: إلى الله يشكو والوليـــد مفـــاقره
وقالوا أغثنـــا إن بلغـــت بـــدعوة ::: لنا عند خير الناس إنـــك زائـــره

فقال له الوليد: حاجتك؟ قال: تملأ لي إبلا قمحا، وإبلا زيتا، وإبلا دراهم، فأفرقها في أهل البوادي، من بابك إلى اليمامة، وتكتب إلى

(١) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائع، ص٢.

عمالك كلما نفد منها شيء أعيد لي؛ ففعل، فقسم الفرزدق ذلك حتى انتهى إلى اليمامة [١].

* * *

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٦٧/١.

سليمان بن عبد الملك

سليمان بن عبد الملك

أعلام الخلفاء الأمويين

سليمان بن عبد الملك

هو سليمان بن عبد الملك بن أبي العاص بن أمية الخليفة أبو أيوب القرشي الأموي بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، كان دينا فصيحاً مفوها عادلاً محباً للغزو والجهاد في سبيل الله، كان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عُمّال الحجّاج. وكتب إن الصلاة قد أميتت فأحيوها بوقتها، وهمَّ بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط وحجّ في خلافته، وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر، وكان ينهي الناس عن الغناء [١].

كانت خلافة سليمان بن عبد الملك تمثل بداية المرحلة الجديدة إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية والنزوع إلى الموادعة والأخذ برأي أهل العلم والفضل من باب العمل بمفهوم الشورى والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية، والحرص على تنفيذها، وهي الأمور التي وضحها في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، وبين فيها سياسته التي سينتهجها في الحكم.

وقد وصفه المؤرخ الشيعي المسعودي بأنه كان يؤثر السلامة والعافية ونزوعه إلى الموادعة واستشارة أهل العلم بقوله: كان سليمان لين الجانب.. لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء[٢]، ووصفه ابن كثير بقوله: يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، وإتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله[٣]، ووصفه لسان الدين الخطيب بقوله: وكان قائماً برسوم

(١) تاريخ الطبري، ٣٩٦/٧، سير أعلام النبلاء، ١١١/٥، البداية والنهاية ٦٤٢/١٢.
(٢) التنبيه والإشراف، صـ٣١٩.
(٣) البداية والنهاية، ٦٤٢/١٢.

الشريعة(١). وأما ابن قتيبة فيقول: افتتح بخير وختم بخير لأنه رد المظالم إلى أهلها، ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر ابن عبد العزيز وأغز أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات(٢)، وأما أبي زرعة الدمشقي، فقد عد خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: كانت خلافة سليمان ابن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعاً(٣).

كما تميز سليمان بن عبد الملك بحرصه على تقريب العلماء وقبول نصيحتهم والاستماع إليهم من اشهر هؤلاء العلماء الذين كانوا مستشارين، رجاء بن حيوه، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم..

ومن الشيء اللافت في حياة سليمان بن عبد الملك ما قدمته المصادر الشيعية من وصف للعديد من مناقب سليمان، حيث ذكرت محاسنه الخلقية، ووصفته بالفصاحة، والتوقف عن سفك الدماء، وباستشارة النصحاء، ورد المظالم، وبتوالي الفتوحات في أيامه، وعلى النقيض من ذلك، فإن رواة الشيعة لما لم يجدوا ما يقدح بسيرة سليمان ومنجزاته، نجدهم يركزون جل اهتمامهم على وصفه بالشراهة وبالغوا في ذلك أيما مبالغة، فتارة يصفونه بأنه لا يكاد يشبع، وتارة يصفونه بأنه المصيبة العظمة في الأكل، وتارة يصفونه بأنه أكولاً نهماً نكاحاً. ويبدو أن الروايات الموالية للعباسيين، والروايات الشيعية تناست صعوبة وربما استحالة أن من جمع بين

(١) خلافة سليمان بن عبد الملك، ص٩٨.
(٢) المعارف، ص٣٦٠.
(٣) تاريخ أبو زرعة، ١/١٩٣- ١٩٤.

هذه المحاسن أن تكون همته مصروفة إلى النكاح والطعام، ولو كان الأمر على ما يقولون، فلن ينتصف سليمان للمظلومين، ولن يعير السياسة الداخلية، والخارجية أي اهتمام، ولكان إنكفى على تلبية ملذاته ورغباته، ولكن سيرته وسياسته ومنجزاته العمرانية والعسكرية كفيلة بالرد على هذا الاتهام، وقد ذكرت قصص في هذا الميدان، تشبه الأساطير كالتي ذكرها ابن أبي الحديد: وكان سليمان بن عبد الملك المصيبة الكبر في الأكل، حيث أكل ثلاثين خروفاً بثمانين رغيفاً ثم أكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئاً[١]

وغيرها من القصص الغريبة والعجيبة ويتبين للدارس المحقق أن المبالغة واضحة جلية في تصوير شره سليمان لعدة أسباب:

أ - مخالفتها للطبيعة البشرية التي لا تستطيع إلتهام هذا الكم الهائل من الطعام مع ملاحظة أن المصادر تصفه بنحافة البدن مما يتعارض وشرهه الموصوف في هذه الروايات.

ب - أن هذه الروايات جاءت من طريقين هما:

-.. المؤرخون ذو الميول الشيعية مثل: اليعقوبي، والمسعودي، وابن أبي الحديد، وابن الطقطقا.

-.. المؤرخون ذو الميول العباسية مثل: الواقدي، والمدائني، ويبدو أن الأمر لم يعد كونه وجود شهية قوية للأكل عند سليمان، واستغل خصوم الأمويين من عباسيين وشيعة هذا الأمر وضخموه[٢].

وذكر المؤرخون أن سليمان بن عبد الملك لبس في يوم جمعة

(١) شرح ابن أبي الحديد، ٤٦٥/٥، خلافة سليمان صـ٦٥.
(٢) أنظر: الصلابي، الدولة الأموية.

حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر، وقد بسط ما حوله بالخضرة ثم نظر في المرآة فأعجبه حسنه وشمر عن ذراعيه وقال: أنا الخليفة الشاب وقيل إنه كان ينظر في مرآة من فرقه إلى قدمه ويقول: أنا الملك الشاب، وفي رواية أنه كان ينظر فيها ويقول: كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً وعمر فاروقاً، وكان عثمان حيياً، وكان علي شجاعاً وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب، قالوا: فما دار عليه شهر وفي رواية: جمعة حتى مات، ولمّا حُمَّ شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ::: غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيب ::: كان في الناس غير إنك فان

فصاح بها وقال: عزتني في نفسي وصرفها ثم أمر خاله الوليد بن القعقاع العنسي أن يصب عليه وقال:

قرّ وضوءك يا وليد فإنما ::: هذه الحياة تعلة ومتاع

فقال الوليد:

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً ::: فالدهر فيه فرقة وجماع

وكان سليمان بمرج دابق من أرض قنسرين، فأمر خاله فوضأه، ثم خرج يصلي بالناس، فأخذته لجة في الخطبة ثم نزل وقد أصابته حمى، فاستمر فيها حتى مات في الجمعة المقبلة، وكان قد أقسم أنه لا يبرح دابقاً حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، فمات قبل ذلك - رحمه الله وأكرم مثواه - وكان آخر ما تكلم به أن قال: أسألك منقلباً كريماً. ثم قضى، وكان لرجاء بن حيوه أثر كبير في تولية عمر بن عبد العزيز، ولم يكن للشيطان نصيب في

قرار سليمان بتولية عمر الخلافة من بعده، وقال عبد الرحمن بن حسان الكناني: لما مرض سليمان بن عبد الملك المرض التي توفي فيه، وكان مرضه بدابق، ومعه رجاء بن حيوه، فقال لرجاء بن حيوه: يا رجاء من لهذا الأمر من بعدي. استخلف ابني؟ قال: ابنك غائب. قال: فالآخر؟ قال: ذاك صغير. قال: فمن ترى؟ قال: أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف من بني عبد الملك ألا يرضوا. قال: فولي عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعة مختومة عليها، قال: لقد رأيت، إئتني بقرطاس. قال: فدعا بقرطاس فكتب فيه العهد لعمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ثم ختمه، ثم دفعه إلى رجاء، قال: أخرج إلى الناس فمرهم أن يبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً. قال: فخرج إليهم رجاء فجمعهم، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب من بعده. قالوا: ومن فيه؟ قال: مختوم، لا تخبرونا بمن فيه حتى يموت، قال: لا نبايع حتى نعلم ما فيه. قال: فرجع رجاء إلى سليمان، قال: إنطلق إلى أصحاب الشرطة والحرس، وناد الصلاة جامعة، ومر الناس فليجتمعوا، ومرهم بالبيعة على ما في هذا الكتاب، فمن أبى أن يبايع منهم فاضرب عنقه، قال: ففعل، فبايعوا على ما فيه. قال رجاء: فلما خرجت إلى منزلي، فبينما أنا أسير في الطريق، إذ سمعت جلبة موكب فالتفت فإذا هشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منا وإن أمير المؤمنين قد صنع شيئاً لا أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني فإن عدلها عني فأعلمني ما دام في الأمر نفس، حتى أنظر في هذا الأمر قبل أن يموت. قال: قلت: سبحان الله، يستكتمني أمير المؤمنين أمراً أطلعك عليه لا يكون ذلك أبداً، فأدارني

وألاصنى[١]، فأبيت عليه، قال: فانصرف، بينما أنا اسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز فقال لي: يا رجاء إنه قد وقع في نفسي أمر كثير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلي، ولست أقوم بهذا الشأن، فاعلمني ما دام في الأمر نفس لعلي أتخلص منه ما دام حياً. قلت: سبحان الله، استكتمني أمير المؤمنين أمراً وأطلعك عليه، فأدارني وألاصني، فأبيت عليه. قال رجاء: وثقل سليمان، وحجب الناس عنه حتى مات فلما مات أجلسته وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقلت: إن أمير المؤمنين أصبح ساكناً وقد أحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا على ما في هذا الكتاب، والكتاب بين يديه. قال: فإذنت للناس فدخلوا عليه وأنا قائم عنده فلما دنوا قلت إن أمير المؤمنين يأمركم بالوقوف ثم أخذت الكتاب من عنده ثم تقدمت إليهم فقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما في هذا الكتاب. قال: فبايعوا، وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم على ما فيه أجمعين وفرغت من بيعتهم قلت لهم: آجركم الله في أمير المؤمنين قالوا فمن؟ فافتتح الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فلما نظرت بنو عبد الملك تغيرت وجوههم.

وفي رواية أنه لما انتهى رجاء إلى عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه. فلما قرأوا من بعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا، وقد توفي سليمان يوم الجمعة لعشر بقين من صفر ٩٩هـ وكانت وفاته بمرج دابق، واختلف المؤرخون بنوع مرضه الذي مات فيه. فقسم منهم، قال: إنه أصيب بالتخمة وهذا رأي

(١) ألاصه: أي راوده.

ضعيف، وقسم آخر قال: إنه أصيب بذات الجنب، وظهرت له أعراض المرض فعرضت له سعلة وهو يخطب فنزل وهو محموم، فما جاءت الجمعة التالية حتى مات، كما روى سبط ابن الجوزي ما نصه: ما زال سليمان بعد وفاة ابنه يذوب وينحل حتى مات كمداً[(١)]، وقد توفي وعمره على الأرجح ٣٩ سنة، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وكان في نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصاً. وقد كانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر وقيل ثلاث سنين، وقيل كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام [(٢)].

مواقف من حياته:

غيرة سليمان بن عبد الملك:

كان سليمان بن عبد الملك من أشدّ النّاس غيرةً. فحكي أبو زيدٍ الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو على دكانٍ مبلّطٍ بالرّخام الأحمر، مفروشٌ بالدّيباج الأصفر في وسط بستانٍ قد أينعت ثماره، ورنت أطياره، وأزهر نبت الرّبيع؛ وعلى رأسه وصائف كلّ واحدةٍ أحسن من صاحبتها، فقلت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان سليمان مطرقاً فرفع رأسه فقال: أبا زيد، في مثل هذا اليوم يصلب أحدٌ حيّاً. فقلت: يا سيّدي، يا أمير المؤمنين، أو قد قامت القيامة؟ قال: نعم على رأس أهل الهوى سرّاً.

تستحييه في الحياة والممات:

قال الأصمعي: خرج سليمان بن عبد الملك ومعه سليمان بن المهلّب بن أبي صفرة من دمشق متنزّهين، فمرّا بالجبانة، وإذا امرأةٌ جالسةٌ على قبرٍ تبكي، فهبّت الرّيح، فرفعت البرقع عن وجهها،

(١) مرآة الزمان، ٢٣٠/١٢.
(٢) سير أعلام النبلاء، ١٢٤/٥ - ١٢٦، تاريخ القضاعي، ص٣٥٨.

فكأنّها غمامةٌ جلت شمساً، فوقفنا متعجّبين ننظر إليها، فقال لها ابن المهلّب: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما، ثمّ نظرت إلى القبر، وقالت:

فإن تسألاني عن هواي، فإنّه ::: بملحود هذا القبر، يا فتيان
وإنّي لأستحييه والتّرب بيننا ::: كما كنت أستحييه وهو يراني

فانصرفنا ونحن متعجّبون (١).

نحن وفد الشكر:

قدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقام رجل منهم فقال: يا أمير المؤمنين ما أتيناك رغبة ولا رهبة قال: فلم جئتم؟ قال نحن وفد الشكر، أما الرغبة فقد وصلت إلينا في رحالنا وأما الرهبة فقد أمناها بعدلك ولقد حببت إلينا الحياة وهونت علينا الموت فأما تحبيبك إلينا الحياة فلما انتشر من عدلك وأما تهوينك علينا الموت فلما نثق منك فيمن تخلف من أعقابنا عليك، فوصله وأحسن جائزته وجوائز أصحابه (٢).

يجيء يوم القيامة بين أبيك وأخيك:

ودخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك، وكان مصفراً نحيفاً، فقال سليمان: على رجلٍ أجرك رسنك وسلطك على المسلمين لعنة الله. فقال: يا أمير المؤمنين إنك رأيتني والأمر عني مدبرٌ، فلو رأيتني وهو علي مقبلٌ لا ستعظمت مني يومئذٍ ما استصغرت اليوم. قال: فأين الحجاج؟ قال: يجيء يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه حيث شئت(٣).

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٢٩، ٤١.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٦٨.
(٣) أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن

كأنه إعصار الريح:

وفيما يحكى عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج في حياة أبيه لمتنزهه، فبسط له في صحراء، فتغدى مع أصحابه، فلما حان انصرافه، تشاغل غلمانه بالترحال، وجاء أعرابي، فوجد منهم غفلةً، فأخذ دواج سليمان، فرمى به على عاتقه، وسليمان ينظر إليه.

فبصر به بعض حشمه، فصاح به: ألق ما عليك! فقال الأعرابي: لا لعمري! لا ألقيه ولا كرامة! هذا كسوة أمير المؤمنين وخلعته.

فضحك سليمان، وقال: صدق، أنا كسوته. فمر كأنه إعصار الريح (١).

قبل الحسرة والندامة:

حدّث أبو زكريّا التيميّ قال: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتي بحجر منقور فطلب من يقرأه، فأتي بوهب بن منبّه فقرأه فإذا فيه: ابن آدم، إنّك لو أبصرت قليل ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصّرت عن حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك، لو قد زلّت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد القريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، قبل الحسرة والندامة. قال: فبكى سليمان (٢).

فأهل ذلك أنا:

غضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسري فلما

محمد حسن إسماعيل، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ص٤٨٨،.

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٢٢.

(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٦١/١،.

دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين! إن القدرة تذهب الحفيظة، وإنك تجل عن العقوبة فإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا؛ فعفا عنه (١).

ومن أنت!

قال المدائني: كان يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكراً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كن كنبي الله ، ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وقدر فغفر؛ قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد. فعفا عنه.

فضعه من النار حيث شئت:

دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فقال له سليمان: على امرئ أمرك وجرأك وسلطك على الأمة لعنة الله، أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النار حيث شئت.

ما هكذا:

لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن: اجمع يدي عدي ابن الرقاع إلى عنقه وابعث به إلي على قتب بلا وطاء، ووكل به من ينخس به؛ ففعل ذلك؛ فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك ألقي بين يديه وهو لقى لا حراك فيه ولا روح، فتركه حتى ارتد إليه روحه، ثم قال له: أنت أهل لما نزل بك، ألست القائل في

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٢٤.

الوليد:

معـــاذ ربي أن نبقـــى ونفقـــده ::: وأن نكون لـــراع بعـــدهم تبعـــا

وقال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلت، وإنما قلت:

معـــاذ ربي أن نبقـــى ونفقـــدهم ::: وأن نكون لـــراع بعـــدهم تبعـــا

فنظر إليه سليمان واستضحك، ثم أمر له بصلة وخلى سبيله.

وما تعرفني يا أمير المؤمنين!

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتجهم له كأنه لا يعرفه: فقال له الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ قال: أنا من قوم منهم أوفى العرب، أسود العرب، وأجود العرب، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب: قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك؛ ولأهدمن دارك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما أوفى العرب، فحاجب بن زرارة، الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها: وأما أسود العرب، فقيس بن عاصم، الذي وفد على رسول الله فبسط له رداءه، وقال: هذا سيد الوبر؛ وأما أحلم العرب، فعتاب بن ورقاء الرياحي؛ وأما أفرس العرب، فالحريش بن هلال السعدي؛ أما أشعر العرب فأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين، فاغتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره، وقال: ارجع على عقبيك، فما لك عندنا شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

أتيناك لا من حاجة عرضـــت لنـــا ::: إليك ولا مـــن قلـــة في مجاشـــع

فضل العَقل على المنطِق حِكمة:

وقال محمد بن الغاز: دخل رجل على سُليمان بن عبد الملك، فتكلّم عنده بكلام أعجب سُليمانَ، فأراد أن يختبره لينظر أعقلُه على

قدْر كلامه أم لا، فوجده مَضْعوفاً فقال: فضل العَقل على المنطِق حِكمة، وفضْل المنطِق على العقل هجنة، وخير الأمور ما صدقت بعضها بعضاً، وأنشد:

وما المَرْءِ إلا الأصْغرانِ لسانُه ::: ومَعْقوله والجسْم خَلْق مُصورُ
فإنْ تَمر منه ما يَرُوق فربّما ::: أمر مَذاقُ العَود والعُودُ أخْضر

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك:

حجّ سُليمان بن عبد الملك، فلما قدِمَ المدينة للزيارة بَعث إلى أبي حازم الأعرج، وعنده ابن شِهاب، فلما دخل قال: تكلّم يا أبا حازم. قال: فيم أتكلّم يا أمير المُؤمنين؟ قال: في المَخْرج من هذا الأمر؛ قال: يَسِيرٌ إن أنت فعلتَه؛ قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلاّ من حِلّها، ولا تَضَعْها إلا في أهلها؛ قال: ومن يَقوى على ذلك؟ قال: مَن قلَّدَه الله من أمر الرعيّة ما قلّدك. قال: عِظْني يا أبا حازم؟ قال: اعلم أنَّ هذا الأمر لم يَصِرْ إليك إلا بمَوْت من كان قبْلك، وهو خارجٌ من يديك بمثل ما صار إليك. قال: يا أبا حازم، أشِر عليَّ؛ قال: إنما أنت سُوق فما نفق عندك حُمِل إليك من خير أو شرّ، فاشتر أيَّهما شِئتَ. قال: مالك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانِك يا أمير المؤمنين؟ إنً أدْنَيْتَني فتنْتَني، وإن أقصَيتني أخْزَيْتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عِنْدي ما أخافُك عليه. قال: فارفع إلينا حاجتَك؛ قال: قد رفعتُها إلى ما مَن هو أقدرُ منك عليها، فما أعطاني منها قبلتُ، وما مَنَعَني منها رَضِيتُ.

لك لا عليك:

دخل أعرابيٌّ على سُليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مُكلّمك بكلام فاحتَمِله إن كرهتَه، فإن وراءه ما تُحب إن قبلتَه؟ قال: هات يا أعرابيّ؟ قال: إني سأطلق لساني بما خَرستْ عنه

الألسُن من عِظتك تأديةً لحق الله تعالى وحقِّ إمامتك، إنه قد اكتَنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دُنياك بدينهم، ورضاك بسُخْط ربهم، خافُوك في الله ولم يَخافوا الله فيك، فهم حَرْب للآخرة، سِلْم للدنيا، فلا تَأمنهم علِى ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لا يألونك خبالاً، والأمانة تَضييعاً، والأمة عَسْفاً وخَسْفاً، وأنت مَسْؤول عما آجترحوا، وليسوا مَسْؤولين عما اجترحتَ، فلا تُصْلح دُنياهم بفَساد آخرتك، فإنَّ أخْسَر الناس صَفْقةً يوم القيامة وأعظمَهم غبْناً مَن باع آخرتَه بدُنيا غيره. قال سليمان: أما أنت يا أعرابيّ فقد سَلَلْتَ لسانك وهو أحدّ سيفَيْك. قال: أجلْ يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

مُحَبَّرة مُزَوَّرة يا أميرَ المؤمنين!

ودَخل أعرابيّ على سُليمان بن عبد الملك، فقال له: أصابتك سَماءٌ في وَجهك يا أعرابيّ؛ قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، غيرَ أنها سَحَّاء طَخْياء وَطْفَاء، كأنّ هواديَها الدِّلاء، مُرْجَحنَّة النَواحي، موصولة بالآكام، تَمسّ هامَ الرِّجال، كَثِير زَجَلها، قاصفٌ رَعْدُها، خاطف بَرْقها، حَثِيث وَدْقها، بطيء سَيْرها، مُتَفجّر قطْرها، مُظلم نَوْؤها، قد ألجأت الوحشَ إلى أوطانها، تَبْحث عن أصولها بأظْلافها، مُتَجمّعة بعد شَتَاتها، فلولا اعتصامُنا يا أميرَ المؤمنين بعِضاه الشَجر، وتعلُّقنا بقنَن الجبال، لكُنّا جُفَاء في بَعْض الأودية ولَقَم الطريق، فأطال الله للأمّة بقاءك، ونَسألها في أجلك، فهذا، ببركتك، وعادة الله بك على رعيّتك، وصلّى الله على سيدنا محمد. فقال سُليمان: لعَمْرُ أبيك، لئن كانت بديهةً لقد أحسَنت، وإن كانت مُحَبَرة لقد أجدت؛ قال: بل مُحَبّرة مُزَوّرة يا أميرَ المؤمنين؟ قال: يا غلام، أعطه، فوالله لصِدْقُه أعجبُ إلينا من وَصْفه.

لكان رأسك مثلَ رأس البغل:

وحضر أعرابيّ سُفْرة سُليمان بن عبد الملك، فلما أتـي بالفالوذج جَعَل يُسْرع فيه، فقال سليمان: أتَدْري ما تأكل يا أعرابي؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأجد رِيقاً هنيئاً ومُزْدَرَداً ليناً، وأظنه الصراطَ المُستقيم الذي ذكره الله في كتابه. قال: فضَحك سليمان، وقال: أزيدك منه يا أعرابي؟!، فإنهم يذكرون أنّه يزيد في الدَماغ؟ قال: كذَبوك يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسك مثلَ رأس البَغْل.

خطبة لسليمان بن عبد الملك:

خطب سليمان بن عبد الملك فقال: الحمد للّه، ألا إن الدُّنيا دار غُرور، ومنزل باطل، تُضْحِك باكياً، وتُبْكي ضاحكاً، وتُخِيف أمِناً، وتُؤمِّن خائفاً، وتُفقِر مثرْياً، وتثري مُقتِراً، مَيَّالة غرَّارة، لعَّابة بأهلها. عبادَ الله، فاتّحذوا كِتاب اللّه إماماً، وارتَضُوا به حَكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخٌ لما كان قبلَه، ولم يَنْسخه كتاب بعده. واعلموا عبادَ اللّه أن هذا القران يَجْلو كيْدَ الشّيطان، كما يجلو ضوءُ الصُّبح إذا تنفس، ظلام الليل إذا عَسْعَس.

عَجلّنا على قُتيبة:

لما بلغ قُتَيبَة بنَ مسلم أنّ سليمان بن عبد الملك عَزله عن خُراسان واستعمل يزيدَ بن المهلب، كتب إليه ثلاث صُحف، وقال للرسول: ادفع إليه هذه، فإن دَفعها إلى يزيد فادفع إليه هذه، فإن شَتَمني فادفع إليه هذه. فلما سار الرسولُ إليه دفع الكتابَ إليه، وفيه: يا أمير المؤمنين، إنّ من بلائي في طاعة أبيك وأخيك كَيْتَ وكَيت. فدفع كتابَه إلى يزيد. فأعطاه الرسولُ الكتابَ الثاني، وفيه: يا أمير المؤمنين، كيف تأمن ابنَ دَحْمة على أسرارك وأبوه لم يَأمنه على أمهات أولاده؟ فلما قرأ الكتاب شَتمه وناوله ليزيد. فأعطاه الثالثَ وفيه: من قُتيبة بن مُسلم إلى سليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من

اتبع الهدى. أما بعد. فوالله لأوثقنَّ له أخيّة لا ينزعها المَهر الأرن. فلما قرأها قال سُليمان: عَجّلنا على قُتيبة، يا غلام، جدِّد له عهداً على خُراسان.

ولكن كيف أصنع بوصيّة أمير المؤمنين:

وأراد سُليمان بن عبد الملك أن يَحْجر على يزيد بن عبد الملك، وذلك أنه تزوَج سُعدى بنت عبد اللّه بن عمرو بن عثمان فأصدقها عشرين ألف دينار، واشترى جارية بأربعة آلاف دينار. فقال سليمان: لقد هَممتُ أن أضربَ على يد هذا السفيه، ولكن كيف أصنع بوصيَّة أمير المؤمنين بابني عاتكة: يزيد ومروان!

وأنا الحجاج:

كان سليمانُ بن عبد الملك يكتب إلى الحجّاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كُتباً فلا يَنظر له فيها. فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف: سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله.. أما بعد. فإنك امرؤ مَهْتوك عنه حجابُ الحقّ، مولع بما عليك لا لك، مُنصرف عن مَنافعك، تاركٌ لحظّك، مُستخفّ بحق الله وحق أوليائه. لا ما سلف إليك من خير يَعطفك، ولا ما عليك لا لك يصرفك. في مُبهمة من أمرك مَغْمور مَنكوس مُعصوصر عن الحق اعصيصاراً، ولا تتَنكّب عن قبيح، ولا تَرعوي عن إساءة، ولا ترجو الله وقاراً، حتى دُعيت فاحشاً سبَّاباً. فقِسْ شِبرك بفترك، واحذُ زمام نَعلك بحذو مثله. فايم الله لئن أمكنني الله منك لأدوسنّك دَوْسة تلين منها فرائصك، ولأجعلنّك شريداً في الجبال، تلوذ بأطراف الشمال، ولأعَلقنّ الرَّومية الحمراء بثَدْييها. علم الله ذلك منّي وقضىَ لي به عليّ، فقِدْماً غرّتك العافية، وانْتحيتَ أعراضَ الرّجال، فإنك قَدَرْتَ فَبَذخْتَ، وظَفِرت فتعدَّيت. فرويدكَ

حتى تنظر كيف يكون مصيرُك إن كانت بي وبك مُدة أتعلّق بها، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تَؤول إلى مَذلة ذليل، وخِزْية طويلة، ويُجعل مصيرُك في الآخرة شرَّ مَصير. والسلام.

فكتب إليه الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحجاج بن يوسف إلى سُليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من اتّبع الهدى. أما بعد. فإنك كتبتَ إليّ تَذْكر أنّي امرؤ مَهْتوك عنّي حِجابُ الحق، مُولَع بما عليّ لا لي، مُنصرف عن منافعي، تاركٌ لحظّي، مُستخف بحقّ الله وحقّ وليّ الحق. وتذكر أنك ذو مُصاولة ولعمري إنك لصبيٌّ حديث السنّ تُعذَر بقلّة عَقلك وحَداثة سنّك ويُرقب فيك غيرُك، فأما كتابُك إليّ فلعمري لقد ضَعُف فيك عقلك، واسْتُخِفّ به حلمُك، فلِله أبوك. أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضاءك، ورجاءِ الله دون رجائك، وأمتَّ غيظك، وأمنت عدوّك، وسترت عنه تدبيرك، ولم تُنَبّهه فيَلتمسَ من مُكايدتك ما تلتمس من مُكايدته، ولكنّك لم تَسْتشِفّ الأمور علماً، ولم تُرزق من أمرك حَزْماً. جمعتَ أموراً دلاك فيها الشيطانُ على أسوأ أمرك، فكان الجفاءُ مِن خليقتك، والحُمق مِن طَبيعتك، وأقبل الشيطانُ بك وأدبر، وحدّثك أنك لن تكون كاملاً حتى تَتعاطى ما يَعيبك. فتَحذلقت حنجرتُك لقوله، واتّسعت جوانبُها لكذبه. وأما قولُك لو مَلّكك الله لعلّقت زينبَ بنت يوسف بثَدْييها، فأرجو أن يكرمها الله بهَوانك، وأن لا يُوَفّق ذلك لك إن كان ذلك مِن رأيك، مع أنّي أعرف أنك كتبتَ إليَ والشيطانُ بين كَتفيك، فشرُّ مُمْل على شرِّ كاتب راض بالخَسف، بالحُمق أن لا يدلّك على هُدى، ولا يردّك إلا إلى رَدى. وتحلّب فُوك للخلافة، فأنت شامخ البَصر، طامح النَّظر، تظنُّ أنك حين تَمْلكها لا تَنْقطِع عنك مُدتها. إنها للُقطة الله التي أسأل أن يُلهمك فيها الشكر، مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك

وأخوك فأكون لك مثلي لهما. وإن نَفخ الشيطان في مُنخريك فهو أمر أراد الله نَزعه عنك وإخراجه إلى مَن هو أكمل به منك. ولعمري إنها لنصيحة، فإنْ تَقبلها فمثلُها قُبل، وإن تردّها عليّ اقتطعتُها دونك؟ وأنا الحجاج (١).

ويحك! جعلتني مَشْجوجاً:

سَمر الفرزدقُ والأخطلُ وجرير عند سليمان بن عبد الملك ليلةً، فبينما هم حوله إذ خفَق. فقالوا: نَعس أمير المؤمنين، وهمّوا بالقيام. فقال لهم سليمان: لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعراً. فقال الأخطل:

رَماه الكَـرى في رأسـه فكأنّـه ::: صَرِيع تَروَّى بين أصحابه خَمْـرا

فقال له: ويحك! سكران جعلتَني ثم قال جرير بن الخَطَفي:

رماه الكَـرى في رأسـه فكأنمـا ::: يرى في سواد الليل قُنبرةً حَمْـرا

فقال له: ويحك! أجعلتَني أعمى. ثم قال الفرزدق بعد هذا:

رماه الكَـرى في رأسـه فكأنمـا ::: أَمِيمُ جَلاميدٍ تَـركْن بـه وَقـرا

قال له: ويحك! جعلتني مَشْجوجاً. ثم أذن لهم فانقلبوا، فحيّاهم وأعطاهم.

من لي بدواء ما لا يشتكى! وعلاج ما لا يسمى!

قال أبو زيد الأسدي: دخلت على سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو جالس على دكان مبلط بالرخام الأحمر، مفروش بالبياج الأخضر، في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع، وإذا بإزاء كل شق من البستان ميدان بنبت الربيع قد أزهر. وعلى رأسه وصائف، كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها. وقد غابت الشمس فنضرت الخضرة، وأضعفت في حسنها الزهرة، وغنت الأطيار

(١) العقد الفريد، ٢ /٢١٦.

فتجاوبت، وسفت الرياح على الأشجار فتمايلت، بأنهار فيه قد شققت، ومياه قد تدفقت. فقلت: السلام عليك يا أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. وكان مطرقاً، فرفع رأسه وقال: أبا زيد، في مثل هذا الحين يصاب أحد حيا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أو قد قامت القيامة بعد. قال: نعم، على أهل المحبة سراً والمراسلة بينهم خفية. ثم أطرق مليا، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أعز الله الأمير، قهوة صفراء في زجاجة بيضاء، تناولها مقدودة هيفاء، مضمومة لفاء دعجاء. أشربها من كفها، وأمسح فمي بفمها. فأطرق سليمان ملياً لا يحير جواباً، تنحدر من عينه عبرات بلا شهيق. فلما رأى الوصائف ذلك تنحين عنه. ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، حللت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومنتهى مدتك، وتصرم عمرك، والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير، كنت جالساً عند باب أخيك سعيد ابن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت إلى باب القصر كالغزال انفلت من شبكة الصياد، عليها قميصٌ سكبٌ يتبين منه بياض بدنها، وتدوير سرتها، ونقش تكتها، وفي رجليها نعلان صراران، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، مضمومة بفرد ذؤابة تضرب إلى حقويها، وتسيل كالعثاكيل على منكبيها، وطرة قد أسبلت على متني جبينها، وصدغان قد زينا كأنهما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد قوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبة در، وفم كأنه جرح يقطر دما. وهي تقول: عباد الله، من لي بدواء ما لا يشتكى؟ وعلاج ما لا يسمى؟ طال الحجاب، وأبطأ الجواب، فالفؤاد؟ طائر، والقلب عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا تبلداً، ولو كان إلى

الصبر حيلة، وإلى العزاء سبيل، لكان أمرا جميلاً، ثم أطرقت طويلاً، ثم رفعت رأسها. فقلت: أيتها الجارية، إنسية أنت أم جنية؟ سمائية أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك، وأذهلني حسن منطقك. فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: اعذر أيتها المتكلم الأريب، فما أوحش الساعة بلا مساعد، والمقاساة لصبٍ معاند، ثم انصرفت. فوالله، أصلح الله الأمير، ما أكلت طيباً إلا غصصت به لذكراها، ولا رأيت حسناً إلا سمج في عيني لحسنها. قال سليمان: أبا زيد، كاد الجهل أن يستفزني، والصبا أن يعاودني، والحلم أن يعزب عني؛ لحسن ما رأيت وشجو ما سمعت، تلك هي الذلفاء التي يقول فيها الشاعر:

إنما الذلفاء ياقوتة ::: أخرجت من كيس دهقان

شراؤها على أخير ألف ألف درهم. وهي عاشقة لمن باعها، والله إني من لا يموت إلا بحزنها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقع الموت نهية، قم أبا زيد فاكتم المفاوضة. يا غلام ثقله ببدرة. فأخذتها وانصرفت. قال أبو زيد: فلما أفضت الخلافة إلى سليمان صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء، مونقة زهراء، ذات حدائق بهجة، تحتها أنواع الزهر الغض، من بين أصفر فاقع، واحمر ساطع، وأبيض ناصع، فهي كالثوب الحرمي. وحواشي البرد الأتحمي، يثير منها مر الرياح نسيما يربى على رائحة العنبر، وفتيت المسك الأذفر. وكان له مغن ونديم وسمير يقال له سنان، به يأنس وإليه يسكن. فأمر أن يضرب فسطاسه بالقرب منه. وقد كانت الذلفاء خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن انصرف مع الليل

إلى فسطاسه. فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: قرانا، أصلحك الله. قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه إياي عنه، إلا ما كان في مجلسه. قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا. غننا صوت كذا. قال: فرفع عقيره يتغنى بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتي فأرقها ::: من آخر الليل لما طلها السحر
تثنى على الخد منها من معصفرة ::: والحلي بادٍ على لباهًا خصر
في ليلةٍ لا يدري مضاجعها ::: أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراسٌ ولا غلق ::: فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو خليت لمشت نحوي على قدم ::: تكاد من لينها للمشي تنفطر

فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع، فجعلت لا تسمع شيئا من حسن خلق ولطافة قد إلى الذي وافق المعنى، من وقت الليل واستماعها الصوت إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكناً في قلبها، فهملت عيناها وعلا نشيجها. فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا رب صوت رائع من مشوه ::: قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله ::: إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر. يا غلام، علي بسنان. فدعت الذلفاء خادما لها فقالت: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذره ولك عشر آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله. فخرج الرسول. فسبق رسول سليمان. فلما أتي به قال:

يا سنان، ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغذي نعمته، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يضيع حظه من عبده فليفعل. قال: أما حظي منك فلن أضيعه، ولكن ويلك! أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، وأن الحصان إذا صهل استودقت له الفرس، وأن الجمل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن التيس إذا نب استحرمت له الشاة؟ إياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك(١).

كيف ترينني!

وذكر عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج من الحمام، وهو الخليفة، يريد الصلاة، ونظر في المرآة فأعجبه جماله، وكان حسن الوجه، فقال: أنا الملك الشاب، ويروى " الفتى " فتلقته إحدى حظاياه، فقال لها: كيف ترينني؟ فتمثلت في البيتين المتقدم ذكرهما، فتطير بهما ورجع، فحم فما بات إلا ميتاً تلك الليلة (٢).

لا والله لا أفعل أبداً:

وحدث الرياشي أن سليمان بن عبد الملك لما حج ونزل الطائف هارباً من وَمَد مكة، قال له رجل من ثقيف: انزل عليّ، فقال: إنك لن تطيقني، فقال: إني لأطيقك. فنزل عنده أياماً، ثم ارتحل، فأمره بالخروج معه، فقالت له امرأته: اخرج معه إلى مستقره، فقال: أعمل معه ماذا؟ أقول له أعطني ثمن ما أكلته عندي! لا والله لا أفعل أبداً(٣).

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ١٤١، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٧، ٣١٠، ٣١١، ٤٤٤، ٤٥٤، ٥/٢، ١٥٦، ١٥٧، ٣٤٥، ٤١٤.
(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص ١٥٥.
(٣) المبرد، الفاضل، ص ١٠.

خصلة من ثلاث:

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، عندي نصيحة. قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: فلان كان عاملاً ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد، فخانهم فيما تولاه ثم اقتطع أموالاً كثيرة جليلة فمر باستخراجهما منه. قال: أنت شر منه وأخون حيث أطلعت على أمره وأظهرته ولولا أني أنفر النصاح لعاقبتك، ولكن اختر مني خصلة من ثلاث. قال: اعرضهن يا أمير المؤمنين. قال: إن شئت فتشنا عما ذكرت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك وإن استقلت أقلناك، فاستقاله الرجل.

قاتلها الله هي والله أشعرهم:

قال سليمان بن عبد الملك: أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته، إذ أخذته السماء، فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر، وجارية مشرفة عليه، فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال:

لو بتفاحةٍ رميت رجونا ::: ومن الرمي بالحصاة جفاء

فأجابته:

ما جهلنا الذي ذكرت من الشكل ::: ولا بالذي نراه خفاء

وداية معها، فقالت:

قد بدأتيه ما ذكرت وجدي ::: ليت شعري فهل لهذا وفاء

وسائلة في الباب، فقالت:

قد لعمري دعوتها فاجابت ::: هي داءٌ وأنت منه شفاء

قال سليمان: قاتلها الله هي والله أشعرهم.

مساوئ شدة الغيرة والعقوبة عليها:

حكى عن سليمان بن عبد الملك أنه كان في بعض أسفاره، فسمر معه قوم، فلما تفرقوا عنه، دعا بوضوء، فجاءت به جارية، فبينما هي تصب الماء على يده، إذ استمدها، وأشار إليها مرتين أو ثلاثاً فلم تصب عليه، فأنكر ذلك، ورفع رأسه، فإذا هي مصغية بسمعها، مائلة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر، فأمرها فتنحت، فسمع الصوت فإذا رجل يغني، فأنصت له حتى فهم ما غنى، فدعا بجارية غيرها فتوضأ، فلما أصبح، أذن للناس، فأجرى ذكر الغناء، فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيه؛ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء، والتسهيل لمن سمعه، وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس، فقال: هل بقي أحد يسمع منه؟ فقال رجل من القوم: عندي رجلان من أهل الأبلة محكمان، قال: فأين منزلك من العسكر؟ فأومأ إلى ناحية الغناء، فقال سليمان: ابعث إليهما، ففعل، فوجد الرسول أحدهما وأقبل به، وكان اسمه سمير، فسأله عن الغناء، وكيف هو فيه، قال: محكم، قال: متى عهدك به؟ قال: البارحة، قال: وفي أي النواحي كنت؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال: وما اسم صاحبك؟ قال: سنان. قال: فأقبل سليمان على القوم فقال: هدر الفحل فضبعت الناقة، ونب التيس فشكرت الشاة، وهدل الحمام فزافت الحمامة، وغنى الرجل فطربت المرأة، ثم أمر به فخصي، وسأل عن الغناء أين أصله؟ قالوا: بالمدينة وهم المخنثون، فكتب إلى عامله أن أخص من قبلك من المخنثين (١).

محاسن النظر في المظالم:

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص ٥٠، ١٢٨، ١٩٢.

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامة فقال: يا سليمان أذكّرك يوم الأذان. قال: فارتاع لما دعاه باسمه وقال: ويحك وما يوم الأذان؟ قال: قول الله جل ذكره: " فأذّن مؤذنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين ". فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جار في ضيعتك الفلانية وقد ظلمني وكيلك فأضرّ ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه.

كفَّ عني فأني أنفعك:

وقدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقضوا حوائجهم وانصرفوا. فقال رجل منهم: بلغني أن أمير المؤمنين يبرز للعامة فأنا أقيم بعدكم يوماً أو يومين فلعلي أن أراه وأسمع كلامه ثم أتبعكم. فلما كان في الغد برز سليمان للناس وجلس على سريره وأذن للعامة فدخلوا وفيهم العراقي. فجلس في سماط سليمان إلى جنب رجل أحمق من أهل الشأم. فقال له الأحمق: ممن الرجل؟ قال: أنا من أهل العراق. وقال: فعل الله بك وفعل، وجعل يشتمه ويذكر أباه وعرضه، وقال: مثلك يقعد في سماط أمير المؤمنين! والعراقيّ يناشده الله ويسأله أن يكفّ عنه فيأبى، إلى أن قال سليمان: أيكم يخبرني من الذي يقول:

أنخن القرون فعقّلْنَها ::: كعطف العسيب عراجين ميلا

ويفسّر لنا قوله فله جارية برحالتها؟ والشامي مقبل على العراقي لا يفتر عن شتمه ويقول: يا جاسوس. فقال له: كفّ عني فإني أنفعك. قال: وهل معك خير؟ قال: نعم، قم فقل لأمير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره، فإذا قال: من قاله؟ فقل: امرؤ القيس، فإذا قال: ما عنى به؟ فقل: البطيخ. فقال الشاميّ: يا أمير المؤمنين أنا أعرف من

قال هذا وأفسره. فقال: هات. قال: امرؤ القيس. فتبسم سليمان وقال: فما عنى به؟ قال: البطيخ. فضحك سليمان حتى استلقى على فراشه ثم قال: ويحك عمن أخذت هذا العلم؟ فقال: عن هذا العراقي. فأشار سليمان إلى العراقي فأقبل إليه، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من أهل العراق كنت قدمت مع فلان وفلان فقضوا حوائجهم وانصرفوا فأقمت أرقب جلوس أمير المؤمنين فقعدت إلى هذا الشاميّ فلم يدع سباً ولا شتماً إلا استقبلني به. فقلت له كفّ عني فإني أنفعك، قل لأمير المؤمنين كذا وكذا، فكان منه ما قد سمعته. فضحك وقال: أتعرف أنت من قاله؟ قلت: كثيّر عزة. قال: وما عنى به؟ قلت: قرون الرأس، والعسيب الخادم، والعراجين قد اختلفوا فيه فقال بعضهم عناقيد الكرم وقال بعضهم عراجين النخل. فأمر له بجائزة سنيّة وقال له: الحق بأصحابك [1].

أنا ابن محي الموتي:

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محي الموتي فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) وجدي فدى الموءودات فاستحياهن فقال سليمان إنك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات.

فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج:

وقيل إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستمالة وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢١٠، ٢٥٠.

عبد الملك ابن مروان وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامة عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين أني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبة بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلى واستجار بي فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فإن راى أمير المؤمنين أن لا يختبرني في ضيفي فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم فكتب إليه الوليد إنه لا بد أن ترسل إلي يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعا بغلين وأرسلهما الى أخيه الوليد وكتب إليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبدا بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلني إذا شئت ثالثا والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم أنه أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد وأحسن اليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف

درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتابا إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

جمرة لا يطفئها إلا عبرة:

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجا ابن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة فقال عمر اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمعت عينا رسول الله على ابنه إبراهيم وقال: **إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولانقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون** فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم قال لولا نزفت هذه العبرة لا نصدع كبدي ثم إنه لم يبك بعدها [1].

إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه:

قال سليمان بن عبد الملك لسالم بن عبد الله، وقد رآه حسن السحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزيت، وإذا وجدت اللحم أكلته. قال له: وتشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه.

أرى يا أمير المؤمنين دنيا تأكل بعضها:

حج سليمان بن عبد الملك فلما أشرف في انصرفه على قديد، نظر من عسكره فأعجبه ما رأى من كثرته، ومعه عمر بن عبد العزيز، فقال له: كيف ترى يا أبا حفص؟ قال: أرى يا أمير المؤمنين

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١/٢٩٠، ٢٩٩ - ٣٠٠، ٥٨٦/٢.

دنيا تأكل بعضها، أنت المبتلي بها والمسؤول عنها.

عظني:

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم المدني: عظني. فقال: عظم ربك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك [(١)].

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك:

حج سليمان بن عبد الملك فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب فلما دخل قال تكلم يا أبا حازم قال فيم أتكلم يا أمير المؤمنين قال في المخرج من هذا الأمر قال يسير إن أنت فعلته قال وما ذاك قال لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا في أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك قال أعطنى أبا حازم قال اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك قال يا أبا حازم أشر علي قال إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت قال مالك لا تأتينا قال وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين إن أدنيتنى فتنتنى وإن أقصيتنى أخزيتنى وليس عندك ما أرجوك له ولا عندي ما أخافك عليه قال فارفع إلينا حاجتك قال قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت وما منعنى منها رضيت.

ودخل عليه أبو حازم الأعرج فقال يا أبا حازم ما لنا نكره الموت فقال لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب قال فأخبرني كيف القدوم على الله قال أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسرورا وأما المسيء فكالعبد الابق يأتى

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص١٨٩، ٢٣٧، ٢٤٤.

مولاه محزونا قال فأي الأعمال أفضل قال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال فأى القول أعدل قال كلمة حق عند من تخاف وترجو قال فأى الناس أعقل قال من عمل بطاعة الله قال فأى الناس أجهل قال من باع آخرته بدنيا غيره قال عظني وأوجز قال يا أمير المؤمنين نزه ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك فبكى سليمان بكاء شديدا فقال له بعض جلسائه أسرفت ويحك على أمير المؤمنين فقال له أبو حازم اسكت فإن الله عز و جل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال فرده وقال للرسول قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي.

فأنها زلة ولا أعود لمثلها :

وحضر سفرة سليمان أعرابى فنظر إلى شعرة في لقمة الأعرابي فقال: أرى شعرة في لقمتك يا أعرابي قال وإنك لتراعينى مراعاة من يبصر الشعرة في لقمتى والله لا واكلتك أبدا فقال استرها يا أعرابى فإنها زلة ولا أعود لمثلها [1].

اشتريته بدرهمين:

عن مولى لعمرو بن حريث قال: شخصت إلى سليمان بن عبد الملك، فقيل لي: إنك تَردُ على أفصح العرب، وسيسألك عن المطر، فانْظُرْ ما تجيبه، فقلت: ما عندي من الجواب إلا ما عند العامّة، فقيل لي: ما ذلك بمُقنِع عنده، فلقيني أعرابي فقلت: هل لكَ في درهمين. فقال: إنّي واللّه محتاج إليهما، حريصٌ عليهما، فما شَأنُك؟ فقلت: لو سألك سائل عَنْ هذا المطر بمَ كنت تُجيبه؟ قال: أو

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ٢ / ٤١٧، ٢٤١/٣.

يَعْيَا بهذا أحد؟ قلت: نعم، سَائِلُكَ قال: أَتَعْيَا أن تقول: أصابتنا سماءٌ، عَمد لها الثَّرى، واتصَل بها العُرَى، وقامَتْ منها الغُدُر، وأتتك في مثل وِجَار الضَّبُع؟ فكتبتُ الكلامَ، وأعطيتُه درهمين: فكان هِجِّيرَايَ على الرَاحلة، فإذا نزلت أقبَلت عليه وأمثل نفسي كأني واقفٌ بين يديه، وقد سلَّمت عليه بالخلافة وهو يَسْألني عن المطر فلمّا انتهيتُ إليه سألني فاقتصَصْت الكلامَ، فكَسَر إحْدَى عينيه، وقال: إني لأسمَع كلاماً ما أنت بأبي عُذْرته. قلت: صدقت وحياتك يا أمير المؤمنين اشتريته بدرهمين فاستغرب ضَحِكاً، ثم أحْسَنَ صِلَتي.

هذه والله المعرفةُ بقَدْر النعمة:

- وخطب سليمانُ بن عبد الملك فقال: أيها الناسُ، مَنْ لم يعلم أبْوَابَ مَدْخَله في الكرامة، وجَهل طريقته التي وقعَتْ به على النَعمة كان بعُرْض رُجوع إلى دار هَوَان، وانقلابٍ بفادح خُسْران.

فقام إليه أبو وائلة السدوسي، وهو حاجِبُه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، كنّا كما قال الله تعالى:{هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾} [الإنسان: ١]، ثم صِرْنا كما قال زُهير: الوافر:

يَـدُ المَلِـكِ الجليـل تنـاولَتْهُمْ ::: بإحسـانٍ فليـس لهـا مُزيـلُ
لأنَ الخـيرَ أَجْمَـعَ في يَدَيْـه ::: ورَبي بـالجزاء لـه كَفِيـلُ

فقال سليمان: هذه والله المعرفةُ بقدْر النَعمة، والعلمُ بما يَجب للمنعم.

فالعَنُوه، لعنهُ الله:

صعد خالدُ بن عبد الله القسري المنبر يومَ جمعة، فخطب وهو إذْ ذاك أميرٌ على مكة، فذكر الحجَّاج فأحْمَد طاعتَه، وأثنى عليه خيراً،

فلمّا كان في الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمرُه فيه بشَتْم الحجّاج وذِكْرِ عيوبهِ، وإظهار البراءة منه، وصعد المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: إن إبليس كان مَلَكاً من الملائكة، وكان يُظْهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترَى له بذلك فضلاً، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِيَ عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه؛ وإن الحجاجَ كان يُظْهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنَّا نرى له بذلك فضلاً، وكان الله عزّ وجلّ، أطْلَعَ أميرَ المؤمنين من غِلِه وخُبْثه على ما خَفِيَ عنّا، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالْعَنُوه، لعنهُ الله. ثم نزل.

الصمتُ:

وذُكِر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال: إن مَنْ تكلم فأحسن قدَر أنْ يسكتَ فيُحْسِن، وليس مَنْ سكت فأحسن يتكلمُ فيُحْسِن.

لا تَقُلْ هذا في الحجاج:

دخل يزيد بن أبي مُسْلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدَرَاه ونَبَت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كاليوم قطّ، لعن الله امرأ أجرَّك رَسَنَه، وحكّمك في أمره. فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر، وعليك مُقبِل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدْبِر، لاستعظمتَ منّي ما استصغرتَ، واستكبرتَ ما استقللت.

قال: عزمت عليك يا ابْنَ أبي مُسلم لتخبرني عن الحجاج، أتراه يَهوِي في جهنم أم قد قرَّبها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تَقُلْ هذا في الحجاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأمَّن دولتكم، وأخاف عدوَّكم، وكأني به

يوم القيامة وهو عن يمين أبيك، ويَسار أخيك، فاجعله حيثُ شئت.

فقال له سليمان: أُعْزُبْ إلى لعنة الله فخرج، فالتفت سليمانُ إلى جلسائه فقال: قاتله الله ما أَحْسَنَ بديهتَهُ، وترفيعه لنفسه ولصاحبه وقد أحسن المكافأة في الصنيعة، خَلُّوا عنه.

وقال سليمانُ بن عبد الملك: ما سألني أحدٌ قط مسألة يثقلُ علي قضاؤها، ولا يخفُّ عليّ أداؤها، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلب فهمَه إلا قضيتُها، وإن كانت العزيمة نفذت في منعه، وكان الصواب مستقراً في دفعه، ضناً بالصواب أن يردّ سائله، أو يحرم نائله [1].

وإلا محوتك!

ولما استخلف سليمان بن عبد الملك تهدد الحجاج بالعزل، فكتب إليه الحجاج: يا سليمان إنما أنت نقطة من مداد، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما، وإلا فأنا الحجاج وأنت نقطة إن شئت أتيتك وإلا محوتك! فأقره على عمله.

فيعمل بعمل الفراعنة!

وقال سليمان بن عبد الملك لبلال بن أبي بردة: صف لي الحجاج؛ فقال: كان يتيزين بزينة المومسة، فإذا صعد المنبر تكلم بكلام القسيسين، وينزل فيعمل بعمل الفراعنة! [2].

حيلة أحد عمال سليمان بن عبد الملك:

لما استخلف سليمان بن عبد الملك دفع عمال أخيه الوليد إلى يزيد بن المهلب وأمره ببسط العذاب عليهم، واستخراج المال منهم،

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ١ / ٢٤٥، ٢٩٨، ٣١٧، ٢/٨٦، ٣٩٢، ٤١٥.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ /٧٦، ٥٠٠، ٢/٣٣.

وكان فيهم رجل من بني مرة فقال ليزيد: أما أنا فلست بذي مال، ولا تنتفع بتعذيبي ولكن عشيرتي تفكني بأموالهم، فأذن لي في أن أجول فيهم. فأذن له فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أخذني بمال، والمال عندي، ولكن أكره أن أقر بالخيانة، فاضمنوا له هذا المال عني وأطلقوني من حبسه، ولا غرم عليكم فإني مضطلع بأداء هذا المال. فنهض وجوه عشيرته في أمره، وضمنوا المال عنه وأطلقوه، فلما أخذوا بالمال قالوا للرجل: أد المال كما زعمت. فقال: يا حمقى أتظنون أنني اختنت مالاً تعرضت فيه للمأثم وسخط الخليفة وعقوبته، وأؤديه اليوم طائعاً، وقد صيرت ما أطالب به في أعناقكم، لبئس ما ظننتم اغرموه من أعطياتكم وأنا فيه كأحدكم. ففعلوا ذلك وهو كأحدهم [١].

فأشكو ربي:

دخل محمد بن كعب القرظي على سليمان بن عبد الملك في ثياب رثة، فقال له سليمان: ما يحملك على لبس هذا؟ قال: أكره أن أقول الزهد فأطري نفسي، أو أقول الفقر فأشكو ربي.

والله لا أسأل في بيت الله غير الله:

حج سليمان بن عبد الملك فدخل البيت فرأى سالم بن عبد الله فقال: ارفع حوائجك، فقال: والله لا أسأل في بيت الله غير الله.

فأين قوله يا ابن اللخناء!

كان سليمان بن عبد الملك إذا حضر طعامه فتحت الأبواب ورفعت الستور ودخل الناس، فإذا انقضى ذلك نادى مناديه: إن أمير المؤمنين مرتفع من مجلسه، فهل لأحد منكم حاجة؟ فقام رجل ذات

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٩٢/٤.

يوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي في بيت مالك مائتي دينار، وأنا الآن مملك بابنة عم لي، وقد ضرب علي أجل إن جزته فرق بيني وبينها، فإن رأى أمير المؤمنين أسلفني هذه المائتين فأقضي عني، فقال: يا ابن اللخناء [١]، أقسطار أنا حتى أسلفك؟ بل أهب لك مائتي دينار ومائتي دينار، وجعل يكررها حتى انقطع نفسه على ثلاثة آلاف دينار، فقبضها الرجل، فأتاه الناس يهنئونه قال: فأين قوله يا ابن اللخناء؟ فبلغ ذلك سليمان فقال: صدق، وددت أني افتديتها بأضعاف ذلك ولم أقلها [٢].

ألست صفوان بن سليم؟!

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامله عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة وقد استند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم الزهري عن غير معرفة، فقال: يا عمر من هذا؟ما رأيت سمتاً احسن منه، قال: يا أمير المؤمنين هذا صفوان بن سليم، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار، فأتي به فقال لخادمه: ترى هذا الرجل القائم يصلي؟فوصفه للغلام حتى أثبته، قال: فخرج الغلام بالكيس حتى جلس إلى صفوان، فلما نظر صفوان إليه ركع وسجد ثم سلم، فأقبل عليه وقال: ما حاجتك؟قال: أمرني أمير المؤمنين، وهو ذا ينظر إليك وإلي، أن ادفع هذا الكيس، ويقول لك: استعن بهذه على زمانك وعلى عيالك، فقال صفوان للغلام: ليس أنا الذي أرسلت إليه، قال الغلام، ألست صفوان ابن سليم؟! قال بلى أنا صفوان بن سليم قال إليك أرسلت؟ قال: اذهب فاستثبت فإذا أثبت فهلم، فقال الغلام: أمسك

---

(١) اللخناء: المنتنة الريح.
(٢) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١/ ٧٥، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢ / ١٦.

الكيس معك وأذهب أنا، قال: لا إذا أمسكت فقد أخذت، ولكن اذهب واستثبت وأنا ها هنا جالس، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم ير بها حتى خرج سليمان من المدينة.

لكأنما معه ملكان:

جاء عطاء بن أبي رباح إلى سدة سليمان بن عبد الملك فجعل يقعقع الحلقة، فقال سليمان بن عبد الملك: افتحوا له، وتزحزح له عن مجلسه فقال: أصلحك الله، احفظ وصية رسول الله في أبناء المهاجرين والأنصار قال: أصنع بهم ماذا؟ قال: انظر في أرزاقهم، قال: ثم ماذا؟ قال: أهل البادية تفقد أمورهم فإنهم مادة العرب، قال: ثم ماذا؟ قال: ذمة المسلمين تفقد أمورهم وخفف عنهم من خراجهم فإنهم عون لك على عدو الله وعدوهم، قال: ثم ماذا؟ قال: أهل الثغور تفقدهم فإنه يدفع بهم عن هذه الأمة، قال: ثم ماذا؟ قال: يصلح الله أمير المؤمنين. فلما ولى قال: هذا والله الشرف لا شرفنا، وهذا والله السؤدد لا سؤددنا، والله لكأنما معه ملكان ما أقدر أن أراجعه في شيء سألني، ولو سألني أن أتزحزح عن هذا المجلس لفعلت.

هذا وأبيكم السؤدد:

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأهدى له خارجة بن زيد بن ثابت ألف عذق موز، وألف قرعة عسل أبيض، وألف شاة، وألف دجاجة، ومائة إوزة، ومائة جزور، فقال سليمان: أجحفت بنفسك يا خارجة، قال: يا أمير المؤمنين قدمت بلد رسول الله ونزلت في أهل بيتي مالك بن النجار، وأنت ضيف، وإنما هذا قرى، فقال: هذا وأبيكم السؤدد. ثم سأل عن دينه فقيل خمسة وعشرون ألف دينار، فقضاها عنه وأعطاه عشرة آلاف دينار.

ما أعظم بركة المؤمن في كل شيء:

قال محمد بن صفوان الضبي: كنت أقوم على رأس سليمان بن عبد الملك، فدخل عليه رجل من حضرموت من حكمائهم، فقال له سليمان: تكلم بحاجتك، فقال: من كان الغالب على كلامه النصيحة وحسن الإرادة أوفى به كلامه على السلامة، وإني أعوذ بالذي أشخصني من أهلي حتى أوفدني عليك أن ينطقني بغير الحق، وأن يذلل لساني بما فيه سخطه علي، وإن إقصار الخطبة أبلغ في أفئدة أولي الفهم من الإطالة والتشديق في البلاغة، إلا وإن من البلاغة يا أمير المؤمنين ما فهم وإن قل، وإني مقتصر على الاقتصار مجتنب لكثير من الإكثار. أشخصني إليك والي عسوف ورعية ضائعة، وإنك إن تعجل تدرك ما فات، وإن تقصر تهلك رعيتك هناك ضياعاً، وها فخذها إليك قصيرة موجزة. فقال سليمان: ادع لي رجلاً من الحرس فاحمله على البريد وقل له: إذا أتيت البلاد فلا تنزل من مركبك حتى تعزله، ومن كانت له ظلامة أخذت له بحقه. ثم أمر للحكيم بمال فأبى أن يقبل وقال: إني والله يا أمير المؤمنين أحتسب سفري على الله عز وجل، وإني أكره أن آخذ عليه من غيره أجراً. قال: انطلق بارك الله عليك. فلما ولى قال سليمان: ما أعظم بركة المؤمن في كل شيء [1].

ويلكم زيدوني:

دخل سعيد بن خالد بن أسيد على سليمان بن عبد الملك، وكان جوادا، إن لم يجد شيئاً كتب على نفسه صكا حتى يوسر، فتمثل له سليمان:

إني سمعت مع الصباح منادياً ::: يا من يعين على الفتى المعوان

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٥١، ٩٩/١، ١٦١، ١٦٧، ٣٣٩.

ثم قال حاجتك؟ قال: ديني؛ قال: كم هو؟ قال ثلاثون ألف دينار؛ قال: لك دينك ومثلاه وعشرة آلاف، فأمر له بمائة ألف دينار. فلما ولى هشام أتى بنو سعيد هشاما فقالوا: أن أبانا قد تركنا وما في قريش أحوج منا، فحجر عليه وأجرى عليه في كل يوم شاة، فقال: ويلكم زيدوني أبلغكم أني بازي.

ما أعظمها من يدا:

أوسع رجل لرجل في مجلس سليمان بن عبد الملك، وكان الناس مزدحمين، فقال سليمان: ما أعظمها من يد! وأحسنه من معروف! وما ضاعت يد أودعها رجل رجلاً.

فتغير وجه سليمان:

حج سليمان بن عبد الملك فلقيه طاووس، فقيل حدث أمير المؤمنين، فقال: قال رسول الله :إن من أعظم الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه. فتغير وجه سليمان.

ولكن أريد التحفظ:

كان سليمان بن عبد الملك يجمع جواريه ونسائه، ويحدثهن بضروب من العلم، ثم يقول: إني لأعلم أنكن لا تدرين ما أقول ولكن أريد التحفظ.

يحك رأسه حتى كاد يجرحه:

استحضر سليمان بن عبد الملك طاووساً فسكت طويلاً ثم قال: هل تعلمون أول ما خلق؟ قالوا: لا، قالا: القلم، ثم قال: فهل تعلمون آخر من يموت؟ قالوا: لا، قال: ملك الموت، قال: هل تعلمون أبغض خلق الله؟ قالوا: لا، قال: إن أبغض خلق الله إليه عبد أعطاه سلطاناً

فعمل بمعصيته. فأخذ سليمان يحك رأسه حتى كاد يجرحه [(١)].

من كلامه ـ غفر الله له ـ:

ـ خطب سليمان بن عبد الملك بالجابية وقال: أيها الناس، عظوا أنفسكم، ولا تستسلموا إلى الغفلة فتؤديكم إلى الحسرة، ولا تركنوا إلى الآمال في استسعاف التفريط فتبيدكم الآجال بسيف المنون، أصارنا الله وإياكم ممن حسن في الخير أثره، دعاء مسموعاً، وعملاً مرفوعاً.

ـ قيل: أول كلام بارع سمع من سليمان بن عبد الملك قوله: الكلام فيما يعنيك خير من الكلام فيما يضرك.

وقال سليمانُ بن عبد الملك: ما سألني أحدٌ قط مسألة يثقلُ علي قضاؤها، ولا يخفُّ عليّ أداؤها، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلب فهمَه إلا قضيتُها، وإن كانت العزيمة نفذت في منعه، وكان الصواب مستقراً

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ٩٣، ١٩٧، ٢٧٦، ٣٢٧، ٤٤٢.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م، ١ / ٢٤٥، ٢٩٨، ٣١٧، ٢/٨٦، ٣٩٢، ٤١٥.

أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز

أعلام الخلفاء الأمويين

أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية.

كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاهاً منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فمازالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين، وكان رحمه الله فصيحاً مُفوَّهاً(١).

كان والده عبد العزيز بن مروان بن الحكم، من خيار أمراء بني أمية، شجاعاً كريماً بقي أمير لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة ديناراً من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي حفيده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقيل اسمها ليلى.

وكان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالي الأمور

(١) سير أعلام النبلاء، ١٤٤/٥.

سواء قبل ولايته مصر أو بعدها فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بني أمية وأسخاهم، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل، ومن جوده كان يقول: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده. وقد أكثر المؤرخين من الثناء عليه لجوده وهذا الجود كان ممتزجاً باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه فيقول: عجب لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء، وكان ذا خشية من الله، ونستقرأ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً، ولوددت أني أكون هذا الماء الجاري أو نبته بأرض الحجاز.

أمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووالدها، عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشي العدوي ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيماً وكان من نبلاء الرجال، ديّنا، خيِّراً، صالحاً، وكان بليغاً، فصيحاً، شاعراً، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأمِّه، مات سنة سبعين.

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعُسُّ بالمدينة إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذ قيه بالماء فقالت لها: يا أمتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم قال: وما كان من عزمته يا

بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً، فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت: لها يا بنتاه قومي إلى اللبن فامزجيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم علّم الباب وأعرف الموضع، ثم مضى في عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر أخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً وولدت البنت عمر بن عبد العزيز، ويذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً، وكان عبد الله بن عمر يقول أن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة فحسبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز(١).

ولد عمر بن عبد العزيز عام ٦١هـ وهو قول أكثر المؤرخين، وكانت ولادته بالمدينة (٢).

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يلقب بالأشج، وكان يقال له أشج بني مروان، وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى اصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢٢/٥، انظر: الصلابي، الدولة الأموية.
(٢) البداية والنهاية، ٦٧٦/١٢.

كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد)، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً. وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً [(١)].

كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشر ذكراً منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله وبنات ثلاث أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير أنه أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون) وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه. فسبحان الله رب العالمين..[(٢)].

تزوج عمر بن عبد العزيز من فاطمة بنت عبد الملك، وهي امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن زوجاته لميس بنت علي بن الحارث وقد ولدت له عبد الله وبكر

---

(١) د. محمد شقير، فقه عمر بن عبد العزيز، ٢٠/١.
(٢) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٣٨.

وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأمهم: أم ولد[١].

ثناء العلماء عليه:

اتفق المؤرخون على أن عمر بن عبد العزيز من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمّنا منه، وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلمَّ العلماء، قال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري وفي العلم مع الزهري، وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث - مراراً - بصحة قوله، بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله، ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل وجعلوا له وصفاً يتميَّز به عن جدّه لأمه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال القرشي في الجواهر المضيئة: فائدة يقول: أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور، ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات وقال في أولها: تكرر في المختصر والمهذب. وأما المالكية

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣١٤ - ٣١٥.

فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر في (الموطأ) محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثير، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز وكفاه هذا، وكفانا قول الإمام أحمد أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله، ومن أراد أن يتبحر في علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر ابن عبد العزيز في العقيدة للأستاذ حياة محمد جبر والكتاب في مجلدين، وهي رسالة علمية وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد سعد شقير في مجلدين وهي رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لمحمد رواس قلعجي وسوف نرى في بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله تعالى في العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية وتقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين في خطواته وسكناته [1].

تولي عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة المنورة في ربيع الأول من عام ٨٧هـ ثم ضم إليه الخليفة الوليد بن عبد الملك ولاية الطائف سنة ٩١هـ وبذلك صار والياً على الحجاز كلها: واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال،

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٢٨١.

ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة. الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس في المدينة فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحاً شديد(١).

ومن الأحداث المؤسفة في ولاية عمر ما ذكره المؤرخون من أن خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي أنه قال:**إذا بلغ بنو أبي العاص**(٢) **ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً**(٣) وهو حديث ضعيف فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز - واليه على المدينة - يأمره بجلده مائة سوط وبحبسه فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة فكزّ(٤)، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه.

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، ٦٣/١، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص٤١ـ٤٢.
(٢)) أبي العاص: أي بنو العاص بني أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز.
(٣) الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥٠٧/٦)، عن أبي سعيد وأبي هريرة قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة، انظر الصلابي، الدولة الأوية، ٣ / ٢٨٦.
(٤) كزّ الرجل: فهو مكزوز أصابه داء الكزاز، وهو يبس وانقباض من البرد.

وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً فقال لي: ما وراءك فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر فيقول: كيف بخبيب، ولم يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات، ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته، وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة(١).

ومن المواقف المهمة في حياة عمر بن عبد العزيز موقفه من الحجاج بن يوسف الثقفي، ففي سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب

(١) ابن الجوزي سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٤٠.

إليَّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحّ عن المدينة، وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قبلي من مراق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن: فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسري، وعزل عمر عبد العزيز. وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً وكان يظن بأنه سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[١].

ومن آخر مواقفه التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد ابن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفاً حازماً حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك: فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٢٨٨.

عنقه[١].

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة قرب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعاً حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته أو سفره وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني. وفي موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي.

وقد كان لعمر أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة، خالد القسري ووالي المدينة عثمان بن حيان، ومنها الأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد ابن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس - عن رأي عمر - أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها. وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها [٢].

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله لي نصيحة الفقيه العالم رجاء ابن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء

(١) سير أعلام النبلاء، ١٤٨/٥، ١٤٩.
(٢) الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٢٨٨.

الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، فعن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضر من خز ونظر في المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب استخير الله فيه، وانظر، ولم أعزم عليه، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقه ثم دعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك والله لئن وليته، ولم أول أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به، قلت: رأيك قال: فكتب بيده بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مرّ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان: لرجاء بعد اجتماعهم: أذهب بكتاب هذا إليهم، فاخبرهم، إنه كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا

لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب - وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء ابن حيوة - هذا عهدي، فاسمعوا، وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب. قال فبايعوا رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء. قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي براً ملطفاً، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئاً، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي، ألا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله حرفاً واحداً. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لي بك حرمة ومودة قديمة وعندي شكر، فأعلمني أهذا الأمر إليّ؟ فإن كان إلي علمت، وإن كان إلى غيري تكلمت، فليس مثلي قصر به، ولا نحي عنه هذا الأمر، فأعلمني فلك الله لا أذكر اسمك أبداً. قال رجاء: فأبيت وقلت لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسر إلي.

فانصرف هشام وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى من إذا نحيت عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟ فوالله إني لعين بني عبد الملك قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت. قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأت ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء، إن كنت تريد شيئاً أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال فحرفته، ومات، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب، وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه، كيف أصبح فقلت:

نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم. قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحداً. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً. قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت قوموا إلى صحابكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه. قال رجاء: وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع، لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطاه فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، قال فقال عمر: نعم، فإنا لله وأنا إليه راجعون، حين صار إلي - لكراهتي له[١].

وبعد مبايعة عمر بن عبد العزيز بالخلافة صعد المنبر وقال في أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة. قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فوّل أمرنا باليمن والبركة.. أما بعد فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم

(١) تاريخ الطبري، ٤٤٥/٧، الطبقات، ٣٣٥/٥ - ٣٣٨.

القيامة، ألا إني لست بقاض، ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، و إلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا الآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دينه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات.. وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ، ولا في كتابها وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقا. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوال، ثم نزل [(١)].

وكان عمر بن عبد العزيز يرى أن المسئولية والسلطة هي القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة، وقد أحب الإستزاده من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة

(١) البداية والنهاية، ٦٥٧/١٢.

فكتب إلى الحسن البصري يسأله في ذلك فأجابه الحسن: الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم في حياته ويدخرهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البّرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين يربي صغيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد، وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله.

ومن أوضح ملامح خلافة عمر بن عبد العزيز هي رده للمظالم حيث بدأ بنفسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي. وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين، فنظر إلى ما في يديه من أرض، أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه. ونزع حلي سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: كان سيف أبي محلى بفضة فنزعها وحلاه حديداً.

ويروي ابن الجوزي عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة فإذا منادٍ ينادي: الصلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعاً شديداً مخافة أن يكون

قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول: أكِلهم إلى الله؟ قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك، فأذن له - وقد اضطجع للقائه - فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين - فذكر له ما قاله عمر - فقال عبد الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له يا أمير المؤمنين، تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول أكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك بئس وزير الدين أنت يا مزاحم. ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر، فاستأذن عليه، فقال له الآذن: أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبد الملك: استأذن لي، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه - وقد اضطجع عمر للقائلة- فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه. ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني أصلي الظهر، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر.

قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر

مناديك ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادي: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي: اقرأ يا مزاحم، قال - وقد جيء بسفط قبل ذلك، أو قال جرنة - فيها تلك الكتب. قال: فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر - وهو قاعد على المنبر وفي يده جلم - قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتاباً آخر فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه ثم استأنف كتاباً آخر فما زال حتى نودي بصلاة الظهر(١).

ومن بين ما رده عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة، إلى جانب فدك وخيبر، والسويداء، فخرج منها جميعاً إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين وقد جاءت غلتها مائتا دينار. وأما قرية فدك - التي تقع شمال المدينة - فقد كانت تغل في السنة عشرة آلاف دينار تقريباً، فلما ولي عمر الخلافة سأل عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان.. فكتب - بناء على ذلك - إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً قال فيه: أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه، فإذا هو لا يصلح لي، ورأيت أن أردها على ما كنت

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٠٧ - ١٠٨.

عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابي هذا فاقبضها وولها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام. وأما الكتيبة فهي حصن من حصون خيبر.

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب على عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: إفحص لي عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ، من خيبر أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبدالرحمن فقالت: إن رسول الله لما صالح بني أبي الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء فكانت للكتيبة جزءاً منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه في عهد رسول الله، كما أرجع عمر للرجل المصري الذي أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشترها من الربيع بن خارجه الذي كان يتيماً في حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز إشتراء الولي ممن يلي أمره، ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحماً برد المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله.

وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابته شائبة الظلم، أو الشك في خلاص حقه فيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، إنطلاقاً من تمسكه بالزهد، وإيمانه برد المظالم إلى أصحابها تقوى الله، ووضعاً للحق في نصابه، بعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك - وكان لها جوهر - فقال لها عمر:

من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجلعه في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك. قالت له: أفعل ما شئت وفعل ذلك: فمات -رحمه الله - ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه(١).

وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم فقد ثنى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموي، وفور فراغه من دفن بن عمه سليمان بن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله وهو أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التي تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضاً تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد وفوجيء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بينه الله

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٢٩٠ - ٣٠٢.

ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين.

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة في رد المظالم من أفراد البيت الأموي تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموي عن أبيه كشف له أبوه عن سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول أبي يقرئكم السلام ويقول لكم:{قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾} [الزمر: ١٣]. ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدي الأمويين من مظالم، فقال: يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحي فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟ ثم زاد في توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بك وبي القدور، قال وحق هذا منك، قال: نعم والله قال عمر: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني إني لو باهت الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، يا بني، إني أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بي عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي وأن

تعدو منيتي فقد علم الله الذي أريده [(١)].

وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بني أمية، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا.. وها هي الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكي يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب جرد عمر بني أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة، وردها إلى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف، ولا تمضي سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر. انظروا: والله لوددت أن ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ثم يعود كما كان حياً، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها، ولكن بني أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد وكان كبيرهم ونصيحهم، أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصاً لهم لأعمالهم، وشاتماً لمن كان بعدهم من أولادهم ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٢٦٠ - ٢٦٣.

بغير الحق في قرابتك وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتهم بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً فاتق الله يا ابن عبد العزيز وارجعه، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خص محمدًا بما خصه من الكرامة لقد ازددت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك، وهي كذلك، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك، وكان رد عمر حممًا من نار الحق تتفجر في كل كلمة فيها:.. ويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة.. رويدك فإنه لو طالت بي حيـــــاة ورد الله الحـــــق إلـــــى أهلـــــه، تفرغـــــت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم.

ولما أن يأس بنو أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجأوا إلى أسلوب الحوار الهادي، علهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون فيتكلمون معه يوماً مستشيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم: أن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال - أي المال العام - فحقكم فيه كحق أي رجل من المسلمين. والله أني لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله، ودخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما جئت لأعلمك به أنهم يقولون: إستأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك فبأي السجلين آخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فأجاب عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي

وفيما سبقني.

وعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم فقالت: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفح على الدينار إذا احمر تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر فقال: أي عمه أما ترثين لابن أخيك من هذا؟.. إن الله بعث محمداً رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلي وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت: حسبك، قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه وجاء في رواية: إنها قالت لهم:.. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده: فسكتوا[(١)]

---

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١١٧، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٦.

ثم نادي عمر بن عبد العزيز أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه.. وتقدم عدد من الناس بظلامتهم وبيّناتهم وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات، ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصب أرضه فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ قال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً كتعويض له عن نفقات سفره.

وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فردع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى اصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم، وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله :.. من أحيا أرضاً ميتة فهي له، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي[١].

---

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٣٠٧.

كما عمد عمر بن عبد العزيز إلى عزل جميع الولاة والحكام المسؤولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان وصاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق من أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري فقال عمر ابن عبد العزيز: يا خالد ضع هذا السيف عنك، اللهم، إني قد وضعت لك خالد بن الريان اللهم لا ترفعه أبداً، ثم قال لعمرو بن مهاجر: والله؟ إنك لتعلم يا عمرو، إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قربة الإسلام ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة خذ هذا السيف قد وليتك حرسي(١).

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدي في خلاف - دون تحقق شروط القطع - فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل مدينة سنة ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ثم يرد في القيد، فحبس بمصر سنة، ثم فلسطين سنة ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر في عمله، وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد ابن أبي مسلم عن إفريقية وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاد لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان في هذا يكثر التسبيح والذكر ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول: سبحان الله والحمد لله شد يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٥٠.

شر الحالات، فكتب عمر بعزله[1].

وكان الموالي قد تعرضوا قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما منعوا من الهجرة مثلما حدث للموالي في العراق ومصر وخراسان وفي عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالي ظلم عظيم، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرمهم من الهجرة من قراهم وهذا ما دفعهم للاشتراك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجّاج، كما وقع الظلم على الموالي في مصر وخراسان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التي لحقت بهؤلاء الموالي وكتب إلى عماله يقول "..فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها فإن له للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أرضه وداره إنما هي من فيء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للسملمين كانت لهم، ولكنها فيء الله على المسلمين عامة.

وكتب إلى عامله على مصر حيان بن شريح - يقول: وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال:{فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [التوبة: ٥]، وقال:{ قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾} [التوبة: ٢٩]. إلا إن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت

(١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٢ - ٣٣، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٣١٠.

من الحارث بن نابتة عشرون ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل. وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي يضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم - قبح الله رأيك - فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه.

وفي رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل.

ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذي طلب من عمر السماح له في أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة - عبد الحميد بن عبد الرحمن - يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضاً يقول: كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه ذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام.

كما كتب إليه عامله على البصرة - عدي بن أرطأة - يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا في الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه

عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا(١).

ومن المواقف التليدة التي يذكر بها دائماً عمر بن عبد العزيز إقامته العدل لأهل سمرقند فيروي أنه لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان ابن أبي السرّي: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والانصاف، فإذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فإذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قوماً فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند، قد شكوا إليَّ ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة. فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصُّغد: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا(٢).

هذا هو عمر بن عبد العزيز في دولته التي أقامها على العدل

---

(١) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٩٩ - ١٠٠، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص٢٣٣، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٣١٢.
(٢) تاريخ الطبري، ٤٧٢/٧.

وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شئونها فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصِّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[(١)].

وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم في الجور والعدوان والظلم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله[(٢)].

وكتب إلى أبي بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[(٣)].

وحتى الحيوانات نالهن عدله وانصافه ورفع الظلم فقد نهي عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال، فعن عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم الثقال، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدة.

وحين بلغه أن قوماً يحملون على الجمال ما لا تطيق وذلك في مصر كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمائة رطل

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٣.
(٢) الطبقات، ٣٨٣/٥ - ٣٨٤.
(٣) الطبقات، ٣٤٢/٥ - ٣٤٣.

وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه[١].

ولسوء حظ الأمة الإسلامية بل والعالم أجمع أنه لم يدم حكم عمر ابن عبد العزيز، فمرض ومات سريعا ولم يطل مقامه بالخلافة، واختلفت الروايات عن سبب مرضه وموته عمر بن عبد العزيز فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك وكما ذكر ابن سعد، إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته وهو أنه سقي السم وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر بن عبد العزيز التي قامت على العدل وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام ورد المظالم التي كانت في أيديهم وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه[٢].

وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه وليكن ذلك عن طريق خادمه الذي يقدم له الطعام والشراب، فقد روي أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر فشربه ثم حس به منذ أن وقع في بطنه[٣].

(١) محمد شقير، فقه عمر بن عبد العزيز، ٥٧٥/٢، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ٣٢٠.
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز، ٤٣/١.
(٣) ابن الجوزي، سيرة عمر، ص٣١٦، ٣١٧.

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس في؟ قلت: يقولون إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور ثم دعا غلاماً له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال. وقال: أذهب حيث لا يراك أحد.

فالسبب المباشر لمرضه وموته فهو كما ذكرت الروايات كان بسبب سقيه السم(١).

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيتي فيهم:{إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾} [الأعراف: ١٩٦]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ادع لي بني، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم - وبكى -: يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى أخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلي، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله. وجاء في

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، ٤٤/١.

رواية: أن عمر وصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون مما يلي إدخاله في لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأي منزل تركتني، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا فقال له مسلمة: هذه مائة ألف دينار، فأوصي فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير والله لقد ألنت قلوباً قاسية، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين[1].

وتوفي الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ) على أصح الروايات واستمر معه المرض عشرين يوماً وتوفي بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيا م وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر وعلى أصح الروايات وكان عمره لما توفي أربعين سنة[2].

ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز:

قال مسلمة بن عبد الملك حين توفي عمر ورآه مسجى: يرحمك الله لقد لينت لنا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً[3].

قال وهيب بن الورد: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر: كيف كانت حاله في بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكني والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً

(١) ابن عبد الحكم، سيرة عمر، ص١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٢٣.
(٢) تاريخ القضاعي، ص٣٦٣، الصلابي، الدولة الأموية، ٤ / ٢٣٥.
(٣) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٢٩.

لله من عمر، والله إن كان ليكون من المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم يشجب، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه فأطرح اللحاف عني وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[١].

لما أتى الحسن البصري موت عمر بن عبد العزيز قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير[٢].

وقال مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

وقال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر ابن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما[٣].

عن الأوزاعي قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل قال: فقلت له: نعم فأرخى عينيه فبكى سجاماً، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[٤].

وكان عمر بن عبد العزيز قد بعث وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه والبطارقة على

(١) الصلابي، الدولة الأموية، ٤ /٣١٠.
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز، ٥٣/١.
(٣) صفة الصفوة، ١٥٦/٣.
(٤) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٣١.

يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا قال: إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم أو له؟ قالوا: نبكي لا نفسنا ولديننا وله قال: لا تبكوا له، وأبكوا لا نفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً و ظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً [(١)].

ما قيل فيه من رثاء:

أ - كثير عزّة قال فيه:

عمّت صنائعه فعم هلاكه ::: فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد ::: في كل دار رنّة وزفير
يثني عليك لسانك من لم توله ::: خيراً لأنك بالثناء جدير
ردَت صنائعه عليه حياته ::: فكأنه من نشرها منشور

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، ١/٥٤.

وقال جرير:

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ::: يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به ::: وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة ::: تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقال محارب بن دثار:

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ::: لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ::: كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ::: على العدول التي تغتالها الحفر
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهداً ::: سقيا لها سنن بالحق تفتقر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ::: تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر[1]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وأعلى ذكره في المصلحين فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التي سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا وما ذلك على الله بعزيز في جيلنا أو في غيره [2].

مواقف من حياته ـ رضي الله عنه ـ:

إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا:

وكتب حيان عامل مصر الى عمر بن عبد العزيز إن الناس قد أسلموا فليس جزية فكتب إليه عمر أبعد الله الجزية إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا للجزية [3].

(١) البداية والنهاية، ٧١٨/١٢.
(٢) الصلابي، الدولة الأموية، ٤/ ٤٥٠ ـ ٤٥٥ بتصرف كبير.
(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص٩٦.

اختبره ونفاه:

وقدم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فأكرمه وأحسن ضيافته. فبلغه أنّه زانٍ فأراد أن يختبر ذلك، فقال لجاريةٍ له: انطلقي إلى الفرزدق، وعمر في حجرةٍ له ينظر ما يصنع الفرزدق، فأتته الجّارية بالغسل والدّهن، وذهبت لتغسل رأسه، فوثب عليها فركضته وقالت: لعنك الله من شيخ. ثمّ خرجت فأتت عمر فأخبرته فنفاه من المدينة. وقال جرير:

نفاك الأعزّ بن عبد العزيز ::: وحقّك تنفى من المسجد

فقال الفرزدق:

فأوعني وأجلّني ثلاثاً ::: كما وعدت بمهلكها ثمود (١)

خبثاً كله:

قال الأصمعي: وفد فلان بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز وهو بحاضرة، فلزم سارية من المسجد يصلي إليها بحسن الركوع الخشوع وعمر بن عبد العزيز ينظر إليه فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصاً بعمر. فقال له العلاء بن المغيرة: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال له اشفع صلاتك فإن لي حاجة فلما سلم من صلاته قال له العلاء تعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين فإني أن أشرت عليك أني وليك العراق ما تجعل لي قال عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ومائة ألف. قال فاكتب لي على ذلك خطاً فقام من وقته فكتب له خطاً بذلك فحمل ذلك الخط إلى عمر ابن عبد العزيز فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والياً على الكوفة:

---

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٥٣.

أما بعد فان بلال غرنا بالله فكدنا نغتر به ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله [(١)].

الشعراء على باب عمر بن عبد العزيز:

عن عوانة بن الحسك، قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، الرحيل، إذ مر بهم رجاء ابن حيوة. وكان من خطباء أهل الشام فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخي عمامته ::: هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عدي بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ::: هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ::: أني لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقيت مغفرةً ::: قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي! ما لي وللشعر، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله قد امتدح فأعطى، ولك في رسول الله أسوت حسنة، فقال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

رأيتك يا خير البرية كلها ::: نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ::: عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً ::: وأطفأت بالبرهان ناراً تضرما

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص ٢٥.

فمن مبلــغ عــني الــنبي محمــداً ::: وكل امرئ يجزى بما كــان قــدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجــه ::: وكان قــديماً ركنــه قــد تهــدما
تعالى علواً فــوق عــرش إلهنــا ::: وكان مكان الله أعلــى وأعظمــا

قال ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتـــها فهبـــت كعابـــاً ::: طفلة مــا تــبين رجــع الكــلامِ
ســـاعة ثم إنهـــا بعـــد قالـــت ::: ويلتا قد عجلت يا ابــن الكــرامِ
أعلى غير موعدٍ جئــت تســري ::: تتخطـــى إلي روس النيـــامِ
ما تجشمت مــا يــزين مــن الأم ::: رِ ولا جئـــت طارقــاً لخصـــامِ

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم نفسه، لا يدخل علي والله أبداً، فمن بالباب سواه؟ قال: همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أوليس هو الذي يقول:

هما دلتـــاني مـــن ثمـــانين قامـــةً ::: كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسرُهُ
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ::: أحـــي يرجـــى أم قتيـــل نحـــاذره

لا يطأ والله بساطي، فمن سواه بالباب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أليس هو الذي يقول:

ولست بصـــائم رمضـــان طوعـــاً ::: ولسب بآكـــل لحـــم الأضـــاحي
ولســـت بزاجـــر عنســـاً بكـــور ::: إلى بطحـــاء مكـــة للنجـــاح
ولســـت بقـــائم كـــالعير يـــدعو ::: قبيل الصبح حي علـــى الفـــلاح
ولكـــني سأشـــربها شمـــولاً ::: وأسجد عنـــد منـــبلج الصـــباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نعم الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

الله بـــيني وبـــين ســـيدها ::: يفـــر مـــني بهـــا وأتبعـــه

غرب عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قال:

جميل ابن معمر قال: يا عدي هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيـا جميعـاً وإن تمـت ::: يوافق في موتي ضـريحي ضـريحها
فما أنا في طول الحيـاة براغـبٍ ::: إذا قيل قد سوي عليها صـفيحها

فلو كان عدو الله تمنى لقائها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا يدخل علي أبداً، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما إنه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب ولـيس ذا ::: حين الزيـارة فـارجعي بسـلامِ

فإن كان لا بد فهو، قال فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:

إن الـذي بعـث الـنبي محمـداً ::: جعل الخلافة في الإمـام العـادلِ
وسع الخلائـق عدلـه ووفـاؤه ::: حتى ارعوى وأقـام ميـل المائـلِ
إني لأرجو منـك خـيراً عـاجلاً ::: والنفس مولعـة بحـب العاجـلِ

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقولن إلا حقاً، فأنشأ جرير يقول:

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلـت ::: أم قد كفاني ما بلغت من خـبري
كم باليمامة مـن شـعثاء أرملـةٍ ::: ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدّك تكفـي فقـد والـده ::: كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعة ملـهوفٍ كـأن بـه ::: خبلاً من الجن أو مساً من النشـرِ
خليفـة الله مـاذا تـأمرون بنـا ::: لسنا إلـيكم ولا في دار منتظـر
ما زلت بعـدك في هـم يـؤرقني ::: قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهـود بادينـا ::: ولا يعود لنا بـادٍ علـى حضـر
إنا لنرجو إذا ما الغيـث أخلفنـا ::: من الخليفة ما نرجو مـن المطـر
نال الخلافة إذ كانت لـه قـدراً ::: كما أتى ربه موسى علـى قـدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتـها ::: فمن لحاجةٍ هذا الأرمـل الـذكر
الخير ما دمـت حيـاً لا يفارقنـا ::: بوركت يا عمر الخيرات من عمرِ

فقال: يا جرير! ما أرى لك هاهنا حقاً، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا ابن سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال له: ويحك يا جرير! لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، قال: فأخذها وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إلي، قال: ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني لراض، وأنشأ يقول:

رأيت رقي الشيطان لا تستفزه ::: وقد كان شيطاني من الجن راقيا

الفرزدق يؤجل ثلاثاً:

قال عمرو بن خالد العماني: قدم الفرزدق المدينة في سنةٍ جدبةٍ حصباء، فمشى أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أميرها فقالوا له: أصلح الله الأمير، إن الفرزدق قدم مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة التي قد خلت أموالها، وليس عند أحدٍ منهم ما يعطيه، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه وتقدم إليه ألا يعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء، قال: فبعث إليه عمر بن عبد العزيز، فقال: يا فرزدق! إنك قدمت مدينتنا في هذه السنة الجدبة، وليس عند واحد منا ما يعطي شاعراً، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم، فخذها ولا تعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء.

قال: فأخذها الفرزدق ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان وهو جالس في سقيفة داره وعليه مطرفٌ وعمامة خز حمراء وجبة خز حمراء، فقال:

أعبد الله أنت أحق ماشٍ ::: وساعٍ بالجماعير الكبار
فللفاروق أمك وابن أروى ::: أبوك وأنت منصدع النهار

هما قمـر السـماء وأنـت نجـمٌ ::: به في الليـل يـدلج كـل سـار

قال: فخلع عليه جبته والمطرف والعمامة ودعا له بعشرة آلاف درهم. قال: فخرج رجلٌ كان عند عبد الله بن عمرو بن عثمان، وقد حضر الفرزدق عندما أعطاه عمر بن عبد العزيز وتقدم إليه فأخبر عمر ابن عبد العزيز الخبر، فبعث إليه عمر: ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء، اخرج فقد أجلتك ثلاثاً، فإن وجدتك بعد ثلاث نكلت بك، قال: فخرج الفرزدق وهو يقول:

أأوعـدني وأجلـني ثلاثـاً ::: كما وعـدت لمهلكهـا ثمـود؟

يتخلص من الولاية ببيت شعر:

قال العتبي: ولى عمر بن عبد العزيز رجلاً فكره الولاية، فكتب إلى عمر: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين، أما بعد:

فاسـقني شـربةً ألـذ عليهـا ::: ثم عـد مثـل شـربتي لهشـام

فكتب إليه عمر: اعتزل عملي، فاعتزل ثم كتب إليه:

عسـلاً سـائلاً ومـاءً قراحـاً ::: إنـني لا أحـب شـرب المـدام

فكتب إليه عمر: عد إلى عملك، فكتب إليه: لا حاجة لي في عملكم.

عفة جرير وفجور الفرزدق:

حدث إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي: أن جريراً قدم على عمر ابن عبد العزيز وهو يتولى المدينة، فأنزله في دارٍ وبعث إليه بجارية تخدمه، فقالت له: إني أراك شعثاً فهل لك في الغسل؟ فجاءته بغسل وماء، فقال: تنحي عني ثم اغتسل.

ثم قدم الفرزدق فأنزله داراً وبعث إليه بجاريةٍ فعرضت عليه

مثل ذلك، فوثب عليها فخرجت إلى عمر، فنفاه عن المدينة وأجله ثلاثاً، ففي ذلك يقول:

توعـــدني وأجلـــني ثلاثـــاً ::: كمـــا لبثـــت لمهلكهـــا ثمـــود

وبلغ ذلك جريراً، فقال:

نفاك الأغر ابـــن عبـــد العزيـــز ::: بحقـــك تنفـــى عـــن المســـجد
وشبهت نفســـك أشـــقى ثمـــود ::: فقـــالوا: ضـــللت ولم تهتـــد
وقد أخروا حين حـــل العـــذاب ::: ثـــلاث ليـــالٍ إلى الموعـــد

بين بني هاشم وبني أمية:

حدثنا محمد بن يحيى الصولي قال حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال حدثنا عبد الله بن عائشة عن جويرية قال، قال عمر بن عبد العزيز: ما زلنا نحن وبنو عمنا من بني هاشم مرةً لنا ومرةً علينا، نلجأ إليهم ويلجأون إلينا حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق وأخرست كل ناطق.

قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر:

وروي في الخبر أنه قيل لا بن عمر بن عبد العزيز: ما رأيت رجلاً أكرم من أبيك، سمرت معه ذات ليلةٍ فخفت المصباح، فقام إليه فأصلحه، فقلت له: يا أمير المؤمنين هلا أمرت بإصلاحه، فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

حكاية غريبة عن توسط عمر بن عبد العزيز لدى يزيد بن المهلب:

قال ابن الكوفي وكان بشر بن مروان قد ادخر وهو على العراق عن ابنه عبد الملك وعن عيينة بن أسماء من غلات أراضيهم مالاً عظيماً، فلما ولي الحجاج أخرج تلك البقايا فوجد ما على عبد الملك

وعيينة بن أسماء فقال: وما على بشرٍ أن يهب من مال الله تعالى لابنه وختنه هذا وأكثر منه، والله لآخذنهما به أخذ الضب ولده، وطالبهما فريثاه حتى هلك فلحقا بالشام فنزلا على عمر بن عبد العزيز فقالا له: إن بشراً كان أطعمنا شيئاً كثيراً من غلاتنا فبسطنا فيه أيدينا، وإن الحجاج بسفهه وخرقه وظلمه أخرج علينا ثم أخذنا به، فلم نزل نخدعه عن أنفسنا حتى هلك، فكلم أمير المؤمنين في هبة ذلك لنا، فضحك عمر وقال: لست أثق لكما بكلامي، ولكن لكما عندي رأي فيه نجاح طلبتكما، قالا: فادللنا عليه، قال: نمشي إلى يزيد بن المهلب فإما أن يحملها من ماله، وإما أن يعيننا على سليمان فيهبها لكما، ولا والله ما كنت لأمشي إلى عربي على الأرض غيره ليس من ولد مروان. ثم أتوا يزيد فقال له عمر: إن أتيناك زواراً وهذان من قد عرفت، فلا تنظرن إلى جرم أبو يهما عند أبيك، فضحك يزيد وقال: عفا الله عنك يا أبا حفص، أرجع في ذنبٍ قد غفره أبي قبلي؟! والله ما عجز عن مكافأتهما في حياته ولا أوصاني بالثأر من بعده، فإنهما لأخواي وصاحباي، هاتوا حاجتكم، فقال عمر: إن الحجاج أخرج عليهما مما كان بشر ترك لهما من غلاتهما ألف ألف وخمسمائة ألف فما ترى؟ قال: رأيكم فاحتكموا، قال: تحمل منها ما شئت قال: علي نصفها، والمطلب إلى أمير المؤمنين في بقيتها، فإن حملته عني وإلا حملته، فقال عبد الملك بن بشر: والله ما ظلم الناس أن زعموا أنك سيدهم. ثم خرجوا وعمر يقول: ما رأينا مثل هذا العراقي في وطأته فعل قبلها مثلها، ثم حمل عن القيسيين وعن يزيد بن عاتكة، وهذه ألف ألف وخمسمائة ألف. ثم ركب يزيد إلى سليمان فدخل عليه وعنده جماعة من وجوه أهل اليمن فقام فقال: يا أمير المؤمنين، فقال له سليمان:

أمسك، وأبيك إنك لقادر على خلواتي، اجلس، فقال يزيد: ما قمت لأجلس فأذن لي في الكلام، فقال: هات، فأخبره بمجيء عمر إليه وقال: قد حملت النصف وضمنت عليك الباقين والله يا أمير المؤمنين إن مقامي بالشام لمن تمام نعمة الله علي بأمير المؤمنين، إنه لم يعمد إلي أحد في حاجة إلا قضاها الله بك يا أمير المؤمنين على يدي، فقال سليمان: قد وهبنا ذلك كله لك، فلك حمده وعلينا غرمه.

عمر بن عبد العزيز يرد المظالم:

عن أبو محمّد الشامي قال: كنت غلاماً في خلافة عمر بن عبد العزيز، فلمّا أخذ عمر في ردّ المظالم غلظ ذلك على أهل بيته وعلى جميع قريش، فكتب إليهم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام:

فأبلغ هشاماً والّذين تجمّعوا ::: بدابق لاسلمتم آخر الدهر

ويروي:

فقل لهشامٍ والّذين تجمّعوا ::: بدابق موتوا لا سلمتم يد الدّهر
فأنتم أخذتم حتفكم بأكفّكم ::: كباحثةٍ عن مديةٍ وهي لا تدري
عشيّة بايعتم إماماً مخالفاً ::: له شجنٌ بين المدينة والحجر

فأجابه بعض ولد مروان عن هشام بن عبد الملك:

لئن كان ما تدعو إليه هو الردى ::: فما أنت فيه ذو غناء ولا وفر
وأنت من الريش الذنابى ولم تكن ::: من الجزلة الأولى ولا وسط الظهر
ونحن كفيناك الأمور كما كفى ::: أبونا أباك الأمر في سالف الدّهر[1]

قم فأنت حر لوجه الله تعالى!

جنى عبد أسود على عمر بن عبد العزيز رحمه الله في عنفوان

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٢٥، ١٣٢، ١٣٨، ١٤٩، ٣٠٢، ٣٧٤، ٣٨٨، ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٤٠.

حداثته جناية ليضربه فقال له: يا مولاي! لم تضربني؟ قال: لأنك جنيت كذا وكذا. فقال العبد: هل جنيت أنت جناية قط فغضب عليك مولاك؟ قال: نعم! قال: فهل عجل عليك؟ فقال له: قم فأنت حر لوجه الله تعالى! فكان ذلك سبب توبته.

أخمد بحلمك ما أذكاه ذو سفه ::: من غيظك واصفح إن جنا جاني
الحلم أفضل ما ازدان اللبيب به ::: والأخذ بالعفو أحلى ما جنا جاني [1]

ما في واحد من هؤلاء خير:

وسأل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان. فقال له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، و يحسد أمه، وينافس أباه، ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

وأنا مولى:

وأراد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مكحولاً على القضاء، فأبى عليه. قال له: وما يمنعك؟ قال مكحول: قال رسول الله : لا يقض بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى.

حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم:

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم.

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٢٤.

صفة الإمام العادل:

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين

الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر يا أمير المؤمنين " إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور "، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك مع أوزارك، وتحمل أثقالك مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. و لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

واعلم أنك لست أول خليفة:

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا علي. فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً، فبر أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال له

محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك لست أول خليفة.

لا تعجل يا بني:

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت؛ ما لك لا تنفذ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور. فقال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه وتكون فتنة.

فاذكر قدرة الخالق عليك:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك.

فمرهم بذلك:

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً. فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك.

فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان:

وكتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النعم، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى:{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥]. فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.

أعظم بـركة منها:

قال دكين بن رجاء الفقيمي الراجز: مدحت عمر بن عبد العزيز، وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعاباً، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنشر علي، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة؛ فقلت: إني لم أودع الأمير ولا بد من وداعه؛ قالوا: فإن الأمير لا يحجب عن طارق ليل؛ فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما؛ فقال لي: يا دكين، إن لي نفساً تواقة، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا في فبعين ما أرينك؛ قلت: أشهد لي بذلك أيها الأمير؛ قال: إني أشهد الله؛ قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشيخين؛ قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله؛ فقلت: لقد استسمنت الشاهد؛ وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير، وكان مزاحم يكنى أبا يحيى. قال دكين: فخرجت بهن إلى بلدي فرمى الله في أذنابهن بالبركة، حتى اتخذت منهن الضياع والربع والغلمان، فإني لبصحراء فلج إذا بريد يركض إلى الشام، فقلت له: هل من مغربة خبر قال: مات سليمان بن عبد الملك؛ قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنخت قلوصي، فألقيت عليها أداتي وتوجهت عنده، فلقيت جريراً في الطريق جائياً من عنده، فقلت: من أين يا أبا حزرة؟ قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء؛ قلت: فما ترى، فإني خرجت إليه؟ قال: عول عليه في مال ابن السبيل، كما فعلت. فانطلقت فوجدته قاعداً على كرسي في عرصة داره قد أحاط الناس به، لم أجد إليه سبيلاً للوصول، فناديت بأعلى صوتي:

يـــا عمـــر الخـــيرات والمكـــارم ::: وعمـــر الدســـائع العظـــائم
إني امـــرؤ مـــن قطـــن بـــن دارم ::: أطلب حاجي من أخـــي مكـــارم
إذ ننتجـــي والله غـــير نـــائم ::: في ظلمـــة الليـــل وليلـــي عـــاتم

عنـــد أبـــي يحيـــى وعنـــد سالـــم

فقام أبو يحيى، ففرج لي وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدوي عندي شهادة عليك؛ قال: أعرفها، ادن مني يا دكين، أنا كما ذكرت لك أن لي نفساً تواقة، وأن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا؛ فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما؛ فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركة منها.

وفود كثير والأحوص على عمر بن العزيز رضي الله عنه:

قال حماد الراوية: قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنه سيشر كنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب؛ فسلمنا، فرد، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك، ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يك ذو دين بنى مروان قد ولي وخشيتم حرمانه، فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزول عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أني دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأيا، ففعلت. فكان مما حفظت

من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه. ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرج من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري وليس بدنيوي. إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للعامة، فلما دخلت سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب؛ قال: يا كثير: {إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ} [التوبة: ٦٠]، أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال: ألست ضيف أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاء؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً، فقلت:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ::: برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي ::: أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما الفتى بعد زيغة ::: من الأود البادي ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ::: تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ::: وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ::: سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها في ممنع ::: ومن بحرها في مزبد الموج مفعم

وما زلت تواقاً إلى كل غاية ::: بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ::: لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقا ::: وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وشمرت للذي ::: أمامك في يوم من الهول مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانع ::: سوى الله من مال رغيب ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق ::: بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ::: مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني ::: بأخذ للدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ غير مجرم ::: ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ::: لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فأربح بها من صفقة لمبايع ::: وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال: فأقبل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت. ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد؛ فقال: قل ولا تقل إلا حقاً؛ فقال:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف ::: بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ::: ولا ترجعنا كالنساء الأرامل
رأيناك تعدل عن الحق يمنة ::: ولا شأمة فعل الظلوم المخاتل
ولكن أخذت الحق جهدك كله ::: وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ::: ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه ::: على فوقه إذ عار من نزع نابل
ولولا قد عودتنا خلائف ::: غطاريف كانوا كالليوث البواسل
لما وخدت شهراً برحلي شملة ::: تقدمون البيد بين الرواحل
ولكن رجونا منك مثل الذي به ::: حبينا زماناً من ذويك الأوائل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع ::: وإن كان مثل الدر من نظم قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه ::: سوى أنه يبنى بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة ::: وميراث آباء مشوا بالمناصل

فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم ::: وأرسوا عمود الدين بعد التمايـــل
وقبلك ما أعطـــى الهنيـــدة جلـــة ::: على الشعر كعباً من سديس وبازل
رسول الإلــه المستضـــاء بنـــوره ::: عليه سلام الضـــحى والأصـــائل

فقال: إنك مسؤول عما قلت، قم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد، فلم يأذن له، وأمره بالغزو إلى دابق، فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلاثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنصيب بمائة وخمسين[1].

أعطي صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً :

ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الـــدر زان حســـن وجـــوه ::: كان للدر حسن وجهـــك زينـــا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أعطي صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً.

فألقى عمر رأسه على صدره:

حدث العتبي عن سفيان بن عينية قال: قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوش للكلام، فقال: أكبروا أكبروا؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسن، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من أهو أسن منك؛ فقال عمر: صدقت رحمك الله تكلم؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك؛ قال: فما أنتم؟

(١) العقد الفريد، ١ /١٢٠.

قال: وفد الشكر؛ قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم، فألقى عمر رأسه على صدره.

أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتمنا ثم انصرف!

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أمية كان له أخوال في بني مرة: قبح الله شبهاً غلب عليك من بني مرة. فبلغ ذلك عقيل بن علفة، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام: بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مرة، فقلت: قبح الله شبهاً غلب عليك من بني مرة، وأنا أقول قبح الله ألأم الطرفين، ثم انصرف. فقال عمر بن عبد العزيز: من رأى أعجب من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتمنا ثم انصرف؟ فقال له رجل من بني مرة: والله يا أمير المؤمنين ما شتمك وما شتم إلا نفسه وقومه، نحن والله ألأم الطرفين.

صدق:

واستعمل عمرُ بن عبدِ العزيز رجلاً، فقيل له: إنه حَدِيث السنّ ولا نراه يَضْبط عملك؛ فأخذ العهدَ منه وقال: ما أُراك تَضبط عملك لحداثتك؛ فقال الفتى:

وليس يَزيد المرءَ جهلا ولا عَمــى ::: إذا كان ذا عَقْــل حداثــةُ سِــنَهِ

فقال عمرُ: صدق، ورَدَّ عليه عهدَه.

انصرفْ إذا شئت:

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العَزيز بعضَ ما يَكْره، فقال؛ لا عليك، إنّما أردتَ أن يَسْتِفزَّني الشيطانُ بعزة السلطان، فأنال منك

اليوم ما تنالُه مني غداً، انصرفْ إذا شئت.

وقال الشاعرُ في هذا المعنى:

لَنْ يدْرك المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمــوا ::: حتى يَــذِلُوا وإن عَــزُوا لأقــوام
ويُشْتَموا فترَى الألــوانَ كَاســفَةَ ::: لا ذلَ عَجْزٍ ولكــنْ ذُلِّ أحْــلام

ولآخر:

إذا قِيلت العوراءَ أغضــى كأنّــه ::: ذَلِيل بلا ذُلّ ولو شــاء لانتصــرْ

وأحسن بيْت في الحِلْم قولُ كَعْب بن زُهير:

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهل والخَنَى ::: أصبتَ حَليماً أو أصابك جاهــلُ

أنا واحد وأنتم جماعة:

وقال صاحبُ حَرس عمر بن عبد العزيز: خرج علينا عمرُ في يوم عِيد وعليه قميصُ كتَّان وعِمامة؛ على قلنسوة لاطئة، فقمْنا إليه وسَلّمنا عليه؛ فقال: مَه، أنا واحدٌ وأنتم جماعة، السلامُ عليّ والردُّ عليكم. ثم سلّم ورَددنا عليه ومشى، فمشينا معه إلى المسجد.

فلا تَعُد إلينا:

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز يَعوده في مرضه، فسأله عن علته، فلمّا أخبره قال: من هذه العلة مات فلان ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدت المَرْضى فلا تَنْعَ إليهم الموْتى، وإذا خرجتَ عَنّا فلا تَعُد إلينا.

فكأنَ آخر من كُتِبَ عليه الموت قد مات:

وكتب الحسنُ إلى عُمَر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكُن، وبالآخرة لم تَزَل. والسلام. وكتب إليه عُمر: أما بعد، فكأنّ آخر من كُتِبَ عليه الموت قد مات، والسلام.

اكتفى باليَسِير:

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حَيْوة: أما بعد، فإنه مَن أكثر من ذِكْر الموت اكتفى باليَسِير: ومن عَلِمَ أن الكلامَ عملٌ قلَّ كلامهُ إلا فيما يَنْفَعه.

ما بلَغ بك ما أرى!

ودَخل قوم على عُمر بن عبد العزيز يَعودونه في مَرضه، وفيهم شابٌّ ذابل ناحِل. فقال له عُمر: يا فتى، ما بَلَغ بك ما أرى؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، أمراضُ وأسقام. قال له عمر: لَتَصْدُقَنِّي. قال: بلى يا أمير المؤمنين، ذُقت يوماً حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مُرَّةً عواقبها، فاستوى عندي حَجَرُها وذَهَبُها، وكأنِّي أنظر إلى عَرْش ربِّنا بارزاً، وإلى الناس يُسَاقون إلى الجنة والنار، فأظمأتُ نَهاري، وأسْهَرْتُ ليلي، وقليلٌ كلُّ ما أنا فيه في جنْب ثواب الله وخوف عقابه.

لأن يكون ما تُحب أحبّ إليّ من أن يكون ما أحِب:

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بُني؟ قال: أجِدُني في الموت فاحْتَبِسني، فإنّ ثوابَ الله خيرٌ لك منّي؛ قال: واللّه يا بُني لأن تكون في ميزاني أحب لي أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحب أحبَّ إليّ من أن يكون ما أحِب.

وجعلت لنا في الصالحين ذِكْراً:

لما احتضر عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله استأذن عليه مَسْلمة بنُ عبد الملك، فأذِن له وأمره أن يُخفِّف الوَقفة، فلما دخل وقف عند رأسه فقال: جَزاك الله يا أميرَ المؤمنين عنّا خيراً، فلقد ألنت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذِكْراً.

لو دعوتُك أجبْتني:

وَقفَ عمرُ بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رَحمك الله يا بُنيّ، فلقد كنت سارًّا مولوداً بارًّا ناشئاً، وما أَحْسِب أنّي لو دعوتُك أجبْتني.

واللّه سائلك عن مَقامي هذا:

أتي أعرابيّ عُمَرَ بن عبد العزيز فقال: رجلٌ من أهل البادية سَاقته إليك الحاجة، وبَلغت به الغاية، واللّه سائلك عن مَقامي هذا. فقال عمر: ما سمعتُ أبلغ مِن قائل، ولا أوْعظ لمُقول له من كلامك هذا.

فأذا كتبت إليك فنفّذ ولا تَردّ عليّ :

كان عمرُ بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامِله على المدينة في المظالم فيُرادّه فيها. فكتب إليه: إنه يُخيل لي أني لو كتبتُ لك أن تُعطِيَ رجلاً شاة لكتبت إلى: أذكر أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبت إلي: أصغيرة أم كبيرة؟ ولو كتبتُ بأحدهما لكتبتَ: ضائنة أم معز؟ فإذا كتبت إليك فنفّذ ولا تَردّ عليّ. والسلام.

إني أخافُ إن عصيت ربي عذابَ يوم عَظيم:

قال العُتبي: لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دَفن سُليمان بن عبد الملك تَبعه الأمويون، فما دَخلوا إلى منزله، قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال وما يريدون؟ قال: ما عَوَّدتْهم الخلفاءُ قبلك. قال ابنُه عبدُ الملك، وهو إذ ذاك ابنُ أربعَ عشرة سنة: ائذن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تُبلغهم؟ قال: أقول: أبي يُقرئكم السلام ويقول لكم: إني أخافُ إن عصيت ربي عذابَ يوم عَظيم.

واقذفوا بهم في النار جميعاً:

قال العتبي: سمعت أبا عبد الرحمن بشراً يقول: كان في زمن المهدي رجل صوفي، وكان عاقلاً عالماً ورعاً، فتحمق ليجد السبيل

إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين: الإثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة. فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلى صوته: ما فعل النبيون والمرسلون، أليسوا في أعلى عليين؟ فيقولون: نعم. قال: هاتوا أبا بكر الصديق. فأخذ غلام فأجلس بين يديه، فيقول: جزاك الله خيراً أبا بكر عن الرعية. فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع، ونزعت فيه إلى أوثق عروة وأحسن ثقة، اذهبوا به إلى أعلى عليين. ثم ينادي: هاتوا عمر. فأجلس بين يديه غلام. فقال: جزاك الله خيراً أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسعت الفيء، وسلكت سبيل الصالحين، وعدلت في الرعية وقسمت بالسوية، اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر. ثم يقول: هاتوا عثمان. فأتي بغلام فأجلس بين يديه. فيقول له: خلطت في تلك الست السنين، ولكن الله تعالى يقول:{خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ} [التوبة: ١٠٢]. وعسى من الله موجبة. ثم يقول: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين. ثم يقول: هاتوا علي بن أبي طالب. فأجلس غلام بين يديه. فيقول: جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن، فأنت الوصي وولي النبي، بسطت العدل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفيء، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر وأنت أبو الذرية المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عليين من الفردوس، ثم يقول: هاتوا معاوية. فأجلس بين يديه صبي. فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وحجر بن الأدبر الكندي الذي أخلقت وجهه العبادة، وأنت الذي جعل

الخلافة ملكاً، واستأثر بالفيء، وحكم بالهوى، واستنصر بالظلمة، وأنت أول من غير سنة رسول الله ، ونقض أحكامه، وقام بالبغي. اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة، ثم قال: هاتوا يزيد. فأجلس بين يديه غلام. فقال له: يا قواد، أنت الذي قتلت أهل الحرة، وأبحت المدينة ثلاثة أيام، وانتهكت حرم رسول الله ، وآويت الملحدين، وبؤت باللعنة على لسان رسول الله ، وتمثلت بشعر الجاهلية:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ::: جزع الخزرج من وقع الأسل

وقتلت حسينا، وحملت بنات رسول الله سبايا على حقائب الإبل، اذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار. ولا يزال يذكر والياً بعد وال حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز فقال: هاتوا عمر. فأتى بغلام، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله يا عمر خيراً عن الإسلام، فقد أحييت العدل بعد موته، وألنت القلوب القاسية، وقام بك عمود الدين على ساق، بعد شقاق ونفاق. اذهبوا به فألحقوه بالصديقين. ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين. قال: بلغ أمرنا إلى بني هاشم، ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.

أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك!

ودخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه عمر، وهو ينام نومة الضحى، فقال: يا أبت، أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ قال: يا بني، إن نفسي مطيتي، فإن أنضيتها قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية [1].

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٥، ٨، ٩، ١١، ٢٤، ٣٦، ٧٩، ١٣٣، ١٣٥، ١٥١، ١٧٠، ١٧٩، ٢٣٣، ٢٣٨، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٧، ٣٤٠، ٣٤٦، ٣٧٤، ٤٢٩، ٢/٥، ٢/٦، ٧، ١٦١، ٤٤٩، ٣/٣٢.

فلعل الساعة قريبة:

دخل أبو حازم على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: عظني فقال: اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك في تلك الساعة، فخذ به الآن: وما تكره أن يكون فيك في تلك الساعة فدعه الآن، فلعل الساعة قريبة.

هذا صوت رحمته:

كان عمر بن عبد العزيز واقفا مع سليمان بن عبد الملك أيام خلافته، فسمع صوت رعد ففزع منه ووضع صدره على مقدم رحل، فقال له عمر: هذا صوت رحمته، فكيف صوت عذابة [1].

ولا تخرجه من حسن رأيك:

وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم، فعزله عن شرطة الكوفة، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: إن من حفظ أنعم الله، رعاية ذوي الإحسان؛ ومن إظهار شكر الموهوب، صفح القادر عن الذنب، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع، واستتمام الصنائع. وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك، فسلبتها عجلة سخطك، وأنصفته عصبته، على أن وليته ثم عزلته وخليته، وأنا شفيعه؛ فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه، ولا تخرجه من حسن رأيك، فتضيع ما أودعته وتتوى ما أفسدته. فعفا عنه، ورده إلى عمله.

---

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١ / ١٩٤،
٢/٤٩، ١٦٢،.

مصيبتي فيك زادتني إلى مصيبتي مصيبة:

قيل: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، جزع أبوه عليه جزعاً شديداً، فقال ذات يوم لمن حضره: هل من منشد شعراً يعزيني به أو واعظ يخفف عني فأتسلى به؟ فقال رجل من أهل الشام: يا أمير المؤمنين كل خليل مفارق خليلة بأن يموت أو يذهب إلى مكان، فتبسم عمر بن عبد العزيز وقال: مصيبتي فيك زادتني إلى مصيبتي مصيبة [١].

فلا أغمس فيها لساني:

وقيل إنه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، جماعةٌ من أهل العلم فذكروا علياً، رضي الله عنه، وعثمان وطلحة والزبير، رضي الله عنهم أجمعين، وما كان بينهم فأكثروا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أقول شيئاً، تلك دماءٌ طهر الله منها كفّي فلا أغمس فيها لساني.

أين عمر بن عبد العزيز!

وعن مزاحم مولى فاطمة قالت: كنت مع عمر بن عبد العزيز وهو نائم فانتبه وقال: يا فاطمة لقد رأيت رؤيا ما رأيت أحسن منها. قلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين. قال: حتى أصبح. قال: فجاء المنادي فناداه بالصلاة فقام فصلّى بالناس الفجر ثم رجع إلى مجلسه. فأتيته فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني بالرؤيا. فقال: رأيت كأني في أرض خضراء لم أر أرضاً أحسن منها، ورأيت في تلك الأرض قصور زبرجد ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر، فبينا أنا

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، ١ / ١٢، ١١٣.

كذلك إذ نادى مناد من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي، ، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! إنا في ملإ فيهم رسول الله، ، ولم أسلّم عليه! فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر، رحمه الله، فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله! إنا في جمع فيهم أبي ولم أسلّم عليه! فما لبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان، رحمه الله، فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام عليّ فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقمت فدخلت فرأيت النبي، ، قاعداً ورأيت أبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعثمان وعلياً بين يديه، فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب أبي، قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب، فرأيت فيما بين النبي، ، وأبي بكر شاباً حسن الوجه، فقلت: يا أبة من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قال: فما لبثت إلا قليلاً حتى سمعت منادياً ينادي: يا عمر بن عبد العزيز اثبت على ما أنت عليه. قال: ثم قمت فخرجت فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ عثمان وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني. ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي غفر لي!

وهل القضاء إلا هذا!

قيل: وقدم رجل من حلوان مصر على عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن والدك وليَ بلادنا فكتب إلى عبد الملك يخبره أن حلوان صافية وهي أرض خراج فأقطعها إياه

فورثتها أنت وإخوتك فاتق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك فإنه كان شيخاً ضعيف الخرج وأنت رجل مخرج.

فقال عمر: إن كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة ولا تشتم عرضي فإن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاضٍ، أقوم معك إلى القاضي فإن قضى لي اصطبرت وإن قضى لك سلّمت. قال: إن قمت معي إلى القاضي فقد أنصفتني. فقاما جميعاً إلى القاضي فقعدا بين يديه، فتكلم عمر بحجته وتكلم الرجل، فقضى القاضي للرجل. فقال عمر: إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم. فقال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا؟ لو قضيت لي وما وليت لي عملاً أبداً. فخرج إلى الرجل من حقه.

محاسن بر الآباء:

حكي عن ميمون بن مهران أنه قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فوجدته يكتب إلى ابنه عبد الملك: أما بعد فإن أحق من وعى عني وفهم قولي أنت، وإن الله، وله الحمد، قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله جل وعز تمام النعمة، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك فإنك إن استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل تعمله وصلاة أو صوم أو صدقة قبل ذلك منك، وإياك والعزة والعظمة والكبرياء فإنه من عمل الشيطان وهو عدوّ مضلّ مبين، وإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي لغفور رحيم. واعلم أن الشباب إلا ما وقى الله ودفع عونٌ على أمور كثيرة من السوء، وفيه لعمري معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله، فاحذر شبابك وإياك أن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو فيه رحمة الله جل وعز

ومغفرته، واذكر صغر أمرك وحقارة شأنك ولا تبغ في ما أعجبك من نفسك وفيما عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه غير الفكرة في أمرك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون بلغني عنك إلا خيراً، غير أنه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمر كرهته لبلغك عني أمر يشتد عليك كراهته وعرّفت مع ذلك أن الشباب والحرص والنعمة يحمل ذلك كله على أمر شديد إلا ما وقى الله ودفع، فكن يا بنيّ على حذر، فإن الشيطان قلّ ما يصيب فرصته بمن احترس منه بدعاء الله جل اسمه والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً ذكر الله جل اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكر الله تبارك وتعالى، وأعن على نفسك بخير. نسأل الله لنا ولك حسن التوفيق والسلام.

قال ميمون: ثم قال لي عمر: إن ابني عبد الملك قد زين في عيني وأنا متهم لنفسي فيه وأخاف أن يكون هواي فيه قد غلب على علمي به وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده فأته واسبره ثم ائتني بعلمه ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل النخوة فإنه غلام حدث ولا آمن عليه الشيطان.

قال ميمون: فخرجت إلى عبد الملك حتى قدمت عليه فاستأذنت ودخلت، فإذا غلام ابن ست عشرة سنة جالس على حشية بيضاء أحسن الناس تواضعاً وإذا مرافق بيض وبساط شعر. فرحب بي ثم قال: قد سمعت أبي يذكر منك ما أنت أهله وإني أرجو أن ينفع الله بك وقد حسبت أن يكون قد غرّني من نفسي حسن رأي والدي فيّ وما بلغت من الفضل كل ما يذكر، وقد حذرت أن يكون الهوى قد غلبه على علمه فأكون أحد آفاته. قال ميمون: فعجبت من اتفاقهما

فقلت له: أعلمني من أين معيشتك؟ قال: من عطاي ومن غلة زراعةٍ اشتريت عن ظهر يدٍ ممن ورثها عن أبيه فوهبها لي فأغناني بها عن فيء المسلمين. قال: فقلت: فما طعامك؟ فقال: ليلة لحم وليلة عدس وزيت وليلة خل وزيت وفي هذا بلاغ. قال فقلت له: أفما تعجبك نفسك؟ فقال: قد كان فيّ بعض ما كان فلما وعظني أبي في كتابه بصّرني نفسي وما صغّر من شأني وحقّر من قدري فنفعني الله جل وعز بذلك فجزاه الله من والدٍ خيراً. فقعدت ساعة أحدثه وأتسمع من منطقه فلم أر فتىً كان أجمل وجهاً ولا أكمل عقلاً ولا أحسن أدباً على صغر سنه وقلة تجربته منه.

قال ميمون: فلما كان آخر ذلك أتاه غلام فقال: أصلحك الله قد فرغنا. قال: فسكت. فقلت: ما هذا الذي فرغ منه؟ قال: الحمّام أخلاه لي. قال فقلت: لقد كنت وقعت مني كل موقع حتى سمعت هذا. قال: فاسترجع وذعر وقال: وما ذاك يا عم، يرحمك الله؟ قلت: الحمّام لك؟ قال: لا. قلت: فما دعاك إلى أن تطرد عنه غاشيته كأنك تريد بذلك الكبر فتكسر على صاحب الحمام غلته ويرجع من أتاه خائباً؟ قال: أما صاحب الحمام فإني أُرضيه وأعطيه غلة يومه. قال قلت: هذه نفقة سرف خالطها الكبر، وما يمنعك أن تدخل الحمام مع الناس وإنما أنت كأحدهم؟ قال: يمنعني من ذاك أن أرى عورة مسلم ورعاع من الناس يدخلون بغير أزر فأكره رؤية عوراتهم وأكره أن أجبرهم على أزر فيضعون ذلك مني على حد هذا السلطان الذي خلّصنا الله منه كفافاً، فعظني رحمك الله عظة أنتفع بها واجعل لي مخرجاً من هذا الأمر. فقلت له: ادخله ليلاً فإذا رجع الناس إلى رحالهم خلا لك الحمام. قال: لا جرم لا أدخله نهاراً أبداً ولولا شدة برد بلادنا هذه ما دخلته أبداً، فأقسمت عليك لتطوينّ هذا الخبر عن

أبي فإني أكره أن يظل عليّ ساخطاً ولعل الأجل يحول دون الرضى منه.

قال: فأردت أن أسبر عقله فقلت: إن سألني هل رأيت منه شيئاً تأمرني أن أكذبه؟ قال: لا معاذ الله ولكن قل رأيت شيئاً ففطمته عنه وسارع إلى ما أردت من الرجوع، فإنه لا يسألك عن التفسير لأن الله جل وعز قد أعاذه من بحث ما ستر. قال ميمون: فلم أر والداً قط ولا ولداً قط، رحمة الله وبركاته عليهم، مثلهما [١].

لم يمزح بعد الخلافة إلاّ مرّتين:

وقيل إن عمر بن عبد العزيز لم يمزح بعد الخلافة إلاّ مرّتين: إحداهما أن عَدي بن أرطاة كتب إليه يستأذنه في أن يتزوَّج ابنة أسماء ابن خارجة فكتب إليه عمر: أمَّا بعد فقد أتاني كتابك تستأذن في هند: فإن تكُ قوّة فأهلُك الأولون أحقّ بك وبها، وإن يكُ بك ضَعف، فأهلُك الأولون أعذر لك ولكن الفَزَاريّ والسلام [٢].

قل لي في وجهي ما أكره:

- وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره

فأطعني كما كنت أطيعك:

وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه كيف كانت طاعتى لك قال أحسن طاعة قال فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢١، ١٤٥، ٢١٠، ٢٣١.

(٢) أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٧٧م، ص ٣٧، ٨٤.

شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عقباك.

إلزم بيتك:

وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه بلال مؤذن رسول الله فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثني أبي أنه سمع رسول الله يقول من ولي شيئا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه إلزم بيتك فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب.

فجاءت ملء قدح:

وقيل لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها إن رسول الله سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله فلما قضي الأمر إلى معاوية جره يمينا وشمالا وأيم الله لئن مد في عمري لاردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله وأصحابه فقالت له يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافة دون يوم القيامة فلا أمننيه الله وقال وهب بن منبه إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك قال الوليد بن هشام إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفسادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما ان ملكا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك ما بال حلبها نقص أرعت

في غير مرعاها بالامس فقال لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد احدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو أن كل قصبة منها تعصر قدحا فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها أين الذي كان يقال فقالت هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

فأجدر أن لا يكون في غيرهم:

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

فأني لأستحي من الله أن يراك ببابي:

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال إذا كانت لك حاجة إلي فأرسل إلي رسولا أو أكتب لي كتابا فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي.

فعاقبه على قدر ذنبه:

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله أن

لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا.

رحم الله امرأ عرف قدر نفسه:

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع واستعمل خاتما من ورق وانقش عليه رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

فعل هذا بالتقي الطاهر:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال تضرعت إلى ربي سنة أن يرين أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه فسألته فقال لولا رحمة الله لهلك أبوك إنه سألني عن عقال بعير للصدقة فسمع بذلك عمر ابن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صحبه وسلم.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوه يا رجاء إذا وضعت في لحدي فاكشف الثوب عن وجهي فإن رأيت خيرا فاحمد الله وإن غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك قال رجاء فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نورا ساطعا فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير وقال أيضا دخلت على عمر ابن عبد العزيز وهو محتضر فقال يا رجاء إني أرى وجوها كراما ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يمينا وشمالا ثم رفع يده فقال اللهم أنت ربي

أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت ألا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى بلغ الرسالة وأدي الأمانة ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله (١).

فأيقظي أو دعي:

عن عطا قال قلت لفاطمة بنت عبد الملك أخبريني عن عمر بن عبد العزيز قالت أفعل ولو كان حياً ما فعلت إن عمر رحمه الله كان قد فرغ للمسلمين نفسه ولأمورهم ذهنه فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه دعا بسراجه الذي كان يسرج له من ماله ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه تسيل دموعه على خديه يشهق الشهقة يكاد ينصدع لها قلبه أو تخرج لها نفسه حتى يرى الصبح وقد أصبح صائماً فدنوت منه فقلت له يا أمير المؤمنين ألشيءٍ كان منك ما كان قال أجل فعليك بشأنك وخلني بشأني فقلت إني أرجو أن أيقظ قال إذن أخبرك أنى نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ثم ذكرت الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير وأشياء من ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض فعلمت أن الله عز وجل سائلي عنهم وأن رسول الله حجيجي لا يقبل الله مني فيهم معذرة ولا تقوم لي مع رسول الله حجة فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ووجع لها قلبي فأنا كلما ازددت ذكراً ازددت خوفاً فأيقظي أو دعي

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١٧٤، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٤٩، ٢٥٥، ٤١٥، ٤٤٤، ٢/٦٢، ١٩٧، ٥٧٧.

(١).

لم عزلتني؟!:

قال بعض قضاة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وقد عزله: لم عزلتني؟!: قال: بلغني أنّ كلامك مع الخصمين أكثر من كلام الخصمين.

وما كلُّ الناس يشبه أباه:

قال مالك بن أنس: قدم على عمر بن عبد العزيز فتيان، فقالا: إن أبانا توفي فترك مالا عند عمنا حميد، فأمر عمر بإحضاره، فلما دخل عليه، قال له عمر: يا حميد أنت القائل:

حميد الّذي أمجٌ داره ::: أخو الخمر ذو الشَّيبة الأصلع
أتاني المشيب على شربها ::: وكان كريماً فما ينزع

فقال: نعم. قال: أما إذ أقررت، فأني سأجلدك؟ قال: ولم؟ قال: لأنك أقررت بشرب الخمر، وزعمت أنك تنزع عنها. فقال: هيهات، أين تذهب بك؟ ألم تسمع قول الله يقول: " والشُّعراء يتَّبعهم الغاوون، ألم تر أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمون وأنَّهم يقولون مالا يفعلون "؟ قال عمر: أولى لك يا حميد، لقد أفلت. ثم قال: ويحك ياحميد، كان أبوك صالحاً، وأنت رجل سوء. قال: أصلحك الله، وأنت رجل صالح، وكان أبوك رجل سوء، وما كلُّ الناس يشبه أباه، فقال: إذن هؤلاء يزعمون أن أباهم توفي، وترك عندك مالاً. قال: صدقوا، وأنا أحضره الآن. فأحضره بخواتيم أبيهم، ثم قال: إن هؤلاء توفي أبوهم منذ كذا وكذا، وأنا أنفق عليهم من مالي وهذا مالهم. فقال عمر: ما أحدٌ أحقّ أن يكون عنده منك. قال: ما كان ليعود إليّ وقد خرج من

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص٣٤.

عندي.

صف لي العدل:

قال محمد بن كعب القرظي: قال لي عمر بن عبد العزيز: صف لي العدل يا ابن كعب. قلت: بخ بخ، سألت عن أمر عظيم. كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر احتمالهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين.

تكتفوا من القراطيس بالقليل:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: إذا كتبتم فأرقوا الأقلام، وأقلوا الكلام واقتصروا على المعاني، وقاربوا بين الحروف، تكتفوا من القراطيس بالقليل.

امتلأت الأرض ظلماً وجورا:

خرج عمر بن عبد العزيز يوماً، فقال: ما شاء الله! كان الوليد بن عتبة بالشام، والحجاج بالعراق وقرَّة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيَّان بالحجاز، ومحمّد بن يوسف باليمن، امتلأت الأرض ظلماً وجورا.

لو كنته لم تقله:

قال: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيّد قومك؟قال: أنا. قال: لو كنته لم تقله (١).

الهدية في عمل السلطان رشوة:

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٧، ١٢، ١٨، ٢٠، ٢١، ٤٣، ٦١، ٦٦، ٧٤، ٧٧، ٨٠، ٩٣، ١١٧، ١١٩، ١٣٢، ١٣٤، ١٧١، ٢٠٠، ٢٣٦.

هدي إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هدية، فردها، فقيل له: إن النبي ، كان يقبل الهدية. فقال: قد كانت الهدية له هدية، وهي لنا رشوة، وقد لعن الله الراشي والمرتشي. وقال بعض السلف: الهدية في عمل السلطان رشوة (١).

ما أمَلُ أهْلِك فيك؟

عن أبي اسحاق قال: حدثني ابنُ الكليبة قال: ولأني عُمر بن عبد العزيز عَمَلاً فلمّا ودّعتُه قال: يا ابن الكليبة، ما أمَلُ أهْلِك فيك؟ قلتُ: السَّلامةُ والعافِيةُ. قال: لا، ولكن أملُهم فيك ان تَرِدَ لهم عَلى ظَهْرِك، وأن تَحْمِل لهم عَلى كاهِلك، يا ابن الكُليبة إني لأعْلَمُ أنَّ لك ولداً تُحِبُّ لهم الغِنى، وتكره لهم الفقر، وأن الله عزَّ وجلّ قد كتب عليهم فقراً، أو كتب لهم غِنى، وأنَّ اهلَ السّموات والأرض لو جَهدوا أن يُغْنُوا من كَتب الله عليه الفقر أو يُفْقِروا من كتب الله له الغِنى، لم يقدروا على ذلك. انظر لِنفسك، ولا تَنظر لغِيْرك، وقد أحْببتك، فلا أبغضك وأستوْدعك الله.

لله أبوك:

عن العتبي، قالَ: وقال: رجل من جلساء عمر بن عبد العزيز لرجل سمعه يتكلم بكلام أعجبه: لله أبوك، أني أوتيت هذا العلم؟ فقال الرجل: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تركنا العمل بما علمنا، ولو انا عملنا بما علمنا لأوتينا علمّا لا تقوم له أبداننا.

كأني لك جنة من عذاب الله:

عن الهيثم بن عدي، قالَ: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن

(١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان - ص ٧١.

عبد العزيز: أما بعد، فأن قبلي ناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيما لست أقدر على استخراجه من أيديهم، إلا أن يمسهم شيء من العذاب، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر، كأني لك جنة من عذاب الله، وكأن رضائي ينجيك من سخط الله. فانظر فمن قامت عليه البينة فخذه بما قامت به عليه، ومن أقر لك بشيء فخذه بما اقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخل سبيله. فو الله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم (١).

لولا أني غضبان لضربتك:

عن عمر بن عبد العزيز أنه أتي برجل كان واجداً عليه فأمر بضربه ثم قال: لولا أني غضبان لضربتك وخلّى سبيله (٢).

فعلام التهافت في النار!:

حبس عمر بن عبد العزيز الغذاء عن مسلمة، حتى برح به الجوع، ثم دعا بسويق فسقاه، فلما فرغ منه لم يقدر على الاكل، فقال: يا مسلمة، إذا كفاك من الدنيا ما رأيت، فعلام التهافت في النار!

ألا تجيبوني!

وروى إسماعيل بن أبى حكيم، قال: قال عمر بن عبد العزيز يوما لحاجبه: لا تدخلن على اليوم إلا مروانيا.

فلما اجتمعوا قال: يا بنى مروان، إنكم قد أعطيتم حظا وشرفا وأموالا، إنى لاحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم،

(١) إبن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد، ١ / ٢، ٢٠، ٢١.
(٢) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ١ / ٢٢٩، ٢٧٤.

فسكتوا، فقال: ألا تجيبوني؟ فقال رجل منهم: فما بالك؟ قال: إنى أريد أن أنتزعها منكم، فأردها إلى بيت مال المسلمين.

فقال رجل منهم: والله لا يكون ذلك حتى يحال بين رؤوسنا وأجسادنا، والله لا نكفر أسلافنا، ولا نفقر أولادنا، فقال عمر: والله لو لا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له لاضرعت خدودكم! قوموا عنى.

وأى عيب أعيب مما عا به القرآن!

وروى مالك بن أنس قال: ذكر عمر بن عبد العزيز من كان قبله من المروانية فعابهم، وعنده هشام بن عبد الملك، فقال يا أمير المؤمنين، إنا والله نكره أن تعيب آباءنا، وتضع شرفنا، فقال عمر: وأى عيب أعيب مما عا به القرآن! وروى نوفل بن الفرات، قال: شكا بنو مروان إلى عاتكة بنت مروان بن الحكم عمر، فقالوا: إنه يعيب أسلافنا، ويأخذ أموالنا.

فذكرت ذلك له - وكانت عظيمة عند بنى مروان - فقال لها: يا عمة، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وترك الناس على نهر مورود، فولى ذلك النهر بعده رجلان لم يستخصا أنفسهما وأهلهما منه بشيء ثم وليه ثالث فكرى منه ساقية، ثم لم تزل الناس يكرون منه السواقى حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه، وايم الله لئن أبقاني الله لاسكرن تلك السواقى حتى أعيد النهر إلى مجراه الاول، قالت فلا يسبون إذا عندك! قال: ومن يسبهم! إنما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه.

وأين كتاب الله!

دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده

أيوب ابنه - وهو يومئذ ولى عهده - قد عقد له من بعده، فجاء إنسان يطلب ميراثا من بعض نساء الخلفاء، فقال سليمان: ما إخال النساء يرثن في العقار شيئا، فقال عمر بن عبد العزيز: سبحان الله! وأين كتاب الله! فقال سليمان: يا غلام، اذهب فأتني بسجل عبد الملك الذى كتب في ذلك، فقال له عمر: لكأنك أرسلت إلى المصحف! فقال أيوب بن سليمان: والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين.

فلا يشعر حتى يفارقه رأسه فقال عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول، ثم قام فخرج.

وأمر بضرب عنق الحروري:

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال حدثنى أبى، عن جدى، قال كان عمر بن عبد العزيز ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية، ويقول: ضمنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة، فأتى سليمان بحرورى مستقتل، وعنده عمر بن عبد العزيز، فقال سليمان للحروري: ماذا تقول؟ قال: ما أقول يا فاسق يابن الفاسق! فقال سليمان لعمر: ما ترى يا أبا حفص؟ فسكت، فقال: أقسمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عليه! فقال: أرى أن تشتمه كما شتمك، وتشتم أباه كما شتم أباك، فقال سليمان: ليس إلا! قال: ليس إلا، فلم يرجع سليمان إلى قوله، وأمر بضرب عنق الحروري.

أحمق الناس!

قال عمر بن عبد العزيز يوما لجلسائه: أخبروني من أحمق الناس؟ قالوا: رجل باع آخرته بدنياه، فقال ألا أنبئكم بأحمق منه؟ قالوا: بلى، قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره.

إذا ما المشكلات وردن يوما:

عن ابن الكلبي، قال: بينما عمر بن عبد العزيز جالسا في مجلسه، دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة، ورجلان متعلقان بها، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب، ففضه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز، من ميمون بن مهران، سلام عليك ورحمه الله وبركاته، أما بعد، فإنه ورد علينا امر ضاقت به الصدور، وعجزت عنه الأوساع [1]، وهربنا بأنفسنا عنه، ووكلناه إلى عالمه، لقول الله عز وجل:{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣]، وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والاخر أبوها، وإن أباها يا أمير المؤمنين زعم أن زوجها حلف بطلاقها إن علي بن أبي طالب عليه السلام خير هذه الامة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وآله، وإنه يزعم أن ابنته طلقت منه، وإنه لا يجوز له في دينه أن يتخذه صهرا، وهو يعلم إنها حرام عليه كأمه.

وإن الزوج يقول له: كذبت وأثمت، لقد بر قسمي، وصدقت مقالتي، وإنها امرأتي على رغم أنفك، وغيظ قلبك، فاجتمعوا إلى يختصمون في ذلك، فسألت الرجل عن يمينه، فقال: نعم، قد كان ذلك، وقد حلفت بطلاقها إن عليا خير هذه الأمة وأولاها برسول الله صلى الله عليه وآله، عرفه من عرفه، وأنكره من أنكره، فليغضب من غضب، وليرض من رضى، وتسامع الناس بذلك، فاجتمعوا له، وإن كانت الألسن مجتمعة فالقلوب شتى، وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة، فأحجمنا عن

(١) الاوساع: جمع وسع، وهو الطاقة.

الحكم لتحكم بما أراك الله، وإنهما تعلقا بها، وأقسم أبوها ألا يدعها معه، وأقسم زوجها ألا يفارقها ولو ضربت عنقها إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والامتناع منه، فرفعناهم إليك يا أمير المؤمنين، أحسن الله توفيقك وأرشدك! وكتب في أسفل الكتاب:

إذا ما المشكلات وردن ::: يوما فحارت في تأملها العيون
وضاق القوم ذرعا عن نبأها ::: فأنت لها أبا حفص أمين
لانك قد حويت العلم طرا ::: وأحكمك التجارب والشئون
وخلفك الإله على الرعايا ::: فحظك فيهم الحظ الثمين.

قال: فجمع عمر بن عبد العزيز بنى هاشم وبنى أمية وأفخاذ قريش، ثم قال لأبي المرأة: ما تقول أيها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل زوجته ابنتى، وجهزتها إليه بأحسن ما يجهز به مثلها، حتى إذا أملت خيره، ورجوت صلاحه، حلف بطلاقها كاذبا، ثم أراد الاقامة معها، فقال له عمر: يا شيخ، لعله لم يطلق امرأته، فكيف حلف؟ قال الشيخ: سبحان الله، الذى حلف عليه لأبين حنثا وأوضح كذبا من أن يختلج في صدري منه شك، مع سنى وعلمي، لأنه زعم أن عليا خير هذه الامة وإلا فامرأته طالق ثلاثا، فقال للزوج: ما تقول؟ أهكذا حلفت؟ قال: نعم، فقيل: إنه لما قال نعم، كاد المجلس يرتج بأهله، وبنو أمية ينظرون إليه شزرا، إلا إنهم لم ينطقوا بشيء، كل ينظر إلى وجه عمر.

فأكب عمر مليا ينكت الأرض بيده والقوم صامتون ينظرون ما يقوله، ثم رفع رأسه وقال:

إذا ولى الحكومة بين قوم ::: أصاب الحق والتمس السدادا
وما خير الإمام إذا تعدى ::: خلاف الحق واجتنب الرشادا

ثم قال للقوم: ما تقولون في يمين هذا الرجل؟ فسكتوا، فقال:

سبحان الله! قولوا.

فقال رجل من بنى أمية: هذا حكم في فرج، ولسنا نجترئ على القول فيه، وأنت عالم بالقول، مؤتمن لهم وعليهم، قل ما عندك، فإن القول ما لم يكن يحق باطلا ويبطل حقا جائز على في مجلسي.

قال: لا أقول شيئا، فالتفت إلى رجل من بنى هاشم من ولد عقيل ابن أبى طالب، فقال له: ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيلي؟ فاغتنمها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن جعلت قولى حكما، أو حكمي جائزا قلت، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لى، وأبقى للمودة، قال: قل وقولك حكم، وحكمك ماض.

فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا: ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا، ونحن من لحمتك وأولى رحمك، فقال عمر: اسكتوا، اعجزا ولؤما! عرضت ذلك عليكم آنفا فما انتدبتم له.

قالوا: لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيلى، ولا حكمتنا كما حكمته، فقال عمر: إن كان أصاب وأخطأتم، وحزم وعجزتم، وأبصر وعميتم، فما ذنب عمر، لا أبا لكم! أتدرون ما مثلكم؟ قالوا: لا ندرى، قال: لكن العقيلى يدرى، ثم قال: ما تقول يا رجل، قال: نعم يا أمير المؤمنين، كما قال الأول: دعيتم إلى أمر فلما عجزتم تناوله من لا يداخله عجز فلما رأيتم ذاك أبدت نفوسكم ندامى وهل يغنى من القدر الحذر! فقال عمر: أحسنت وأصبت، فقل ما سألتك عنه.

قال: يا أمير المؤمنين، بر قسمه، ولم تطلق امرأته، قال: وإنى علمت ذلك؟ قال: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام وهو عندها في بيتها عائد لها: يا بنية، ما علتك قالت: الوعك يا أبتاه - وكان على غائبا

في بعض حوائج النبي صلى الله عليه وآله - فقال لها: أتشتهين شيئا؟ قالت: نعم أشتهى عنبا، وأنا أعلم إنه عزيز، وليس وقت عنب، فقال صلى الله عليه وآله: إن الله قادر على أن يجيئنا به، ثم قال: اللهم ائتنا به مع أفضل أمتى عندك منزلة، فطرق على الباب، ودخل ومعه مكتل قد ألقى عليه طرف ردائه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ما هذا يا على؟ قال: عنب التمسته لفاطمة، فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهم كما سررتني بأن خصصت عليا بدعوتي فاجعل فيه شفاء بنيتي، ثم قال: كلى على اسم الله يا بنية، فأكلت، وما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى استقلت وبرأت، فقال عمر: صدقت وبررت، أشهد لقد سمعته ووعيته، يا رجل، خذ بيد امرأتك فإن عرض لك أبوها فاهشم أنفه.

ثم قال: يا بنى عبد مناف، والله ما نجهل ما يعلم غيرنا، ولا بنا عمى في ديننا، ولكنا كما قال الأول: تصيدت الدنيا رجالا بفخها فلم يدركوا خيرا بل استقبحوا الشرا وأعماهم حب الغنى وأصمهم فلم يدركوا إلا الخسارة والوزرا قيل: فكأنما ألقم بنى أمية حجرا، ومضى الرجل بامرأته.

وكتب عمر إلى ميمون بن مهران: عليك سلام فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإنى قد فهمت كتابك، وورد الرجلان والمرأة، وقد صدق الله يمين الزوج، وأبر قسمه، وأثبته على نكاحه، فاستيقن ذلك، واعمل عليه، والسلام عليك ورحمه الله وبركاته [1].

(١) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٥٦/٣، ١٠٤/١٧، ١٤٤/١٨، ٣٢٩/١٨، ٣٣٥، ٢٩٥/١٩.

الحَسَنَة بَيْنَ السَّيِّئَتَيْن :

ودخل عمر بن عبد العزيز رحمه الله على عبد الملك بن مروان وكان خَتَنَهُ على ابنته فاطمة فسأله عن معيشته كيف هي فقال عمر: حَسَنَة بين السيئتين ومنزلة بين المنزلتين فقال عبد الملك: خَيْرُ الأمور أوْسَاطُها [(١)].

أنا أؤخر نفسي:

عرضت جارية على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأحب شراءها ولم يكن عنده تمام ثمنها فقال البائع: أنا أؤخرك إلى العطاء. فقال: لا أريد لذة عاجلة بذلة آجلة. وعرض على رجل شيء ليشتريه فقال: ما عندي ثمنه، فقال البائع: أنا أؤخرك. فقال: أنا أؤخر نفسي[(٢)].

ألق حصاك وأخلص الدعاء:

- ومر عمر بن عبد العزيز برجل يسبح الحصى، فإذا بلغ المائة عزل حصاة فقال له: ألق حصاك وأخلص الدعاء [(٣)].

وأوجز الإملاء:

- كتب إليه أبو بكر بن حزم - وهو والي المدينة من جهته؛ إن الأمير يقطع لي من الشمع والقراطيس ما كان يقطع لعمال المدينة، فكتب إليه: جاءني كتابك وإن عهدي بك تخرج من بيتك في الليلة الظلماء بغير سراج. وأما القراطيس فأدق القلم، وأوجز الإملاء، واجمع الحوائج في صحيفة.

---

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، ١ / ٣١٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٩، ٣٠، ١٢٩، ١٣٩، ٢١٥، ٢٤٩، ٤٨٦، ٤٨٩، ٣١/٢.

(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٩، ٣٠، ١٢٩، ١٣٩، ٢١٥، ٢٤٩، ٤٨٦، ٤٨٩، ٣١/٢.

شر الخلق!

وذكر لـه سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبـي مسلم بالعفـة عن الدرهم والدينار، وهم بأن يستكفيه مهماً من أمره. فقال له عمر: أفلا أدلك على من هو أزهد في الدرهم والدينار منه وهو شر الخلق؟ قال: بلى. قال: إبليس لعنه الله.

قميصي هذا كان يرقع:

- خرج يوم الجمعة إلى الصلاة وقد أبطأ، فقال: أيها النـاس؛ إنمـا بطأني عنكم أن قميصي هذا كان يرقع - أو كان يغسل - ولا والله ما أملك غيره.

أشرف الناس بعد رسول الله :

- وقال عمر يوماً وقد قام من عنده علي بن الحسين رضي الله عنهما: من أشرف النـاس بعد رسول الله ؟ فقـالوا: أنتم. فقـال: كـلا أشرف الناس هذا القائم من عندي آنفاً، من أحب النـاس أن يكونـوا منه، ولم يحب أن يكون من أحد. وقـال: لـو جـاءت كل أمـة بخبيثهـا وجئنا بالحجاج لزدنا عليهم.

فليكن الله أجلّ في صدرك:

وقال لجارية في صباه بحضرة مؤدبه: أعضتّك الله بكذا؟. فقال له المؤدب: قل أعضتّك عبد العزيز. فقال: إن الأمير أجلّ من ذلك. قال: فليكن الله أجلّ في صدرك. فما عاود بعدها كلمة حياء.

أنت أولى بمكاني مني:

ودخل عليه ميمون بن مهران فقال له - وقد قعد في أخريات الناس - : عظني. فقال ميمون: إنك لمن خير أهلك إن وقيت ثلاثـة. قـال: مـا هـنّ؟ قـال: إن وقيـت السـلطان وقدرتـه، والشـباب وغرتـه، والمـال

وفتنته. قال: أنت أولى بمكاني مني. ارتفع إليّ، فأجلسه معه على سريره.

لم لا تنام!

- وقيل له: لم لا تنام؟ قال: إن نمت بالليل ضيعت نفسي، وإن نمت بالنهار ضيعت الرعية.

قد فعل الله ما تحب:

أمر عمر بعقوبة رجل قد كان نذر لئن أمكنه الله منه ليفعلن وليفعلن، فقال له رجاء بن حيوة: قد فعل الله ما تحب من الظفر، فافعل ما يحب الله من العفو.

وبئس والله أهل البيت:

ولما استخلف عمر بعث بأهل بيت الحجاج إلى الحارث بن عمرو الطائي، وكان على البلقاء، وكتب إليه: أما بعد، فإني بعثت إليك بآل أبي عقيل، وبئس والله أهل البيت في دين الله وأخلاق المسلمين، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله وعلى أمير المؤمنين.

- وقال: كفى بالمرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث: أن يعيب شيئاً ثم يأتي مثله، أو يبدو له من الحية ما يخفى عليه من نفسه، أو يؤذي جليسه فيما لا يعنيه.

- وقيل له: أي الجهاد أفضل؟ فقال: جهادك هواك. وقال: ثلاث من كن فيه كمل: من لم يخرجه غضبه عن طاعة الله، ولم يستنزله رضاه إلى معصية الله، وإذا قدر عفا وكف.

وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك! وشررة من نارك!

قيل: أتي الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: أما تقولت في الحجاج؟ قال: ما عسيت أن أقول في الحجاج؟ وهل

الحجاج إلا خطيئة من خطاياك؟ وشررة من نارك؟ فلعنك الله، ولعن الحجاج معك. وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما تقول في هذا؟ قال عمر: وما أقول فيه؟ هذا رجل يشتمكم، فإما أن تشتموه كما شتمكم أو تعفو عنه. فغضب الوليد وقال لعمر: ما أظنك إلا خارجياً. فغضب عمر وقال: ما أظنك إلا مجنوناً. وقام وخرج مغضباً. ولحقه خالد بن الريان، فقال له: ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين؟ والله لقد ضربت بيدي إلى قائم سيفي أنتظره متى يأمرني بضرب عنقك. فقال له عمر: وكنت فاعلاً لو أمرك قال: نعم. فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان، فقام على رأسه كما كان يقوم على رأس من كان قبله من الخلفاء. قال: وكان رجل من الكتاب يضر وينفع بقلمه، فجاء حتى جلس مجلسه الذي كان يجلس فيه الخلفاء. قال: فنظر عمر إلى خالد بن الريان، وقال: يا خالد ضع سيفك؛ فإنك تطيعنا في كل أمر نأمرك به، وضع أنت يا هذا قلمك، فقد كنت تضر به وتنفع. ثم قال: اللهم إني قد وضعتهما لك فلا ترفعهما. قال: فوالله ما زالا وضيعين مهينين بشر حتى ماتا.

أخي في الله:

يروى أن عمر بن عبد العزيز كان يدخل عليه سالم مولى بني مخزوم، وقالوا: بل زياد، وكان عمر أراد شراءه وعتقه، فأعتقه مواليه، وكان عمر يسميه أخي في الله، فكان إذا دخل وعمر في صدر بيته تنحى عن القبلة، فيقال له في ذلك، فيقول: إذا دخل عليك من لا يهولك فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

أتقوم يا أمير المؤمنين!

وهمّ السراج ليلة أن يخمد، فوثب رجاء بن حيوة ليصلحه، فأقسم عليه عمر فجلس، ثم قام عمر فأصلحه، فقال له رجاء

بن حيوة: أتقوم يا أمير المؤمنين؟ قال: قمت وأنا عمر، وتعللت وأنا عمر.

امتلأت الأرض والله جوراً:

ويروى أن عمر خرج يوماً فقال: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وقرة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيان بالحجاز، ومحمد بن يوسف باليمن. امتلأت الأرض والله جوراً.

إن نفسي مطيتي:

وقال عبد الملك ابنه له يوماً: يا أبت إنك تنام نوم القائلة، وذو الحاجة على بابك غير نائم. فقال: يا بني إن نفسي مطيتي، وإن حملت عليها في التعب خسرتها.

وقد رضي الله بها شكراً من جنته:

وكتب إليه عدي بن أرطأة لما حفر نهر عدي بالبصرة: إني حفرت لأهل البصرة نهراً، أعذبت به مشربهم، وجادت عليه أموالهم، فلم أر لهم على ذلك شكراً، فإن أذنت لي قسمت عليهم ما أنفقته عليه. فكتب إليه عمر: إني لا أحسب أهل البصرة عند حفرك لهم هذا النهر خلوا من رجل قال: الحمد لله. وقد رضي الله بها شكراً من جنته، فارض بها شكراً من نهرك [1].

أتعبت خيل المسلمين في شهوتك:

وحكى أن عمر بن عبد العزيز قالت زوجته: اشتهى عمر عسلا فلما قدمته له وأكل منه قال من أين لكم هذا قلت أرسلت غلامي على خيل البريد بدينارين فاشتراه لك فباعه وأعطاني رأس مالي ورد الباقي أي بيت المال ثم قال لنفسه يا عمر أتعبت خيل المسلمين في

(١) نثر الدر، ٢ /٨٧ - ٩٤.

شهوتك[1].

إن القراء ضربان:

وقال عمر بن عبد العزيز لإياس بن معاوية: دلني على قوم من القراء أولهم، فقال له: إن القراء ضربان: ضرب يعلمون للآخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا فما ظنك بهم إذا مكنتهم منها، فقال: ما أصنع؟ قال: عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم ويرجعون إلى أعراقهم فولهم.

نهارك يا مغرور سهو وغفلة:

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ:{ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾} [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وينشد:

يغر بما يبلى ويشغل بالمنى ::: كما غر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ::: وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه ::: كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عون بن عبد الله يعزيه بابنه: أما بعد، فإنا ناس من أهل الآخرة أسكنا الدنيا أموات أبناء أموات، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت والسلام.

لا عليك:

ضرط كاتب عمر بن عبد العزيز بين يديه، فرمى بقلمه وقام خجلاً، فقال له عمر: لا عليك، خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وأفرخ روعك، فما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي.

---

(١) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ٢٠٦/١.

وأمرت بدخول الجنّة لما فعلت:

قال عمر بن عبد العزيز: لو كنت في قتلة الحسين وأمرت بدخول الجنّة لما فعلت، حياءً من أن تقع عيني على عين محمدٍ .

مقاماً لا يشغل الله عنك فيه كثرةُ من يختصم إليه:

قام رجلٌ إلى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، اذكر بمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يختصم إليه حين تلقاه بلا ثقةٍ من عمل، ولا براءةٍ من ذنب؛ فبكى حتى غشي عليه، ثم قضى حاجته.

بمثل هذا فليمت إلينا المتوسلون:

قام رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، أنا فلان بن فلان، شهد أبي بدراً وأحداً والخندق وحنيناً - وجعل يعدد المشاهد - ولم ألبس الخز ولم أركب ولم أتزوج، فقال عمر: مشاهد والله ما تشبه مرج راهط ولا دير الجماجم، والله لأكسونك ولأزوجنك ولأحملنك، فكساه وزوجه وحمله وأثبت اسمه في شرف العطاء، وقال: بمثل هذا فليمت إلينا المتوسلون [١].

أكان ناقصاً من شرفك؟

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة [٢] من رياط مصر فقال: بكم أخذت هذه يا أبا سعيد؟ قال: بكذا وكذا. قال: فلو نقصت من ثمنها شيئاً أكان ناقصاً من شرفك؟ قال: لا، قال: فلو زدت في ثمنها شيئاً أكان زائداً في شرفك؟ قال: لا، قال: فاعلم يا

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١ /٦، ١٤، ٢٦، ١٥١، ٢٣٤، ٢٧٩، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦١.

(٢) ريطة:، وهي نوع من الثياب عبارة عن ملاءة عريضة مكونة من قطعتين قد خيطت إحداهما بالأخرى.

مسلمة أن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وأفضل اللين ما كان بعد الولاية.

إن القول فتنة فعليك بالعمل:

أراد عمر بن عبد العزيز أن يذكر بني أمية وجورهم وإفسادهم ويلعن الظالمين منهم، فشاور في ذلك جماعة من أهل العلم، منهم ميمون بن مهران، فقال له ميمون: يا أمير المؤمنين إن القول فتنة فعليك بالعمل [١].

إذا طابت العين عذبت الأنهار:

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل من أهل الشام: كيف عمالنا قبلكم؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا طابت العين عذبت الأنهار [٢].

إذا استأثر الله بشيء فاله عنه:

لما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك رأى رجلاً يتكلم ويشير بشماله، فصاح به: إذا تكلمت فاشر بيمينك. فقال الرجل: ما رأيت كاليوم رجلاً دفن أعز الناس عليه ثم هو يهمه يميني من شمالي. فقال عمر: إذا استأثر الله بشيء فاله عنه[٣].

اقضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني:

أكثر الأحوص من التشبيب بأم جعفر، وهي امرأة من الأنصار، ولم يكن بينهما معرفة، فنهاه عنها أخوها أيمن فلم ينته. فاستعدى عليه عمر بن عبد العزيز، فربطهما في حبل ودفع إليهما سوطين

(١) الحمدوني، التذكرة الحمدونية، ٣٧٨/١.
(٢) الحمدوني، التذكرة الحمدونية، ٤٥١/١.
(٣) الحمدوني، التذكرة الحمدونية، ٢٦/٢.

وقال لهما: تجالدا، فلم أعيا أم جعفر أمر الأحوص جاءت إليه وهي منتقبة فوقفت عليه في مجلس قومه ولا يعرفها، فقالت: اقضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني، قال: ما ابتعت منك شيئاً. فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه وبكت وشكت حاجة وضراً وقالت: يا قوم كلموه، فلامه قومه وقالوا له: أوصل إلى المرأة حقها. فجعل يحلف وما يعرفها ولا رآها قط. فكشف وجهها وقالت: ويلك، وما تعرفني؟! فجعل يحلف مجتهداً أنه ما رآها قط ولا يعرفها، حتى استفاض قولها وقوله، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار بينهما، وكثر لغطهم. ثم قامت وقالت: يا عدو الله، صدقت، والله ما لي عليك حق ولا تعرفني، وقد حلفت على ذلك وأنت صادق، وأنا أم جعفر وأنت تقول: قلت لأم جعفر، وقالت لي أم جعفر في شعرك. فخجل الأحوص وانكسر عند ذلك، وبرئت عندهم (١).

وبم أوصيه؟

قال ابن دأب: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك فأوصه بالأمة خيراً فقال: وبم أوصيه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمر بالكتاب إليه: أما بعد. فاتق، يا يزيد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة. تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتقدم على من لا يعذرك والسلام (٢).

وله ذنوب يستغفر الله منها:

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان: دخل عمر بن عبد العزيز على رجل وهو يجود بنفسه، فقال له: استغفر الله، فقيل له: يا أبا

---

(١) الحمدوني، التذكرة الحمدونية، ٩/٣.
(٢) المبرد، التعازي والمراثي، ٣٣/١.

حفص، لو لقنته شهادة أن لا إله إلا الله، فقال عمر: إن لا إله إلا الله من ذنبه، وله ذنوب يستغفر الله منها، فإذا استغفر الله فقد وحده، وإن المستغفر الخائف بعرض خير [1].

فعظني وأوجز:

عن العُتبيِّ، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن: أمَّا بعد: فإذا أتاك كتابي فعظني وأوجز. فكتب إليه الحسنُ: أمَّا بعد. فأعص هواك، والسلام [2].

ولكني أنهي النفس عن الهوى:

وحكى أن عمر بن عبد العزيز عشق جارية لزوجته فاطمة بنت عبد الملك وزاد فيها غرامه فطلبها منها فأبت عليه، فلما أفضت إليه الخلافة زينتها بأنواع الزينة، ثم قالت يا أمير المؤمنين قد كنت أمسكت هذه عنك والآن فقد وهبتا لك فسر بها سروراً بالغاً. ثم قال اخلعي ثيابك فحين همت أجلسها، ثم قال لها من أين جيء بك في الأصل قالت اغتصب الحجاج مال عامل فاصطفاني منه وأرسلني لعبد الملك فوهبني لأبنته فقال أحي هو؟ قالت لا. قال هل له ورثة؟ قالت ولد، فأحضره وأمره أن يذكر ما أغرم الحجاج أباه وأعطاه عمر رضي الله عنه ذلك الجارية وقال له احذر أن يكون أبوك نالها. فقال هي لك يا أمير المؤمنين فأبى فقال أتبيعها؟ فأبى، فقالت الجارية أين وجدك بي؟ قال قد زاد ولكني أنهي النفس عن الهوى [3].

لا تحزن يا أمير المؤمنين واجعل الأربعين سلفاً عندك:

وشدد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في النهي عن

---

(١) المبرد، التعازي والمراثي، ٥٨/١.
(٢) ابن دريد، الفوائد والأخبار، ١/١.
(٣) داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ٤٣/١.

المعاصي كشرب الخمر فقال لصاحبي عسسه وخبره إذا رأيتما سكران فأتياني به فطافا إلى آخر الليل فإذا هما بشيخ حسن الهيئه بهي المنظر قد أخذ منه السكر وهو يقول:

سقوني وقالوا ألا تغني ولو سقوا ::: جبال حنين ما سقوني لغنت

فقالا له أما تستحي وأنت بهذه الحالة فقال ارفقا بي فقد شربت مع أخوان أحداث فحين أخذ الشراب مني أخرجوني فقال لصاحب الخبر اكتم علي وأنا أطلقه قال قد فعلت فقال له أذهب يا شيخ ولا تعد قال نعم وأنا تائب فلما كان في الليلة الآتية رأياه كما ذكر وهو يغني.

إنما هيج البلى ::: حين عض السفرجلا
فرماني وقال لي ::: كن بعيني مبتلى
ولقد قام لحظه ::: لي على القلب بالقلى

فقال له أين التوبة فقال إن أخواني الذين ذكرتهم لكما البارحة عدوا علي وحلفوا أن لا يخرجوني إذا عمل بي الشراب فغلب علي وعليهم فخرجت فأطلقاه فلما كان الثالثة رأياه على تلك الحالة وهو يغني.

أرض عني فطالما قد سخطت ::: أنت ما زلت جافياً مذ عرفت
أنت ما زلت قاطعاً لا وصولاً ::: بل بهذا فدتك نفسي ألفت
ما كذا تفعل الكرام بنو النا ::: س بأحبابهم فلم كنت أنت

فقالا له هذه ثالثة ولا عفو فقال أخطأتما قالا ولم ذلك قال رسول الله من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه فإن شربها الثانية لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه فإن شربها الثالثة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه فإن شربها الرابعة لم تقبل صلاة أربعين ليلة فإن تاب لم يتب

الله عليه وكان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال وهي عصارة أهل النار فقالا له اذهب فلما كانت الرابعة رأياه على الحكم وهو ينشد:

قد كنت أبكي وما حنت لهم أبـل ::: فما أقول إذا مـا حمـل الثقـل
كأنني بك نضـو الأحـراك بـه ::: تدعي وأنت عن الداعين مشـتغل
فقلوبك بأيـديهم هنـاك وقـد ::: سارت بأحمالـك المهربـة الـذلل
حتى إذا استيأسوا من أن تجيبـهم ::: عضوا عليك وقالوا قد قضى الرجل

فقال له لم يبق عفو فقال افعلا ما بدا لكما فحملاه إلى عمر فاستنكهه فوجد الرائحة فحبسه حتى أفاق وجلده ثمانين ثم قال له لا تعد فقال قد ظلمتني يا أمير المؤمنين لأني عبد وقد جلدتني حد الأحرار فقال أخطأت إذ لم تعرفني وغم عمر فقال له الشيخ لا تحزن يا أمير المؤمنين واجعل الأربعين سلفاً عندك فضحك حتى استلقى على ظهره ثم قال لصاحب العسس إذا رأيت مثل هذا فارفعه إلي[١].

أو ما تغار!

زوج عمر بن عبد العزيز بنتاً له، فقال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك: علمي هذه الصبية ما كنت تعلمين، أي ما كنت أعجب به منك، قالت: أو ما تغار؟ قال: إنما الغيرة في الحرام، فأما الحلال فلا، أبعد قول رسول الله لعلي وفاطمة لا تعجلا حتى أدخل عليكما[٢].

فاضربه ضرب الرجل المستطيل في عرض أخيه:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: بلغني أن قبلك قوما يشتمون أبا بكر وعمر، فمن قامت عليه بينة فاضربه ضرب الرجل

(١) داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، ١/١٩٧ - ١٩٨.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/٦٦.

المستطيل في عرض أخيه وهو عنه ساكت[١].

أو ما تغضب يا عبد الملك!

غضب عمر بن عبد العزيز فلما سكت غضبه فقال له ابنه عبد الملك: وأنت في الوضع الذي وضعك الله فيه، وولاك من أمر أمة محمد ما ولاك يبلغ بك الغضب ما أرى! قال: أو ما تغضب يا عبد الملك؟ قال: بلى، ولكن ما تنفع سعة بطني إذا لم أرد فيه غضبي حتى يسكن[٢].

بئس الخاطب أنت:

سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يقول: اللهم زوجني الحور العين، وفي كفه حصى يقلبها، فقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصى وأخلصت لربك الدعاء[٣].

وهل ينتفع إلا بريحه!

كان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك المسلمين، فأخذ بأنفه لئلا يصيب الرائحة ويقول: وهل ينتفع إلا بريحه؟ [٤].

فأنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً:

سمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله عمر بن عبد العزيز يجهر القراءة في صلاته، وكان حسن الصوت، وهو إذ ذاك أمير المدينة، فرفع سعيد صوته وقال: يا أيها المصلي إن كنت تريد الله بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، فسكت وخفف ركعتيه ثم أخذ نعليه وخرج

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/١١٥.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/١٤٥.
(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/١٧٨.
(٤) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/١٨٩.

(١).

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى علوي يمشي مشية منكرة، فقال: يا هذا، إن الذي شرفت به لم تكن هذه مشيته [٢].

عليك وأراحنا منك:

وكان الوليد بن عبد الملك لحنة خطب الناس يوم عيد فقرأ في خطبته يا ليتها كانت القاضية وضم التاء فقال عمر بن عبد العزيز عليك وأراحنا منك[٣].

من أنت:

ودخل إليه أعرابي وعنده عمر بن عبد العزيز فقال له من أنت ووصل الهمزة فظن الأعرابي أنه يقول مننت فقال المنة لله ولأمير المؤمنين فقال عمر للأعرابي إن أمير المؤمنين يقول لك من أنت قال فلان بن فلان قال ما شأنك وفتح النون قال جدري في وجهي وفحج بساقي قال عمر ويحك إن أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك وضم النون قال ظلمني ختني قال ومن ختنك وفتح النون قال وما سؤالك عن ذلك يا أمير المؤمنين حجام عندنا بالبادية قال عمر إن أمير المؤمنين يقول لك من ختنك وضم النون قال فلان [٤].

انطلق صَحبك الله:

كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على الحجاز أُتي بالصلت بن أبي العاصي المخزومي سكران فجلده الحدَّ فغضب ولَحِقَ بالروم فتنصر، وبعث عمر رجلاً إلى ملك الروم في فداء من عندهم من

---

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٢٣٣/١.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٤٥/١.
(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٤٧٠/١.
(٤) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٩١/١.

الأسرى، قال: بينما أنا أجول في أزقة القسطنطينية إذ سمعت غناءً بلسانٍ فصيح عربيٍّ وصوت شجيٍّ في هذا الصوت:

وكم بين الفرات إلى المصلّى ::: إلى أُحدٍ إلى ميقات ريم
إلى الجمّاء من ثغرٍ نقيٍّ ::: عوارضه ومن دلٍ رخيمِ
ومن عين مكحلة المآقي ::: بلا كحلٍ ومن كشحٍ هضيم

فلم أسمع قط أطيب منه، ولم أدر، أهو كذلك حسن، أم لغربة العربية في ذلك الموضع، ودنوت من الصوت فلما قربت منه إذا هو في غرفة، فنزلت عن دابتي وصعدت إليه فسلمت فردَّ السلام وهو يبكي فقلت له: أبشر، فقد فك الله أسْرَك؛ بعثني أمير المؤمنين في فداء من بهذا البلد من المسلمين فما قصتك، قال: هربت إلى هذا البلد غضباً لما جرى عليَّ من عمر بن عبد العزيز، فمررت يوماً بهذا المكان وأشرفت على جارية من أحسن الناس وجهاًفعشقتها وكلمتها فقالت: إن دخلت في ديني لم أُخالفك، فدعتني شدة الوجد بها إلى أن تنصرت. فقلت له، أكنت قارئاً للقرآن، قال نعم، قلت فما بقي معك منه، قال لا شيء إلا هذه الكلمة:{ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢} [الحجر: ٢]، قلتُ يا هذا، أتق الله وعاود الإسلام فإن الله يقول:{إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ} [النحل: ١٠٦]، قال: وكيف، بعد عبادة الصليب وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، انطلق صَحبك الله (١).

من كلامه ـ رحمه الله ـ:

- عجبت لمن لاحن الناس كيف لا يعرف جوامع الكلم (٢).

(١) الرقيق القيرواني، قطب السرور في اوصاف الخمور، ص٣٣.
(٢) أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين المصري، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار - عمان، الطبعة الأولى،

– ليس من المروءة أن تستخدم الضيف [1].

خطبة لعمر بن عبد العزيز:

- عن المدائني قال: خطب عمر بن عبد العزيز الناس بخناصرة فقال: بعد أن حمد الله عز وجل وأثنى عليه: أيها الناس إنما الأمان عند الله غداً لمن باع قليلاً بكثير، فنظر امرؤ لنفسه وحاسبها في يومه قبل غده، فإن السعيد منكم من وعظ بغيره والسلام.

خطبة أخري لعمر بن عبد العزيز:

- عن المدائني قال: خطب عمر بن عبد العزيز الناس بعرفة فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إنكم قد جئتم من القريب والبعيد، وأنضيتم الظهر، وأخلقتم الثياب، وليس السابق اليوم من سبقت راحلته أو دابته، ولكنَّ السابق اليوم من غفر له [2].

- إذا كان في القضاء خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي.

- إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقئت عيناه جميعاً.

- لما مات عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى عُمّاله: إنَّ عبد الملك كان عبداً من عَبيد الله، أَحْسَنَ الله إليه وإليّ فيه، أعاشه ما شاء وقبَضَه حين شاء، وكان - ما علمتُ من صالِحِي

١٩٨٥،

ص١٢٥.

(١) أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص٢٥٠.

(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١ / ٢٥، ١٣٢، ١٣٨، ١٤٩، ٣٠٢، ٣٧٤، ٣٨٨، ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٤٠.

شباب أهْل بَيْته قراءةً للقرآن، وتَحَرِّياً للخير، وأعوذ باللّه أن تكون لي مَحَبّة أخالف فيها محبة اللّه، فإن ذلك لا يَحْسُن في إحسانه إليّ، وتتابُع نَعمه عليّ، ولأعلمنّ ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة، قد نَهينا أهلَه الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه.

ـ خطب عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه ورضي عنه:

قالت العُتبي: أول خُطبة خَطبها عمرُ بن عبد العزيز رحمه اللّه قوله: أيها الناس، أصْلحوا سرائركم تَصْلُح لكم عِلانِيَتُكم، وأصْلِحُوا آخرتكم تَصْلح دُنْياكم؛ وإنَ امرئ ليس بينه وبين آدمَ أبٌ حيٌّ لمُعْرقٌ في المَوْت.

ـ خطبة ابن الأهتم بين يدي عمر بن عبد العزيز:

ودَخل عبدُ اللّه بن الأهتم على عُمَر بن عبد العزيز مع العامّة، فلم يُفجأ إلا وهو قائم بين يديه يتكلّم؛ فحمد اللّه وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن اللّه خَلَق الخَلْق غنيّاً عن طاعتِهم، آمِنا من مَعْصيتِهم، والناس يومئذ في المنازل والرأي مُختلفون، والعَرب بشرّ تلك المَنازل، أهل الوَبَر وأهل المَدر، تُحتَاز دونهم طَيّبات الدُّنيا ورَفاهة عَيْشها، ميّتهم في النار، وحَيُّهم أعْمى، مع ما لا يُحصى من المَرْغوب عنه، المَزْهود فيه. فلما أراد اللّه أن ينشر فيهم رَحْمته، بَعث إليهم رسولاً منهم، عزيزاً عليه ما عَنِتُوا حريصاً عليهم بالمؤمنين رؤوف رَحيم، فلم يَمنعهم ذلك أن جَرّحوه في جِسْمه، ولقّبوه في اسمه، ومعه كتابٌ من اللّه ناطق، لا يَرحل إلا بأمره، ولا يَنْزل إلا بإذنه، واضطرّوه إلى بطن غار. فلما أمر بالعزيمة، أسْفر لأمر اللّه لونُه، فأبلج اللّه حُجته، وأعلى كَلِمته، وأظهر دَعْوته، وفارق الدُّنيا تقيّاً ثم قام من عده أبو بكر رضي اللّه عنه، فسلك سُنّته، وأخذ سبيله؛ فارتدّت العربُ، فلم يَقبل منهم إلا الذي كان

رسولُ الله يقبله؛ فانتضىَ السُّيوف مِن أغمادها، وأوقد النِّيران في شُعَلها، ثم رَكب بأهل الحق أهلَ الباطل، فلم يبرح يَفْصِل أو صالهم، ويَسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الباب الذي خَرجوا منه، وقرّرهم بالأمر الذي نَفروا عنه. وقد كان أصاب من مال الله بَكْراً يرتوي عليه، وحَبشية تُرضع ولداً له، فرأى ذلك غُصّة في حَلْقه عند موته، وثقلا على كاهله، فأداه إلى الخليفة مِن بعده، وبَرئ إليهم منه، وفارق الدُّنيا نقيّاً نقيّاً على مِنْهاج صاحبه.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فمصَّر الأمصار، وخَلط الشدّة باللّين، وحَسَر عن ذِراعيه، وشَمّر عن ساقيه، وأعدّ للأمور أقرانها، وللحرب آلتها. فلما أصابه قِنّ المُغيرة بن شُعبة أمر ابنَ عباس أن يسأل الناس: هل يُثبتون قاتَله. فلما قيل له: قن المغيرة استهل بحمد الله أن لا يكون أصابه مَن له حق في الفَيء فيستحلّ دمَه بما استحل من حقه. وقد كان أصاب من مال الله بِضْعة وثمانين ألفاً. فكسر بها رباعه، وكره فيها كَفالة أهله وولده، فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده، وفارق الدُّنيا تقيّاً تقيّاً على مِنهاج صاحبه. ثم إنّا والله ما اجْتمعنا بعدهما إلا على ضِلَع أعوج. ثم إنك يا عُمر ابنُ الدنيا، ولدتْك مُلوكُها، وألقمتك ثَدْيها، فلما وَليتَها ألغَيتها وأجببتَ لقاء الله وما عنده، فالحمدً لله الذي جَلاَ بك حَوْبتنا، وكَشف بك كُرْبتنا، امْض ولا تلتفت، فإنه لا يُغْني عن الحق شيء، أقول قولي هذا واسْتغفر الله لي ولكم وللمُؤمنين وللمُؤمنات. ولما قال: ثم إنّا والله ما اجتمعنا بعدَهما إلا على ضِلَع أعْوج. سَكت الناسُ كلُهم غيرَ هِشَام، فإنه قال: كَذبت.

ـ وخطبة أيضاً لعمر بن عبد العزيز:

قال أبو الحسن: خَطب عمرُ بن عبد العزيز بخُناصرة خُطبة لم

يَخْطب بعدها حتى مات رحمه الله، حَمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم لم تُخْلقوا عَبَثاً، ولم تُتركوا سُدًى، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخَسِر مَن خَرج من رحمة الله التي وَسِعَت كلَّ شيء، وحُرم جَنَة عرضمها السمواتُ والأرض. واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق؛ ألا تَرَوْن أنكم في أصلاب الهالكين، وسَيَخلفها مِن بعدكم الباقون، حتى تُردّوا إلى خير الم الورثين، ثم إنّكم في كُل يوم تُشّيعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نَحْبَه، وبَلَغ أجَلَه، ثم تغيِّبونه في صَدْع في الأرض، ثم تَدْعونه غير مُوَسَّد ولا مُمَهّد، قد خَلَع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، غنيّاً عما تَرك: فقيراً إلى ما قدّم، وايم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب، أكثرَ مما عندي، فاستغفر الله لي ولكم، وما تَبْلُغنا حاجةٌ يتّسبع لها ما عِنْدنا إلا سَدَدْناها، ولا أحدٌ مِنكم إلا وَدِدْت أن يَده مع يديَ ولحُمتي الذين يلونني، حتى يَسْتوى عيشُنا وعيشُكم، وايم الله إني لو أردتُ غير هذا من عيش أو غِضارة لكان اللسانُ به ناطقاً ذَلُولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مَضى من الله كتابٌ ناطق وسُنّة عادلة، دلّ فيهما على طاعته، ونَهى عن مَعْصيته؛ ثم بَكى، فتلّقى دُموع عَينيه بردائه ونَزل. فلم يعد بعدَها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى.

- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِيّ بن أرطاة عامِله علي العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرةَ الخالق القادر عليك، واعلم أن مالَكَ عند الله أكثرُ مما لك عند الناس. وكتب عمرُ بن عبد العزيز إلى عُمَّالِه: مُروا من كان قِبَلكم، فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم، صغيراً ولا كبيراً، وذكراً ولا أنثى، إلا أخرج عنه صدقة فِطر رمضان: مُدين من قمح، أو صاعاً من تمر،

أو قيمة ذلك نصفَ درهم. فأما أهل العطاء فيُؤخذ ذلك من أعطياتهم، عن أنفسهم وعيالاتهم. واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يَقْبضان ما اجتمع من ذلك ثم يُقسّمانه في مَساكين أهل الحاضرة. ولا يُقسّم على أهل البادية [(١)].

- ثلاث من كنّ فيه فقد كمَل: من إذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا قدر عفا وكفّ.

- قيّدوا النعَم بالشكر، والعلم بالكتابة.

- ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، غمٌّ دائم، ونفَس متتابع.

- جاهدوا أهواءكم كما تجاهدوا أعداءكم [(٢)].

– كان عمر بن عبد العزيز يقول في دعائه اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك [(٣)].

- اتقوا المزاح فإنها حمقة تورث ضغينة. - - وقال: إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه يضحك وقيل: إنما سمي مزاحا لأنه مزيح عن الحق [(٤)].

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١ / ٥، ٨، ٩، ١١، ٢٤، ٣٦، ٧٩، ١٣٣، ١٣٥، ١٥١، ١٧٠، ١٧٩، ٢٣٣، ٢٣٨، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٧، ٣٤٠، ٣٤٦، ٣٧٤، ٤٢٩، ٥/٢، ٦/٢، ٧، ١٦١، ٤٤٩، ٣٢/٣.

(٢) المبرد، الفاضل، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٧.

(٣) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١ / ١٩٤،
٤٩/٢، ١٦٢.

(٤) أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٧٧م، ص ٣٧، ٨٤.

- وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا: لا تصحبن السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ::: والجمر يوضع في الرماد فيخمد

- مثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه.

قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة ::: في البحر ترجف دائما من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها ::: يغتالها مع مائها في جوفه

- القلوب أوعية والشفاء أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفتاح سره ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان اوثق لها وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن سطواته (١).

- المحظوظ التَّقي يلجم لسانه، أخذه الحسن بن هانئ فقال:

إنَّما العاقل من أل ::: جم فاه بلجام
مت بداء الصَّمت خيرٌ ::: لك من داء الكلام

- تحدثوا بكتاب الله تعالى، وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديثٌ من

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١٧٤/١، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٤٩، ٢٥٥، ٤١٥، ٤٤٤، ٦٢/٢، ١٩٧، ٥٧٧.

أحاديث الرّجال حسنٌ جميل.

- لذّة العيش ظفرك بمن تحبّ بعد امتناع، ولذة لا توجب عليك إثماً، وحقٌ وافق هوىً.

- الدَّين وقرٌ طالما حمله الكرام.

- كانت الهدية فيما مضى هدية، أما اليوم فهي رشوة.

- ذكر النعمة شكر.

- من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل.

- وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، إلى بعض عماله: أمّا بعد، فإنّ العقل المفرد لا يقوى به على أمر العامّة، ولا يكتفي به في أمر الخاصّة، فأحي عقلك بعلم العلماء والأشراف من أهل التّجارب والمروءات، والسّلام.

- خصلتان لا تعدمك إحداهما من الأحمق، أو قال من الجاهل: كثرة الالتفاف، وسرعة الجواب.

- ما قرن شئ إلى شئ أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

- أفضل الجهاد جهاد الهوى.

- أحب الأشياء إلى الله أربعة: القصد عند الجدة، والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب، والرفق بعباد الله في كل حال.

- أيها الناس! إنما الدنيا أجل محترم، وأمل منتقص، وبلاغ إلى دارٍ غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله من فكر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه. أيها الناس! قد علمتم أن أباكم أخرج من الجنة بذنبٍ واحد، وأن ربكم وعد على

التوبة خيراً، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل، ومن ربه على أمل [(١)].

- ما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية ويواليه في السر [(٢)].

- رحم الله رجلاً أهدى إلينا عيوبنا [(٣)].

- الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، الملك والصدقة تدخلك عليه.

- وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها عقوبة فاحذرها فإن الزاد منها ربحها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه، يحمى قليلا مخافة ما يكرهه طويلا، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدنيا الغدارة المكارة، الختالة الخداعة، التى قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وتحلت بآمالها، وتشرفت لخطابها، فأصبحت بينهم كالعروس تجلى على بعلها، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهى لازواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الاخر بالاول مزدجر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدكر، فمن عاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١ /٧، ١٢، ١٨، ٢٠، ٢١، ٤٣، ٦١، ٦٦، ٧٤، ٧٧، ٨٠، ٩٣، ١١٧، ١١٩، ١٣٢، ١٣٤، ١٧١، ٢٠٠، ٢٣٦.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ١ / ٦٤.

(٣) أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ١/٢٢٩، ٢٧٤.

وطغى ونسى المعاد، وشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت بألمه، وحسرات الفوت بغصته، ومن راغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب، خرج منها بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها ثم احذرها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور اشخصته إلى مكروه، والسار منها لاهلها غار، والنافع منها في غد ضار، قد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها للفناء، فسرورها مشوب بالاحزان، ونعيمها مكدر بالاشجان، لا يرجع ما ولى منها وأدبر، ولا يدرى ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبه، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، والانسان فيها على خطر أن عقل ونظر، وهو من النعماء على غرر، ومن البلاء على حذر، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت هي نفسها قد ايقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر، وبتصاريفها واعظ، فما لها عند الله قدر، ولا نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك محمد بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضعه مليكة، زواها الرب سبحانه عن الصالحين اختبارا، وبسطها لاعدائه اغترارا، فيظن المغرور بها، المقتدر عليها، إنه أكرم بها، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمد من شده الحجر على بطنه، وقد جاءت الرواية عنه عن ربه سبحانه إنه قال لموسى: إذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى، كان يقول: أدامى الجوع، وشعارى

الخوف، ولباسي الصوف، وصلائى في الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ووسادى الحجر، ودابتي رجلاى، وفاكهتي وطعامي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لى شئ، وليس على الارض أحد أغنى منى(١).

- أفرش طعامك اسم الله وألحفه حمد الله (٢).

- ما الجزع مما لأبد منه؟ وما الطمع فيما لاَ يُرْجَى؟ وما الحيلة فيما سيزول؟

- من يَزْرَعْ خيراً يُوشِكْ أن يَحْصد غِبْطة ومن يزرع شرا يوشك أن يحصد ندامة.

- وقالَ له رجل: جَزَاكَ الله عن الإسلام خيراً فقالَ: بل جَزَى الله الإسلام عني خيراً.

- وأتى برجل كان واجداً عليه فأمر بضربه ثم قالَ: لولاَ أنى غضبان عليك لضربتك ثم خلَّى سبيله

- تعلموا العلم فإنه عون للفقير، أما أني لا أقول يطلب به الدنيا ولكن يدعوه للقنوع.

- وقال عمر بن عبد العزيز لرجل كان يكثر الصياح والجلبة: اخفض الصوت، فلو نيل خير برفع الصوت لأدركه الحمير

(١) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٥٦/٣، ١٠٤/١٧، ١٤٤/١٨، ٣٢٩/١٨، ٣٣٥، ٢٩٥/١٩.

(٢) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كتاب خاص الخاص، تحقيق: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة - بيروت / لبنان -، ص ٥٦.

والكلاب.

- لا يكون المزاح إلا من سخف أبو بطر. وقيل: المزاح يبدي المهانة ويذهب المهابة. والغالب فيه واتر، والمغلوب ثائر.

- ما لله عز وجل على العاقل بعد الإسلام نعمة أفضل من مباينة العامة بالفهم والعقل.

- لم يعد المرء ما قسم له، فأجملوا في الطلب فإن في القناعة سعة وكفا عن كلفة لا تحل. وقيل: اطلبوا الحاجات بعزة الأنفس فإن بيد الله قضاءها.

- الدنيا لا تضر إلا من أمنها ولا تنفع إلا من حذرها.

- ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فمن رزق خيراً بعد ذلك فهو خير [١].

- أيها الناس إنما خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار.

- وخطب فقال: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله للحكم فيكم، والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض. واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين؟ وسيخلفها من بعدكم الباقون، حتى تردوا إلى خير الوارثين.

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١ / ٩، ٣٠، ١٢٩، ١٣٩، ٢١٥، ٢٤٩، ٤٨٦، ٤٨٩، ٣١/٢.

ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، ووجه إلى الحساب، غنياً عما ترك، وفقيراً إلى ما قدم. وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي. وأستغفر الله لي ولكم، وما بلغت حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده معي ومع لحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وايم الله لو أردت غير هذا من عيش لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته.

وسأله رجل عن الجمل وصفين، فقال عمر: تلك دماء كف الله يدي عنها، فأنا أحب ألا أغمس لساني فيها.

- وكان يقول: اللهم إني أسألك رضوانك، وإلا أكن له أهلاً فعفوك.

- وقال لأصحابه: إذا كتبتم إليّ فلا تكتبوا الأمير، فليست الإمارة أفضل من أبي.

- وقال: من أحب الأمور إلى الله عز وجل الاقتصاد في الجدة، والعفو في القدرة، والرفق في الولاية.

- قيل: أول من اتخذ المنابر في المساجد للأذان عمر بن عبد العزيز، وإن أول من دعي له على المنابر عبد الملك.

- إن أقواماً لزموا سلطانهم بغير ما يحق الله عليهم، فأكلوا بخلاقهم، وعاشوا بألسنتهم، وخلفوا الأمة بالمكر والخديعة والخيانة، وكل ذلك في النار. ألا فلا يصحبنا من أولئك أحد ولا سيما خالد بن

عبد الله. وعبد الله بن الأهتم فإنهما رجلان لسنان، وإن بعض البيان يشبه السحر، فمن صحبنا بخمس خصال، فأبلغنا حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ودلنا على ما لا نهتدي إليه من العدل، وأعاننا على الخير، وسكت عما لا يعنيه، وأدى الأمانة التي حملها منا ومن عامة المسلمين فحيّهلا، ومن كان على غير ذلك ففي غير حلّ من صحبتنا والدخول علينا. وأتي بقوم أخذوا على شراب وفيهم شيخ، فظنه شاهداً، فقال له: بم تشهد؟ فقال: لست شاهداً ولكني مبتلى، فرق له عمر، وقال: يا شيخ؛ لو كنتم حين اجتمعتم على شرابكم قلتم: اللهم تولنا ولا تولنا غيرك لم يعلم بكم أحد.

- وكتب عمر إلى عدي بن أرطأة في شيء بلغه عنه: إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت.

- وقال: لو كنت في قتلة الحسين وأمرت بدخول الجنة ما فعلت؛ حياء أن تقع عليّ عين محمد .

- وقال: ما أطاعني الناس فيما أردت من الحق حتى بسطت لهم طرفاً من الدنيا.

- وكتب أن امنعوا الناس من المزاح، فإنه يذهب المروءة، ويوغر الصدر.

- وكتب إلى بعض عماله: لا تجاوزنّ بظالم فوق حده فتكون أظلم الظالمين.

- لو تخابثت الأمم فجئنا بالحجاج لغلبناهم. ما كان يصلح لدنيا ولا آخرة، لقد ولي العراق فأخربه حتى لم يؤد إلا أربعون ألف ألف درهم، وقد أدي إليّ في عامي هذا ثمانون ألف ألف درهم، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إليّ ما أدي إلى عمر بن الخطاب: مائة

ألف ألف وعشرون ألف ألف درهم.

- حكى عن عدي بن الفضيل قال: خرجت إلى عمر أستحفره بئراً بالعذبة، فقال له: وأين العذبة؟ فقلت: على ليلتين من البصرة، فتأسف ألا يكون بمثل هذا الموضع ماء، فأحفرني واشترط عليّ أنه أول شارب يأتي السبيل. قال: فحضرته في جمعة وهو يخطب فسمعته يقول: أيها الناس، إنكم ميتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري: لئن كنتم صادقين لقصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم، أيها الناس، إنه من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأته، فأجملوا في الطلب. قال: فأقمت عنده شهراً ما بي إلا استماع كلامه.

- ما كلمني رجل من بني أسد إلا تمنيت له أن يمد له في حجته، حتى يكثر كلامه فأسمعه. ولذلك قال يونس: ليس في أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو راجز أو كاهن أو فارس.

- قيدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتاب.

- وخطب الناس لما مات ابنه عبد الملك، فقال: الحمد لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على عباده، فسوى فيه بين ضعيفهم وقويهم، ورفيعهم ودينهم، فقال تبارك وتعالى:{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ} [آل عمران: ١٨٥]. فليعلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم، مقرون بأعمالهم، واعلموا أن لله مسألة فاحصة، قال تبارك وتعالى:{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾} [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقال: إذا استأثر الله بشيء فاله عنه.

- وقال في خطبة له: أيها الناس، إنما الدنيا أمل مخترم، وأجل منفض، وبلاغ إلى دار غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج.

فرحم الله امرءاً فكر في أمره، ونصح نفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه. أيها الناس، قد علمتم أن أباكم أخرج من الجنة بذنب واحد، وأن ربكم وعد على التوبة، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل، ومن ربه على أمل.

- وقال: لا يتزوج من الموالي في العرب إلا الأشر البطر، ولا يتزوج من العرب في الموالي إلا الطمع الطبع. ألأا وقال لابنه عبد الله: يا بني، التمس الرفعة بالتواضع، والشرف بالدين، والعفو من الله بالعفو عن الناس، ولا تحقرن أحداً؛ فإنك لا تدري لعل بعض من تزدريه عينك أقرب إلى الله منك وسيلة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، ولا تنس نصيب الناس منك.

- وخطب بعرفات فقال: إنكم قد أنضيتم الظهر وأرملتم؛ وليس السابق اليوم من سبق بعيره ولا فرسه، ولكن السابق اليوم من غفر له.

- وخطب فقال: أيها الناس؛ لا تستكثروا شيئاً من الخير أتيتموه، ولا تستقلوا شيئاً منه أن تفعلوه، ولا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف من ذنوبكم بالتوبة، والعمل الصالح فيما غبر من آجالكم، فإن الحسنات يذهبن السيئات. وقد ذكر الله عز وجل قوماً، فقال:{ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾} [آل عمران: ١٣٥]، وإياكم والإصرار على الذنوب؛ فإن الله ذكر قوماً بذنوبهم فقال:{ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ} [المطففين: ١٤ - ١٧]، نار لا تطفأ، ونفس لا تموت، فهي كما وصف الله عز وجل:{ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا} [السجدة: ٢٠]. و{كُلَّمَا نَضِجَتْ

جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ} [النساء: ٥٦]، فهل لأحد بهذا طاقة؟ من استطاع منكم ألا يحجبه الله فليفعل. وخطب فقال: أما بعد؛ فإنك ناشئ فتنة، وقائد ضلالة قد طال جثومها، واشتدت غمومها، وتلونت مصايد عدو الله فيها، وما نصب لأهل الغفلة من الشرك عما في عواقبها، فلن يهد عمودها، ولن ينزع أوتادها إلا الذي بيده ملك الأشياء، وهو الرحمن الرحيم. ألا وإن لله بقايا من عباده، لم يتحيروا في ظلمتها، ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور في قلوبهم تزهر، وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا نهج السبيل، وقاموا على اللقم الأكبر الأعظم. وهم خصماء الشيطان الرجيم. وبهم يصلح الله البلاد، ويدفع عن العباد، فطوبى لهم وللمستصبحين بنورهم، أسأل الله أن يجعلنا منهم. وخطب فقال: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه فغاضه من ذلك الصبر، إلا كان ما عاضه الله من ذلك أفضل مما انتزعه منه، ثم قرأ:{إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

- وكتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرم الله عليك فافعل، فإنه من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام.

- وقال: ما قرن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

- وقال رهم مولى عمر بن عبد العزيز: ولاني عمر ثم قال: يا رهم إذا دعتك نفسك إلى ظلم من هو دونك فاذكر قدرة الله عز وجل عليك، وانتقامه منك، وفناء ما يكون منك إليه عنه، وبقاء ما يكون منك إليه عليك.

- أتى عمر منزله فقال: هل من طعام؟ فأصاب تمراً وشرب ماء، فقال: من أدخله بطنه النار؛ فأبعده الله.

- أحسن الظن بأخيك حتى يغلبك.

- القلوب أوعية السرائر، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ منكم مفتاح سره.

- وقال لابنه: بت على بيان من أمرك، وليكن لك مطوي من سرك.

- ودخل عليه مسلمة بن عبد الملك في مرضه الذي توفي فيه فقال: يا أمير المؤمنين، أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عالة لا أحد لهم ولا مال لهم، فلو أنك أوصيت بهم إليّ أو إلى أشباهي من قومك ممن يكفيك مئونتهم. فقال: أقعدوني، ثم قال: يا مسلم؛ أما ما ذكرت من إيصائي بولدي إليك أو إلى أشباهك من قومي ليكفوني مئونتهم، فإن وصيي فيهم ووليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وأما ما ذكرت من إفقاري إياهم من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، وما كنت لأعطيهم حق غيرهم. وما ولد عمر إلا أحد رجلين: رجل اتقى الله فسيرزقه، ورجل غدر أو فجر، فلن يكون عمر أول من قواه بالمال على المعصية. ثم قال: عليّ بهم. فأدخلوا عليه وهم يومئذ اثنا عشر، فلما نظر إليهم اغرورقت عيناه بالدموع وقال: بنفسي فتية تركتهم، ولا أحد لهم. بلى يا بني، إني قد تركتكم بخير من الله، لا تمرون بمسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق. يا بني، إني ميلت بين رأيين: بين أن تفتقروا، أو يدخل أبوكم النار، فرأيت أن تفتقروا إلى آخر يوم من الأبد أحب إلي أبيكم من أن يدخل النار.

- وكتب إلى ابن حزم: أما بعد؛ فإن الطالبين الذين نجحوا، والتجار الذين ربحوا، الذين اشتروا الباقي الذي يدوم بالفاني المذموم، فاغتبطوا ببيعهم، وحمدوا عاقبة أمرهم، فالله الله، وبدنك صحيح، وأنت مريح، قبل أن تنقضي أيامك، وينزل بك حمامك، فإن اليسير الذي أنت فيه يقلص ظله، ويفارقه أهله، فالسعيد الموفق من أكل في عاجلته قصداً، وقدم ليوم فقره غدا، وخرج محموداً من الدنيا قد انقطع عنه علاج أمورها، وصار إلى نعيم الجنة. وكتب إلى بعض عماله: أما بعد؛ فلتخفّ يدك عن دماء المسلمين، وبطنك عن أموالهم، ولسانك عن أعراضهم، فإذا فعلت ذلك فلا سبيل عليك{إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢)} [الشورى: ٤٢].

- وكان من دعائه: اللهم أعطني من الدنيا ما تكفني به عن شهواتها، وتعصمني به من فتنتها، وتغنيني به عن جميع أهلها [١].

- لولا أنّ ذكر الله تعالى عليّ فرضٌ ما تفوهت به تعظيماً له.

- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم: أما بعد فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهماً مني، أو أمراً خفي علي لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد. ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معول كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم

(١) نثر الدر، ٢ /٨٧ - ٩٤.

يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم. ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة وتجشم من المشقة. رحم الله امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه. لولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري، والسلام.

- ما أحب أن يخفف عني الموت لأنه آخر ما يؤجر المسلم عليه[١].

- تعلموا العلم فإنه عون للفقر، أما إني لا أقول تطلب به الدنيا ولكن يدعو إلى القنوع.

- ما أنعم الله على عبد نعمةً فانتزعها منه وعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عوضه أفضل مما انتزع منه. ثم قرأ: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [٢].

- كتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب القُرَظي " أمَّا بعد: فإذا أتاك كتابي فعظني ". فكتب إليه إنَّ ابن آدم مطبوع على أخلاق شتى كيس وحُمق، وجُرأة وجُبن، وحلم وجهل؛ فداو بعض ما فيك ببعض، وإذا صحبت فاصحب من كان ذا نِيَّةٌ في الخير يُعنك على نفسك، ويكفيك مؤونة الناس، ولا تصحب من الأصحاب من

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ١ /٦، ١٤، ٢٦، ١٥١، ٢٣٤، ٢٧٩، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦١.

(٢) المبرد، التعازي والمراثي، ١٦/١.

خطرُهُ عندك على قدر حاجته إليك، فإذا انقطعت انقطعتْ أسباب مَوَدَّتك من قلبه، وإذا غرست غرسا، من المعروف، فلا تُضق ذرعك أن تَرَبَّة[1].

- أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله[2].

- أن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد، وأن ربكم وعد على التوبة خيراً، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل، ومن ربه على أمل[3].

- أنه ليمنعني من كثير الكلام مخافة المباهاة[4].

- لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية، ويطيعه في السر[5].

- ما وعظني أحد بأحسن مما وعظني به طاووس، كتب إلى أن استعن بأهل الخير يكن عملك خيراً، ولا تستعن بأهل الشر يكن عملك شراً كله[6].

- إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما[7].

- قال عمر بن عبد العزيز لزهرة بن معبد: لا تفعل شيئاً رياء، ولا تتركه حياء[8].

- ألا ترون أنكم من الدنيا في أسلاب الهالكين، وسيسلبها بعدكم

(١) ابن دريد، الفوائد والأخبار، ٢/١.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٧٩/١.
(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٨٠/١.
(٤) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١٢٥/١.
(٥) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١٨١/١.
(٦) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٢١٩/١.
(٧) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٠٥/١.
(٨) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣٧٧/١.

الباقون، حتى يرث ذلك خير الوارثين[1].

- من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه فقد أحسن صلته[2].

- ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الايمان من إذا غضب لم يخرجه غضبه إلى الباطل وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق وإذا قام جدال لا يأخذ ما ليس له وإذا تمكن منه الغضب على أحد حبسه ثلاثة أيام حتى يسكن غضبه ثم يحضره فإن وجب عليه العقوبة عاقبه وإلا أطلقه[3].

- أجملوا في الطلب، فلو أن رزق أحدكم في عرعرة جبل، أو حضيض أرض، لأتاه قبل أن يموت [4].

- كان عمر بن عبد العزيز، يرتعد ولصدره أزيز، ويقول: يا قوم، اذكروا صباح ذلك اليوم [5].

ويلك والله لو أن القرآن نزل على صخر لتفجر، ولوهبط على حجر لتكسر، وتقرؤه وأنت لاهٍ ساه، تتفكر في المنصب والجاه، كأن الليالي لا تطويك، والكلام لا يغْنيك، تدفن الآباء والأجداد، وتفقد الأخوة والأولاد، وأنت لازلت في إصرار وعناد، سبحان الله تغترّ بالشباب، وتزيّن الثياب، وتنسى يوم يُهال عليك التراب:

أبداً تصرُّ على الذنوب ولا تعـي ::: وتكثر العصيان منـك وتـدَّعي
أبداً ولا تبكـي كأنـك خالـد ::: وأراك بـين مـودِّعٍ ومشـيِّعِ

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٤٣٠/١.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٤٧٠/١.
(٣) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ٢١٨/١.
(٤) ثعلب، مجالس ثعلب، ٢/١.
(٥) عائض بن عبد الله القرني، مقامات القرني، ٨٠/٣.

لا تغفل ذكره، ولا تنس شكره، ولا تأمن مكره، هو الذي عفر بالطين، أنف فرعون اللعين، وفرّق جنوده أجمعين، مساكن من عصاه قاع قرقر، بعد ما أرسل عليهم الريح الصرصر، إذا غضب دمر المنازل على أهلها، وسوّى جبالها بسهلها، شابَ رأسُك، وما خفّ بأسك، ومازال في المعاصي فأسك، ما لك ما تردّك الآيات، ولا تزجرك العظات، ولا تتذكر الأموات، مصرٌّ مستكبر، تركب كل أمر منكر[١].

* * *

(١) عائض بن عبد الله القرني، مقامات القرني، ٣/٨٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القاريءُ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: ": اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذا الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب " (١).

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة،

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعـــةِ كـــامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُـــهم لا يُجْحَـــدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ.. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر والمراجع

- محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م.

- عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.

- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.

- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار.

- الشعراني: الطبقات الكبرى.

- خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر.

- ابن قتيبة الدينوري: المعارف.

- أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [ت: ٢٧٧هـ]، المعرفة والتاريخ، المحقق: د أكرم العُمَري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨١

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات

الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.

- أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ١٩٧٠، بيروت - لبنان

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)

١ - تذكرة الحفاظ، الناشر: صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت اعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية دار إحياء التراث العربي.

٢ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣ - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٤ - العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.

٥ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- أبو المحاسن بن تغربردي: النجوم الزاهرة.

- السيوطي: طبقات الحفاظ.

- الحنبلي: شذرات الذهب.

- د/ عبد الرحمن رأفت الباشا: صور من حياة التابعيين.

- محمد بدر الدين: سعيد بن المسيب.

- تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٢م، بيروت.
- البلاذري: أنساب الأشراف.
- الإمام أحمد بن حنبل: الزهد.
- أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن عساكر تاريخ ابن عساكر
- اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.
- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل.
- محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨ - ١٩٧٨.
- ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، معجم البلدان، دار الفكر – بيروت.
- محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير، مكتبة السنة، الطبعة الرابعة.
- السلمي: طبقات الصوفية.
- يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠.

- الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر، مكان النشر حلب / بيروت، سنة النشر ١٤١٦ هـ.

- اليافعي: روض الرياحين.

- أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

- ابن الشجري، الأمالي الشجرية.

- ابن حمدون: التذكرة الحمدونية.

- ابن عبد ربه، العقد الفريد.

- أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر - بيروت / لبنان - ١٤١٩هـ - ٩٩٩ م، الطبعة الرابعة.

- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

- أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الناشر دار الكتب العلمية، سنة النشر ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، بيروت.

- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م الطبعة: الأولى.

- كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

- أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.

- هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢.

- أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفسال، دار المعارف - القاهرة.

- أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي، دار الخاني - بيروت، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

- ابن الكلبي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة، - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

- محمد بن محمد العواجي، مرويات الإمام الزهري في المغازي، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

- الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة - للإمام البغوى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة: الثانية، - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- الطرطوشي، سراج الملوك.

- تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى و مدثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م،

- يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠، ٥/ ٣٩٢.

- العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين.

- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

- الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم ماريني، دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢.

- أبوبكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجري، أخلاق العلماء، تحقيق ومراجعة: اسماعيل بن محمد الأنصاري و عبدالله بن عبدالطيف آل الشيخ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

- أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار إبن زيدون - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

- محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي أبو الحسين، معجم الشيوخ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، مكان النشر بيروت، طرابلس، سنة النشر ١٤٠٥.

- محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مشاهير علماء الأمصار، تحقيق: م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية - بيروت، - ١٩٥٩.

- ابن أبي الدنيا، مجابو الدعوة.

- محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس، : دار صادر - بيروت.

- ابن أبي الدنيا، الأولياء، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣.

- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، تحقيق د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، مكان النشر بيروت / لبنان، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوابين، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم - بيروت - ١٩٩٧م.

- ابن الملقن، طبقات الأولياء.

- بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

- بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، (تهذيب لكتاب شعب الإيمان للبيهقي)، هذبه: محمد خلف سلامة.

- أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، الإمتاع

والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

- المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان.

- أبو الحسين ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.

- أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، طبقات الصوفية، حقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ.

- ابن الكلبي، أنساب الخيل.

- الثعالبي، اللطف واللطائف.

- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم.

- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق.

- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.

- كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

- عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١ - ١٩٥٢.

- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

- ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.

- عائض القرني، سلسلة دروس القمم لأهل الهمم الصوتية.

- الدكتور عبد الله العبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد.

- عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.

- أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا.

- ولتر م. باتون: أحمد بن حنبل والمحنة، ترجمة عبد العزيز عبد الحق.

- أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني.

- ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد.

- عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية.

- طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الاسلام.

- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، وضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.

- أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة.

- الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر.

- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

- إبراهيم بن إسحاق الحربي، رسالة في أن القرآن غيرمخلوق، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

ابن كنان، يوميات شامية.

- الإمام النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، دار النشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى سنة النشر ١٩٩٦.

- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- الوطواط، غرر الخصائص الواضحة.

- عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمل اعتقاد أئمة السلف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.

- اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم.

- زَيْنُ الْعَابِدِيْنَ بْنِ إِبْرَاهِيْم بْنِ نُجَيْمٍ (٩٢٦ - ٩٧٠هـ)، الأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِيْ حَنِيْفَةَ النُّعْمَانِ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

- القاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب، سنة النشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- التقي الغزي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية.

- أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.

- الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر.

- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م

- علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ: الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار.
- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار، مكتبة القرآن - القاهرة - ١٤٠٥.
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي.
- أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري - بيروت.
- أخبارالظراف والمتماجنين، تحقيق بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٧م.
- أخبار النساء.
- الأذكياء.
- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
- التاج في أخلاق الملوك.
- البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، الناشر: دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.
- البرصان والعرجان.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- المحاسن والأضداد، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص ٥٠، ١٢٨، ١٩٢.
- المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح.
- ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس.
- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م
- عثمان بن محمد الخميس، حقبة من التاريخ، مكتبة الإمام البخاري، مصر - الإسماعيلية، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ

- محمد بن منصور بن حبيش، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- سنة النشر ١٩٩٦م، مكة / الرياض.
- إبن دريد، تعليق من أمالي ابن دريد.
- السرّاج القارئ، مصارع العشاق.
- الزمخشري، ربيع الأبرار.
- المرزباني، نور القبس.
- القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد.
- الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر.
- الوطواط، غرر الخصائص الواضحة.
- د. شحادة الناطور، عبد الله بن الزبير.
- إسماعيل الجبوري، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام.
- سليمان بن صالح الخراشي، عبد الله بن الزبير.
- ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه.
- ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.
- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.
- أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر.
- المبرد، التعازي والمراثي.
- ابن الأبار، إعتاب الكتاب.
- أسامة بن منقذ، لباب الآداب.
- الرقيق القيرواني، قطب السرور في أوصاف الخمور.
- أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت.
- ابن طيفور، بلاغات النساء.

- أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه.
- د. محمد شقير، فقه عمر بن عبد العزيز.
- ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز.
- ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز.
- أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي، المراح في المزاح، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم - بيروت - الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٧٧م.
- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان.
- أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.
- عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى: ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت.
- الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس.
- ابن دريد، الفوائد والأخبار.
- داود الأنطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق.
- أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين

المصري، إتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار - عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

– أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس و د. عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

– أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كتاب خاص الخاص، تحقيق: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة - بيروت / لبنان.

– عائض بن عبد الله القرني، مقامات القرني.

* * *

الفهـرس